XII

صحيفة	سطر	غلط	صوابهُ
٠٥٤	١٠	عنه	عند
٠٥٦	١٦	هوو	وهو
٠٥٧	٠٨	المغلقين	المفلقين
٠٦٢		*Renaissnce*	*Renaissance*
٠٦٨	٠٧	قروه	قرروه
٠٦٨		*Menendarz*	*Menendoz y Pelayo*
٠٧٧	٠٤	اشعارهم	اشعارهما
٠٩٩	٠٦	حدود	حدوداً
١٠٤	٠١	ينكر	ينكران
١٣٩	١٠	يقبضون	يقبضان
١٤٣	٠٨	اذا	اذ
١٤٤	١٤	بكتابة	كتابة
١٤٦	٠٨	ويتباهان	يتباهيان
١٤٦	١١	لعهدهم	لعهدهما
١٦٣	٠٧	بذوقونه	يذيقونه
١٧٠	٠١	الكتيرين	لكثيرين
١٧٢	٠٧	تفوفه	تفوقه
١٩٢	٠٩	بها	فيها
٣٠٩	١٦	لك تأييداً	لك ذلك تأييدا
٢١٣	١١	رساءهم	رؤساءهم
٢١٤	٠٨	مما ذكر	شيء مما ذكر
٢٣١	٠٧	أذكر الشعر	أذكر أبواب الشعر
٢٣٩	١٠	ويثائره	ويثأره
٢٤٠	٠٢	الحضر	الحضري
٢٥٦	١٢	النظر بما	النظر فيما
٢٥٦	١٢	تأملت بما	تأملت ما
٢٧٨	٧ و ٩	غض	غصن
٢٨٦	١٢	الذي	اللذي

ويبقى بعد هذا أغلاط طفيفة لا تخفى على نباهة القارئ الاديب

اصلاح غلط

صحيفة	سطر	غلط	صوابهُ
٠٢٠	١٠	ابيات	ابياتاً
٠٢١	٠٣	وتسميتها	وتسمية ذلك
٠٣٩	٠٧	العاملين	العالمين العاملين
٠٤٢	٠٦	فجآء	فجآءت
٠٤٨	٠١	ولكن كلاهما	ولكنهما
٠٤٨		*Diascalies*	*Didascalies*
٠٤٩	١٦	نقادين	نقادي
٠٥٤	٠٥	اريستاك	اريستارك

فهرس الكتاب

مكتبةٍ كبيرة ، وليس ذلك بميسورٍ على القرّآء كافّةً ، فضلاً عما في هـذه الاحالة من اضاعة الوقت بطول المطالعة ، وفوت اللذة والفائدة من قرآءَة هذا الشعر ، أو تكرار قرآءَته ممن اطلع عليهِ وعلق بذهنه ، وقليل ما هم .

وانت لا تجهل ، ما لتنسيق هذه القصائد من الفائدة ، لطلبة العلم والقرّآء ، مشفوعة بالنقد على الوضع المتقدم ، ليظهر مكان هذه الموازنة من الصحة ، وهـذه وظيفة الناقدين على الخصوص .

وأخيراً فلا يجهل جمهور الافاضل المحققين ، ما يتحتم على المؤلف من تقريب طرق التفهيم ، وتيسير أسباب التعليم ، وتسهيل أسباب تناولهِ ، وحصر ما يتعلق بكل فنّ من الفنون ، في كتابٍ واحد على قدر الجهد والاستطاعة ، وما أنتم بمعجزينَ في الارضِ ولا في السمآء .

تم الجزء الأول من منهل الوراد في علم الانتقاد ويليه الجزء الثاني
وفيه جل القواعد وختام الكتاب

قد يخالج قلوب بعض الادبآء ، اعتراضٌ على سردي كثير من الشواهد والامثلة الشعرية التي أتيتُ بها،لزعمهم انهُ كان يُستغنى بذكر بيت او بيتين ، والاشارة بذلك الى القصيدة التي تعمدت موازنتها .

فلدفع هذا الاعتراض اقول : انني لم أجد بُدًّا من ايراد عدة قصائد لكثير من الشعرآء بيانًا لتفننهم في الباب الواحد من الابواب الواسعة ، كالعتاب وما بعده ، وتصرّفهم في مقامات الكلام ، وايضاح تقصير بعض المجيدين منهم احيانًا ، في باب عُرفوا فيه بالسبق ، كصريع الغواني في الغزل والنسيب ، او تخلّفهم في باب دون آخر ، كالبحتري والمتنبي في العتاب ، او غير ذلك ، واشباع الكلام في ذلك كله ، الى حدّ قدّرت انه غير مملّ ، لحصول الفائدة المرجوّة ، وعلى الجملة اعطآء الموازنة حقها من البراهين ، في التفضيل والتقصير .

واما الاشارة الى القصيدة بذكر بيتٍ منها واحالة القارىء ، على ديوان الشاعر الموازَن كلامهُ ، فهو مما أنكرَ على كثير من العلمآء ، اذ قد يستدعي الامرُ أحيانًا، مطالعة

الشعرآء ، ولا عجب في ذلك ، فالشريف في باب الرثآء لا يدانيه مدان .

واذا نظرت بعد هذا في رثآئهِ شرف الدولة بن عضد الدولة ، وعلمت انه كان ملكاً عظيماً ، وكانت له على الشريف يدٌ لا تقابلها يد — اذ كان قد اطلق والدهُ النقيب أبا احمد الموسويّ ، وكان معتقلاً في فارس بأمر والده عضد الدولة — وجدت انهُ لم يذهب في رثائه الى الاغراق ، بل ذكر بسطة ملكه ، وعزَّ سلطانه ، وهيبته وشجاعته ، وحسن تدبيره . ومن راجع تاريخ شرف الدولة تحقق ما قاله فيه الشريف ، فانه لم ينسب اليه شيئاً مما ليس فيه ، كالفضل ، والفصاحة ، واللطف ، والعدل ، والرحمة ، ومحبة العلم والعلماء ، الى غير ذلك من الفضائل بل صوَّر عظمته ، ومواكبه ، وسماطه ، وخيوله ، وافياله وما جرى مجرى ذلك . ومع ذلك كله ، فان هذا الرثآء يُعَدُّ في أعلى طبقة من الشعر ، والشريف والمتنبي في هذا الميدان، يجريان جري سابقي رهان

بقيت في النفس كلمة أختم بها هذا الفصل ، تلك انه

بالقدح المعلّى في هذا الباب .

وأما رثاء الشريف الرضي فقد بلغ به أبعد مدى من التفجُّع والندب ، ومع ذلك فاذا نظر الناقد البصير ، الى كلامه في رثاء الصابئ وجدهُ متسلسلاً بماء الفصاحة ، واذا دقق في حل معاني كل بيت من ابيات قصيدته المتقدمة ، لا يرى مبالغةً او اغراقاً مكروهَيْن ، فقد كان الصابئ كاتب الخلفآء ، ورئيس ديوان الرسائل عندهم ، ومكانهُ من العلم والشعر وبراعة الانشآء ، فوق ان يفيه حقهُ مترجم ، وكانت بينه وبين الشريف الرضي مودةٌ اكيدة ، فعدَّد الشريف اوصافه ، وذكر مكانه من الفصاحة والبلاغة ، وقدرهُ الجليل في الدولة العباسية ، وناح عليه ما شآءت الصداقة والمروءة ، نوحاً لا يخامره ريآء . ولم يخرج في كل ذلك عن المشهور من صفات الميت ، فلم ينسب له الشجاعة ولا المواقف في الوقائع الحربية ، ولا الجود ، ولا الخطابة ، ولا جمال الوجه ، ولا غير ذلك مما ليس فيه ، ولكنه اكتفى بوصف صفاته الحقيقة ، وذكر صدق وداده ، وأتى من الرثآء ، بما يعجز فحول

اذا ما مات ، قام ابن وكيع يسوِّئ كلامه ، وهذا شأن بعض الجبناء من هذا الخلق .

ثم وصف المتنبي ما كانت عليهِ الميتة من مجد الملك وعزه ، وأشار الى كرمها العظيم ، ثم صورلنا احتفال جنازتها ، وكيف مشى الامراء حول نعشها حُفاةً فوق الحصى كما لو مشوا على ريش النعام ، وكيف برزت رَبَّاتُ الخدور ، وقد سوَّدن وجوههنَّ والدموع تجري على خدودهنَّ يمشينَ وراءَ نعشها خاشعات الابصار ، وجلال الجنازة ومجدها قد عقد الالسنه فلم يُسمع صوت في ذلك الجمع الغفير ، ثم ختم الرثاء بما يدلُّ على كمال مجد هذه الفقيدة الجليلة فقال :

ولو كانَ النساءُ كمَنْ فقدنا لفُضِّلتِ النساءُ على الرجالِ

وهو أبلغ بيتٍ مُدحتْ بهِ أنثى .

على انك اذا تفقَّدتَ قصيدتيه المذكورتين ، تجده أعطى جدَّتهُ صدق عواطفه ، وأمَّ الملك حق الاعزاز والاجلال واستعظام الخطب .

وأنت ترى بعد هذا الشرح والموازنة ان المتنبي قد فاز

الجميل غير مختار . اه قلتُ لو ذاق ابن وكيع طعم الخواطر السامية ، وما كانت تولدهُ مخيّلة ابي الطيب لهُ من الصور الصادقة ، لما انتقد هذا الانتقاد البارد ، فان المتنبي لمـَّا تصورت له الميتة في ساعة النزع ومابعدها ، دعا لها بالرحمة ، فجعل الحنوط صلاة الرحمن ، وخطرت في فكره شناعة منظر الموت ، وما يجرّهُ على أبدع الصور من الانقلاب ، فاستدرك الدعآء بقوله : على الوجه المكفّن بالجمالِ : قال شيخنا وجعل وجهها مكفنّاً بالجمال ، اشارةً الى أن الموت لم يغيّر محاسنها وانما بقي عليها جمالها كالكفن . اه وهو من أبدع ما تصوّرهُ خاطر شاعر في مثل هذا المقام . وكأن المتنبي قد تنبأ بنقد ابن وكيع فشفع ذكر الجمال ، بذكر الصون وكرم الخلال ، ليدفع مثل هذا الاعتراض الفظ ، ولكن لا عجب من ابن وكيع في ذلك ، وهو صاحب كتاب المنصف (كذا) ألَّفه في بيان سرقات المتنبي حسب زعمهِ ، ورُوي ان المتنبي لفحهُ بشيء من الهجو ، وقيل بل قابلهُ — وكان ابن وكيع شابًّا — بالاستخفاف والازدرآء ، فنقم ذلك على المتنبي ، حتى

حجج الفصحآء والمؤرخين . فكان يصوّر في اكثر شعره ، صور الحوادث ، لتبدو لأعين القارئ كما بدت لأَعين الرآئي ، وهذا ما فعلهُ بعدهُ مشاهير مصوّري الفرنجة .

فقد افتتح الرثآء بكلام فلسفيّ ، وانت تعلم انَّ المصوّر البارع ، اذا عمد الى تصوير مخدع ميت ، يرى ان يتخذ له نوراً ضعيفاً قاتماً ، ليكون المنظر ، أشدَّ هولاً وتأثيراً ، ثم يضع شموعاً حول سرير الميت .

وبعد ان تفلسف ، رأى ان يمهد لهول التأبين ، بذكر مصائبه ، ومحاربة الدنيا له كل يوم بفاجعة دهمآء ، ومصيبة غشمآء ، وهذا يشبه تصوير المصور ، احد أقرباء الميت ، يدنو من فراشهِ منحني الظهر خاشعا ، تتساقط دموعهُ على خدَّيه .

ثم جاء بذكر النعيّ ، فكان بمنزلة تصوير السرير ، ثم صوَّر الميتة احسن تصوير فقال : صلاةُ الله خالقنا حَنوطٌ على الوجهِ المكفن بالجمالِ : قال شيخنا في العرف الطيّب عند شرح هذا البيت قال ابن وكيع ووصفه أُمّ الملك بوجه

واما المتنبي فلو كان المقام مقام تقريظ ، لقلتُ هذا نبيُّ المعاني ، وأمير أمراء القريض ، وجامع اقصى غايات اللطف ، والمستولي على شتات الذوق ، والمتحلّي بأرق العواطف . ولكن المقام مقام نقد فأسترعي سمع الناقد لهذا النظام ، وأستلفت غاية دقته لهذه الدرر ، فقد جمع بقصيدته في رثاء جدّته ، أحنّ النوح ، وأبلغ التفجع ، وأشدهما وقعاً وتأثيراً في النفوس . وكل ذلك صادر عن القلب ، بعيد عن التكلُّف ، وفي طيّاتهِ حكاية الحال ببلاغة تعبير ، وفصاحة تركيب مولّدين ، بعيدين عن خشونة الاعراب ، والمبتذل من المولَّد ، وعلى الجملة ، فهو الذي قصَّر عنه السابقون ، وعجز عنه اللاحقون .

وانظر الى رثائه والدة سيف الدولة ، فقد جاء بالطبقة العالية من الكلام الجزل ، اذ رثاء الملكات ، يستدعي أن تخدمه ملكات الالفاظ ، ومَن أعلم من المتنبي بذلك ؛ وكأنه كان عالماً أن ستأتي عصور بعد عصره ، يتصدر فيها شعرهُ في أعلى المجالس ، ويتوّج به عرش كل خطاب ، وتُدعم بهِ

منه والأُنثى ، فكيف يطلب من صاحبهِ ان لا يبكي ابنته ، وان يعدَّ موتها حسنةً من حسنات الايام .

وأين سقطته هذه من رثآئه العالي وهو الذي يرثي أبا سعيد الطائي فيقول : انظرْ الى العلياءِ كيفَ تُضامُ : فبمثل هذا النظام دام فضل البحتري على تراخي الايام فانظر شرف هذا المطلع الذي أزرى بشعر النابغة وحسَّان ، وجمع أبعد غاية من صدق الوصف والاحسان ، فقد نبَّهَ على سمو قدر الميت ، وما كان له في الدولة العباسية ، من المرتبة العالية والاعمال الجلائل المرضية ، وكان ابو سعيد هذا من كرماء زمانه المعدودين ، واذا منحت هذا الشعر حقه من النقد ، وجدت البحتري لم يخرج في رثائهِ هذا البالغ غايةً بعيدةً من التفجع والوصف العالي عن دائرة الصدق ، ولم يذكر له غير الشجاعة والكرم ، لكنَّهُ استخدم اشرف الكلام لوصف المرثيّ ، فبلغ الغاية التي يرجوها من صدق النوح عليه ، وان هو لم يحرز في هذا الميدان سهم المبرّزين ، فهو في هذه القصيدة يُعَدُّ بعدهم في الاولين .

غاية الغايات .

اما همزية البحتري فليست في شيء من التعزية أو الرثآء ، بل أحرى بهذا الشعر ان يدخل في باب الهجآء ، وهي زلّةٌ من زلّات البحتري وهفوةٌ من هفواته ، فأنت تعلم ان الولد عزيزٌ على والديه ذكراً كان أو أُنثى ، اذ المحبة لا تتولد في قلب الانسان من عامل عقليّ ، بل طبيعيّ ، وان من يشاهد حسنآء لا يقع في هواها بعد طويل التبصُّر ومراجعة الفكر ، أو أَمل الوصول الى ربح منها أَو نفع ، بل انما هو يُدفَع الى محبتها بفاعل طبيعي ، ولعله سرٌّ من اسرار الجاذبية الغامضة ، ولما كان الحب مشتركاً فيهِ الحيوان الاعجم والحيوان الناطق ، فانظر الى الكلبة كيف ترضع اجرآءها بالسوآء ، والى الحمامة كيف تزقّ فراخها دون استثنآء ، ايكون الانسان ادنى رتبة من الحيوان ، ويعرى من اشرف مزية يتحلى بها في كلّ زمان ؟ والعجب من البحتري فيما جآء به في هذه القصيده ، وهو يعلم ولا شك ان كثيراً من الحيوان الاعجم ، يبكي لفقد ولده ويتألم ، لا يفرق او لا يميّز بين الذكر

والحمية والمساعدة التي تفخر بها على أمثالها : اذا كان ممن صفاتهم لا تنافي هـذا الوصف : ثم ختمت ذلك بذكر ما آلت اليه حالها بعدهُ عن المذلة والهوان ، مما ترثي لهُ القلوب ، فأحاطت بصدق الرثآء بكلام فصيح بليغ ، ولها في هذا المجال السهم الفائز .

واما رثآء أبي تمّام فمما لا يُختلَف فيهِ انه من أول السابقين في هذا السباق ، فانظر بأي رقّةٍ رثى أخاهُ ،وكيف وصف الحالة التي شاهدهُ فيها عند مفارقة الحياة ، وقد صوّر ساعة النزع صورة يعجز عنها مَهَرة المصوّرين ، بعد ان ناح على ادبه وشبابه ، فعلمنا منه انه كان جميل الصورة شابًّا ؛ ثم دعا على عينيه لما رأت من انقلاب سحنته بعد ذلك الحسن ، وعلى أذنيه لما سمعت من تلك الحشرجة ، ثم عاد الى نفسه فرأى ان الحزن تملكها الى أقصى غاية ، وانه لا يطيق الحياة بعدهُ على هذه الحال من الحزن والسقم فتمنى لو لحق بهِ .

وجملة ما يراهُ الناقد في رثآئه هذا ، فرط التفجع وشدَّة الغم الطبيعيين ، خالين من أثر الصنع ، بفصاحةٍ وبلاغةٍ هما

أين المراتبُ والدنيـا على قدمٍ
موقوفةً بين ارماحٍ واقـلام
أين الوفودُ على الابوابِ مُذْ كرةً
بالفرطِ من مجدِ أخوالٍ وأعمـامِ

فاذا وازنت بين القصائد المتقدمة موازنة ناقدٍ بصير تبيّن لك ان الخارجي وان كان قد جمع أقصى غايةٍ من غايات البلاغة في بيتيه الثاني والثالث ، الاّ ان ضمهما واضافتهما الى باب المدح أولى لولا بيته الاول الذي صرّح به بموت الرجل فقصره التفجّع على فقيده الكريم بلفظة : نِعمَ الفتى : — وهي ليست من التفجّع في شيءٍ — يُعد لهُ قصوراً يؤخره عن منازل السابقين .

أما الخزاعيةّ فقد استوفت بشعرها حقوق الرثآء فانها بعد ان استجاشت عيونها للبكآء على الجرّاح زوجها ، بدأت بتأبينـه ووصف صفاته ومخاطبته ليكون الخطاب أشد تأثيراً في النفس ، وأسرع في استدعآء الدمع ، وقد جمعت بكلامها كل ما يليق بحرّةٍ ان تراهُ في بعلها من الشجاعة

مَن للممالكِ لا يزالُ يلمُّها
بِبِسداد ثغرٍ ضائعٍ وسَداد

ومنها

ان لم تكنْ من أُسرتي وعشيرتي
فلأَنتَ أعقلهم يداً بودادي

وقال يرثي شرف الدولة بن عضد الدولة بن بويه

هل كانَ يومُكَ الاّ بعدَ أيام
سبقْتَ فيها بانعامٍ وارغامِ

. . . .

أينَ السريرُ وقد مدَّ السماطُ لهُ
إجلالَ اروعَ عالي القدرِ بسَّامِ
أينَ الجيادُ تنزّي في أعنّتها
يطلبنَ يوماً قطوباً وجهُهُ دامِ
أينَ الفيولُ كأَنَّ المتطينَ لها
على ذوائبِ أطوادٍ واعلامِ

كيف انمحى ذاك الجنابُ وعُطّلَتْ
تلكَ الفجاجُ وضلَّ ذاكَ الهادي

. . . .

هٰذا أبو اسحاق يُغْلَقُ رهنُهُ
هل زائدٌ أو مانعٌ أو فادِ

. . . .

أعزِزْ عليَّ بأن أراكَ وقد خلَتْ
من جانبيكَ مقاعدُ العوّادِ

ومنها

قد كنتُ أهوى ان أُشاطرَكَ الردى
لكن أرادَ اللهُ غيرَ مرادي

ومنها

مَن للفصاحةِ والبلاغةِ إن هما
ذاكَ الغمامُ وعبَّ ذاكَ الوادي
مَن للملوكِ يحزُّ في أعناقها
بظبىً من القولِ البليغِ حِدادِ

صلاةُ اللهِ خالقنا حنوطٌ		على الوجهِ المكفَّنِ بالجمالِ
على المدفونِ قبلَ التربِ صوناً		وقبلَ اللحدِ في كرمِ الخلالِ

. . . .

مشى الامرآءُ حوليها حفاةً		كأنَّ المرو من زفِّ الرئالِ
وابرزت الخدور مخبّآءاتٍ		يضعن النقس أمكنةَ الغوالي

. . . .

ولو كان النسآءُ كمن فقدنا		لفضّلتِ النسآءُ على الرجالِ

وقال الشريف الرضي يرثي أبا اسحاق الصابي[1]

أعلمتَ من حملوا على الاعوادِ
أرأيتَ كيف خبا ضيآءُ النادي
جبلٌ هوى لو خرّ في البحر اغتدى
من وقعهِ متتابعَ الأزبادِ

. . . .

(١) قال الثعالبي هو اوحد العراق في البلاغة ومن به تثنى الخناصر في الكتابة وتتفق الشهادات له ببلوغ الغاية من البراعة والصناعة وكان قد خنق التسعين في خدمة الخلفآء وخلافة الوزرآء وتقلد الاعمال الجلائل مع ديوان الرسائل .

أحنُّ الى الكأسِ التي شربتْ بها
وأهوى لمثواها الترابَ وما ضمّا

. . . .

أتاها كتابي بعدَ يأسٍ وترحةٍ
فماتتْ سروراً بي فمتُّ بها غمّا

حرامٌ على قلبي السرورُ فانني
أعدُّ الذي ماتتْ بهِ بعدها سمّا

. . . .

وما انسدَّتِ الدنيا عليَّ لضيقها
ولكنَّ طرفاً لا أراكِ به أعمى

فوا أسفا ألاَّ أكبَّ مقبلاً
لرأسكِ والصدرِ الذي مُلئا حزما

وقال أيضاً يرثي والدة سيف الدولة ملك حلب

نعدُّ المشرفيَّةَ والعوالي وتقتلنا المنونُ بلا قتالِ

. . . .

وهذا أوّلُ الناعينَ طرًّا لاوّلِ ميتةٍ في ذي الجلالِ

. . . .

ورزيئـةٌ حملَ الخليفةُ شطرَها
والمسلمون وشطرَها الاسـلامُ

مَن يعتفي العافي بهمّتـهِ ومَن
يجـدو اليـه المعـتمُ المعتامُ

أينَ العبوسُ المشمئزُّ اذا رأى
جنفاً وأينَ الأبلجُ البسامُ

. . . .

بي لا بغـيري تربةٌ مجفوّةٌ
لكَ في ثراهـا رمّةٌ وعظامُ

فعليكَ يا حلفَ الندى وعلى الندى
من ذاهبَيْنِ تحيّـةٌ وسلامُ

وقال المتنبي يرثي جدّتهُ

لكِ اللهُ من مفجوعةٍ بحبيبها
قتيـلة شوقٍ غيرِ ملحقِها وصما

كانَ اللّحاقُ به أهنى وأحسنَ بي
من أنْ أعيش سقيمَ الروحِ والبدنِ

وقال البحتري يعزّي أبا نهشل الطوسيّ عن ابنته

يا أبا القاسمِ المقسَّمِ في المجـ دِ وفي الجودِ والندى أجزآءَ

. . . .

أتبكي مَن لا يُنازلُ بالسيـ فِ مشيحاً ولا يهزُّ اللوآءَ
والفتى مَن رأى القبورَ لما طا فَ بهِ من بناتهِ أكفآءَ
قد ولدنَ الاعدآءَ قدماً وورّثْ نَ التّلادَ الأقاصيَ البعدآءَ
لم يئدْ كثرهنَّ قيسُ تميمٍ عَيْلَةً بل حميَّـةً وإبآءَ

. . . .

واستزلَّ الشيطانُ آدمَ في الجنْ ةِ لمـَّا أغرى بهِ حوَّآءَ
ولعمري ما العجزُ عندي الاّ أن تبيتَ الرجالُ تبكي النسآءَ

وقال ايضاً يرثي أبا سعيد الطائي بن محمد الثغري احد قوَّاد جيوش المعتصم :

انظرْ الى العليآءِ كيف تُضامُ
وماَ تَمَ الأحسابِ كيفَ تُقامُ

واذا دعت قُمْرِيَّةٌ شَجَناً لها
يوماً على فَنَنٍ دعوتُ صباحي

وقال ابو تمَّام يرثي أخاه

اني أظنُّ البِلى لو كانَ يفهمُهُ
صدَّ البِلى عن بقايا وجههِ الحسَنِ
يا يومَهُ لم تدعْ حسناً ولا أدباً
الاَّ حكمتَ به للَّحْدِ والكفنِ
للهِ مقلتُهُ والموتُ يكسرُها
كأنَّ أجفانَهُ سكرى منَ الوسنِ
يردُّ أنفاسَهُ كرهاً وتعطفُها
يدُ المنيَّةِ عطفَ الريحِ للغصُنِ
ياهولَ ما أبصرتْ عيني وما سمعتْ
أُذْني فلا أبصرتْ عيني ولا أُذُني
لم يبقَ من بدني جزءٌ علمتُ بهِ
الاّ وقد حلَّهُ جزءٌ منَ الحَزَنِ

سَهْلُ الفِناءِ اذا حللتَ ببابهِ
طَلْقُ اليدينِ مُؤدَّبُ الخدَّامِ
واذا رأيتَ صديقهُ وشقيقهُ
لم تدرِ أيَّهما ذوو الارحامِ

وقالت فاطمة الخزاعية ترثي زوجها

يا عينُ بكّي عندَ كلِّ صباحِ
جودي باربعةٍ على الجرَّاحِ
قد كنتَ لي جبلاً ألوذُ بظلّهِ
فتركتني أضحى بأجردَ ضاحِ
قد كنتُ ذاتَ حميَّةٍ ما عشتَ لي
أمشي البرازَ وكنتَ أنتَ جنَاحي
فاليومَ أخضعُ للذليلِ وأتَّقي
منهُ وأدفعُ ظالمي بالرَّاحِ
وأغُضُّ من بَصَري وأعلمُ انَّهُ
قد بانَ حدُّ فوارسي ورماحي

واما ابن بقّي فقد غار على فرائد المعاني فلم يذر ولم يبقِ وجمع بابياته الثلاثة من فائق التشبيه، وبديع الوصف ، ورقيق الكلام ، وبراعة النظم ، وبلاغة القول ، ودقة التصوير ، ولطف الشعور ، ما يخلب الالباب ، ويجدد في نفس القارىء والسامع عهد الشباب ، ولكن مثل هذا لا يتفق وقوعه للشاعر ولو كان من أرفع الطبقات ، الا اتفاقاً وفي أندر الحالات ، ولو كان شعر ابن بقّي كله مثل هذا المثال الساطع ، لكان أوحد شعرآء الدنيا دون منازع .

الفصل العاشر

في

موازنة الرثآء والعزآء

قال محمد بن بشير الخارجي

نعمَ الفتى فَجعتْ به اخوانَهُ
يومَ البقيع حوادثُ الأيامِ

واما قصيدة ابن هاني ففيها مآخذ ، بيد ان وصفه أشبه بوصف أبي الطيب المتنبي ، ولا بدع فهو متنبي الغرب وكلامه أيضاً ، يدل على استعمال نسآء الاندلس الطيوب واللثام ، وانهنَّ كنَّ يلبسن الابراد الطويلة وهي الثياب الحريريَّة الموشَّاة حتى يطأنها بأرجلهنَّ . وتشبيهُهُ مَيَسَ الحسنآء بتدافع الجدول حَسَنٌ ، واما ما أردفه بعد ذلك من تشبيهها بانسياب الحيَّة التي تدفع عنها التراب ، فهو في غاية القبح ، ولو أتى بهذا التشبيه بدويٌّ جلف ، لما وجدنا له عذراً ، فكيف والقائل رجلٌ تقضَّت أيامهُ في رياض أشبيلية وقصورها البديعة بين قومٍ قد اشتهروا بالخلاعة والظرف ، وامتازوا بالرقة واللطف ، هذا هو المأخذ الأَول الذي يؤخذ عليه ، واما المأخذ الثاني فهو اختياره كثيراً من الالفاظ غير المأنوسة كقوله البشام ، والاسحل ، وهذا في شعره كثير ، فلو خلت هذه الابيات مما ذكر ، لجآء ابن هاني بعد ابن الطثرية فان الرقة والانسجام ، وعواطف الغرام ، تسيل من شعرهِ كالشهد المذاب .

في هذه الابيات ، وان لم يكن الثاني في هذه الموازنة ، فهو بين الثاني والثالث .

وأما البحتري فهو في سائر شعره مشبّبٌ اكثر منه متغزّلٌ ، بيد انه أحسن الوصف في الابيات المتقدمة ، وذهب في الغرام ألطف مذهب ، وقد يكون الثالث في هذه الموازنة .

اما المتنبي فقد ملك أبعد غايات الغزل والرقة والوصف في قصيدته هذه ، وعرّفنا ان النسآء الحضريات لعهدهِ ، كنَّ يتخذنَ البراقع كما هو الشأن لهذا العهد عند المسلمات في بلاد الشام والعراق ، وكنَّ يضفرن شعورهن ضفائر ، ويجعدنَّها كما هو اليوم في اكثر مدن أوربَّا ، وكان التجعيد مستحسناً لعصرهِ وكنَّ يطيّبنَ شعورهن وقد يعقصنها كما يفعل كثير من النساء ليومنا هذا .

وهذه القصيدة عدا ما اشتملت عليه من الرقَّة والسلاسة ، فقد جمعت الفوائد التي هي في أعين المؤرخ ذات مقام رفيع ، فهي من كل الوجوه الثانية في هذه الموازنة .

ملأى المتن، متن غصن القوام . فقوله ملأى الحجلين . يريد ان مخلخليها وهما موضع الحجلين، مفعمان من اللحم غير مهزولين، وهو يمدحها بذلك ، وربما عاب اقوام ما استحسنه أبو تمام ، بيد ان ذلك مما يتعلق بالذوق قال الشاعر

من سالكاتٍ دُقِقِ الخلخالِ

وهم يحبون رنة الخلخال وبعضهم يحب خرسَهُ وللناس فيما يعشقون مذاهب . واما ان يكون غض قوامها، غير مهزول فعليه الجمهور .

وقوله : متن غضٍ وريقِ : يريد بذلك ان متن قوامها يحاكي الغصن الوريق ، فهو لَدْنٌ رشيق ، وتشبيههُ خدودها بلون الخمرة الممزوجة بماء الدرّ وماء العقيق ، هو في نهاية الحسن وغاية البلاغة ، وقوله انها كالظبية النافرة ولكن ربما وصل اليها من يصل الى الاشجار العالية ، أراد انها على ما بها من النفور ، لايستحيل الوصول اليها على مَن يسعى وراء ذلك بصبرٍ وثبات ، او على مَن يبذل دون ذلك ما تروم.

وعلى الجملة فقد ملك ابو تمَّام زمام البلاغة والاحسان ،

خوض المهلكات ، وانه لم يظفر منها بغير نظرةٍ أو نظرات ، وهو يسألها ان لا تحسب انقطاعه عن زيارة أرضها لسلوان أراب ، بل خشيةَ ان يهدر قومُهادمهُ فتحمل اثمَهُ يوم الحساب.

ولو شآء سواهُ ان يأتي بهذه المعاني والمقاصد الشريفة ، بأيّ كلامٍ وأيّ تعبير أراد . لما كانَ الاَّ سكّيتاً ورآءهذا المجلّي السابق . المالك أعنَّة البلاغة والبيان الفائق .

اما كلام صريع الغواني ابن الوليد . فهو الكلام المبتذل المنحطّ عن أدنى طبقةٍ من طبقات الفصاحة الشعريَّة . وقد تبرأت منهُ البلاغة العربية . فكأَنه ارتجله في ماخور مخاطباً به احدى المومسات في حضرة أبي نواس . بين الكأس والطاس . فليس به معنىً شريف أوغرض سامٍ عقليّ . وانما هو كلام لا ينطق به غيرالغاويات . وهنّ من الثياب والحيآء عاريات . فهو في هذه القصيدة يُعَدُّ آخراً ولاحقاً . وقد يُعَدُّ في سواها أولاً وسابقاً .

واما قول أبي تمَّام فانه كلام عربي نخيم وهو من أعلى طبقات الشعر العربي فهو يقول ان في خيمتهم ملأَى الحجلين

والمعصم ، العبل والبنان المتناسب مع الكف ، والشعر المسترسل الفاحم أو الأشقر ، والريق البارد المشبه بالشهد ، الى غيرهِ من الوصف المحدود ، ولا تكاد تجد شاعراً اختلف وصفه أو استحسانه عما ذكر ، بل من شذَّ من الشعرآء عُدَّ فاسد الذوق ، وسيأتي معنا بعد هذا زيادة ، ايضاح في هذا المعنى .

بقي انني لم أفتح باباً للتشبيب ، بيد انهُ معدود من الغَزَل ، وداخل في هذا الباب ، غير انهُ أوسع منه اذ يتعدى الى المخاطبات وحكاية الاجتماع والوقائع التي تدخل في باب الشعر القصَصي ، فاذا قصدله الشاعر وكان ممن رُزق الذكآء وحدَّة التصور ، دخل منه الى ميدانٍ فسيح .

أمَّا الفائز بالقدح المعلّى في هذا الرهان فهو ابن الطثرية ، غير مدافَع ، فقد أتى بالسهل الممتنَع ، وبلغ الغاية التي ما بعدها لمتغزلٍ مطمع ، فحكى واقعة حاله ، وشكى كثرة عذَّاله ، وتلطّف ما شآء الهوى ، وباح بما كتم من الغرام والجوى ، وعاتب فأخجل نسمات الصبا ، وهتك محاسن ازهار الربى ، فعلمنا ان محبوبته من كرائم الغانيات ، وان دون الوصول اليها

قلْ للتي أصمت فؤادَكَ خفّضي
وقْعَ السهامِ فقد أُصيبَ المقتَلُ

وقال أبو بكر بن بقّي من شعراء القلائد

عاطيتُهُ والليلُ يسحبُ ذيلَهُ
صهباءَ كالمسكِ الفتيقِ لناشقِ
حتى اذا مالت بهِ سنةُ الكرى
زحزحتهُ شيئاً وكان معانقي
أبعدتُهُ عن أضلعٍ تشتاقهُ
كيلا ينامَ على وسادٍ خافقِ

فاذا وازنت بين أقوال هؤلاء الشعراء ، بل ملوك الشعر ، علمت ان هذا الباب من الشعر ، باب واسع ، لكنَّ ما وراءه محدود ، فالوصف فيه لا يختلف ، والموصوفات هيَ هيَ ، الوجه والقدّ ، والعنق والخصر ، والمعاصم والبنان ، والثغر والشعر ، والمستحسن منها لا يتجاوز عدداً معلوماً مهما اختلفت الاذواق ، فالعيون السود أو الزرق ، وهذه بين نجلٍ وشهل واللون الابيض أو الاسمر ، والعنق الطويل والخصر النحيل ،

وقال ابن هاني متنبي الغرب

قامتْ تميسُ كما تدافعَ جدولُ
وانسابَ أيمٌ في نقاً يتهيّلُ

وأتت تزجّي ردفَها بقوامها
فتأطّرَ الأعلى وماجَ الأسفلُ

قمرٌ تردّى الحسنَ منهُ مقرطقٌ
ومشى على البرديّ منهُ الخلخلُ

ووراءَ ما يحوي اللثامُ مُقبَّلٌ
رتِلٌ بمسواكِ الأراكِ مُقبَّلُ

ما لي ظمئتُ الى جنى رشفاتهِ
وخلا البشامُ بِبُرْدِها والأسحلُ

وهيَ النحيلةُ أو خيالٌ عائدٌ
منها أو الذكرى التي تتخيَّلُ

طرقتْ تَحيدُ منَ الصباحِ تخفُّراً
فوشى الكِباءُ بها ونمَّ المندلُ

وهي كالظبيةِ النَّوارِ ولكن ربمّا أمكنتْ جناةَ السحوقِ

وقال البحتري

تُعدي القلوبَ بعينيها اذا نظرتْ

حتى تجدَّ لها حبلاً من السَّقمِ

أما وضِحكتِها عن واضحٍ رتِلٍ

تُنْبي عوارضُهُ عن بارد شَبِمِ

لقد كتمتُ هواها لو يطاوعني

شوقٌ لجوجٌ ودمعٌ غيرُ منكتِمِ

وقال أبو الطيّب المتنبي

عَمْرَكَ اللهَ هل رأيتَ بدوراً طلعتْ في براقعٍ وعقودِ

راميات بأسهمٍ ريشُها الهد ب تُشقّ القلوبَ قبلَ الجلودِ

يترشّفنَ من فمي رشفات هنّ فيه حلاوةُ التوحيدِ

كلُّ خمصانة أرقّ من الخمـ ـرِ بقلبٍ أقسى من الجلمودِ

ذاتُ فرعٍ كأنما ضُرب العنـ ـبرُ فيه بماءِ وردٍ وعودِ

حالكٍ كالغدافِ جثلٍ دجوجيّ أثيثٍ جعدٍ بلا تجعيدِ

تحملُ المسكَ عن غدائرها الرّيـ ـحُ وتفترّ عن شنيبٍ برودِ

وقال مسلم بن الوليد

وقد قالت لبيض آنسات ... يصدن قلوب شبانٍ وشيب
أنا الشمس المضيئة حين تبدو ... ولكن لست أعرف بالمغيب
براني الله ربي اذ براني ... مبرّأةً سلمت من العيوب
فلو كلّمت انساناً مريضاً ... لما احتاج المريض الى طبيب
وخلقي مسكة عجنت ببانٍ ... فلست أريد طيباً غير طيبي
وأعقد مئزري عقداً ضعيفاً ... على دعص ركامٍ من كثيب
وجلدي لو يدب عليه ذرٌّ ... لأدمى الذرّ جلدي بالدبيب
وريقي ماء غاديةٍ بشهدٍ ... فما أشهى من الشهد المشوب
فقلن لها صدقت فهل عطفتم ... على رجلٍ يهيم بكم كئيب
فقالت قد بدت منه هنات ... وقد تبدو الهنات من المريب
وصلناه فكلمنا بسحرٍ ... كذلك كل ملاقٍ خلوب

وقال ابو تمّام

انّ في خيمهم لمفعمة الحجـ ... ـلين والمتن متن خوطٍ وريق
وهي لا عقد ودّها ساعة البيـ ... ـن ولا عقد خصرها بوثيق
وكأنّ الجريال شيب بماء الـ ... ـدرّ في خدّها وماء العقيق

فيا خُلَّةَ النفسِ التي ليسَ دونها
لنا من أخلّآء الصفآء خليلُ
ويا مَن كتمنا حبَّهُ لم يُطَعْ بهِ
عدوٌّ ولم يُؤمَنْ عليهِ دخيلُ
أَمَا من مقامٍ أشتكي غربةَ النوى
وخوفَ العدى فيهِ اليكِ سبيلُ
فديتُكِ أعدآئي كثيرٌ وشقّتي
بعيدٌ وأشياعي لديكِ قليلُ
وكنتُ اذا ما جئتُ جئتُ بعلّةٍ
فأفنيتُ علاّتي فكيفَ أقولُ
فما كلَّ يومٍ لي بأرضكِ حاجةٌ
ولا كلَّ يومٍ لي اليكِ رسولُ
صحائفُ عندي للعتابِ طويتُها
ستُنشَرُ يوماً والعتابُ طويلُ
فلا تحملي ذنبي وأنتِ ضعيفةٌ
فحملُ دمي يومَ الحسابِ ثقيلُ

اذا ما رأيتَ المآءَ ينصبُّ خلتَهُ : او ما هو أبرع من هذا التركيب .

وبعد هؤلآء يأتي ابو تمَّـام كراكب أكرم فرسٍ الاَّ انها مقيّدة الرجل ، فلا تستطيع السباق في الحلبة ، اذ براعة لفظه ، وامتلاكهُ متن القريض ، ليسا بكافيين لاعطآئهِ حق السبق في هذا المجال عند المنصفين .

ولم أجعل للخمريات باباً على حدةٍ ، فدخولها في باب الزهريات أولى ، وهي به اجدر وأشبه . رَبِّ هَبْ لي حُكما وأَلحقني بالصالحين .

الفصل التاسع

في

موازنة الغزل والنسيب

قال ابن الطثرية

أليس قليلاً نظرةٌ انْ نظرتُها

اليكِ وكلاَّ ليس منكِ قليلُ

وأما ابن هاني فان تشبيههُ في غاية الحسن ، فانَّهُ شبَّه خطوط نور الشمس نازلةً فوق الرياض ، بسبائك الفضة ، وازهار النرجس وقد ملئت بندى الصباح ، بكؤوس الراح عللتها الرياح .

واما وصف ابي مروان ، فهو في غاية الابداع والاحسان ، وتشبيهاته في غاية الدقة ، فشعره هذا يغني المصور عن معاينة الموصوف ، فيحسب أنه قد عاين المكان بالآذان .

فيتضح من هذه الموازنة ، ان البحتريَّ سابق هذه الحلبة ، اذ جمع بين حسن الوصف ، وجمال التشبيه ، وجزالة اللفظ ، ومتانة التركيب .

ويأتي بعدهُ ابن هاني لحسن التشبيه ، وان قصَّر عنه في براعة التعبير ومتانة التركيب .

وبعدهما يأتي ابو مروان لبراعة وصفه وتشبيهاته ، وان كان في كلامه من ضعف التركيب ، ما لا يوجد في شعر أميري الشعر المتقدمين ، كقوله : اذا ما انسكابَ الماء عاينتَ خلتَهُ : فلو جاء احدهما بهذا المعنى واللفظ لعلهُ كان يقول :

ذكر السبب وهو الشمس كما تعلم.

اما البحتري فقد شبّه احتباك اغصان الروض بسمآء خضرآء، وشقائق النعمان بالنجوم، وألوانها البيضآء والصفرآء بالفضة والذهب، فقد جآء بغاية الاحسان، ثم شبّه اعتناق الحوذان والاقحوان، باعتناق الاحباب والرفاق يوم التلاق، والحوذان بقلٌ طيب الرائحة والاقحوان هو هذا الريحان المعروف، وقيل ان هذين النباتين اذا نبتا في ارض واحدة ائتلفا والتفّا، ثم شبَّه ما سقط على الارض من نثير ازهار الاشجار العالية بالياقوت والمرجان، ومن هذا يُفهم ان النثير كان احمر اللون، ثم ختم هذه الصورة بوصف رائحة النسيم المتردّد بين تلك الادغال وقد اكتسب من رائحة الازهار ريحاً ذكيّةً أين منها رائحة الكافور والزعفران، وهاتان الرائحتان كانتا أطيب الروائح التي كان يستعملها اهل عصره.

فقد رأيتَ كيف أتى على تصوير الحقيقة المحسوسة بأصح الاوصاف الشعرية وأوضح الالوان، لم يفتهُ من جمال الوصف دقيقٌ ولا جليل.

وغنّتْ به ورقُ الحمائم بيننا
غناءً ينسّيك القريضَ ومعبدا

اذا وازن الناقد بين الابيات المتقدمات ، تبين له ان أبا تمّام ليس من السابقين في باب الزهريات ، بل يُعدُّ وصافاً ، فهو يصف ما رآهُ في احدى الرياض من الازهار بألوانها ، بيد انَّهُ قصَّر في التشبيه غاية التقصير ، اذ شبَّه كل زهرة قد احتجبت بالنبات ، بغادة تبدو تارةً للناظرين ثم تحتجب دلالاً ، وهذا التشبيه كما تراه بعيدٌ عن الحقيقة غاية البعد ، فان الزهرة اذا احتجبت لا تبدو من نفسها للعين الاّ اذا حركها النسيم ، او حرّك المتأمّلُ رأسهُ ليراها ، وأبو تمّام لم يشر الى ذلك ادنى اشارة ، ثم ما وجهُ التشبيه بين الزهرة والعذرآء ؟ وكأنّهُ لم يذكر العذرآء الاّ ليستعين بها في تصوير ظهور الزهرة واحتجابها وقد رأيتَ نقص هذا التصوير . ثم انه في البيت الاخير دلّنا على جهله اسباب تلوُّن الازهار فاقتصر على قوله : صبغ الذي لولا بدائع لطفه الخ . وهو وصفٌ ضعيف وتصويرٌ ناقص اذ قد ذكر المسبّب ، وفاته

وقال متنبي الغرب ابن هاني

ألم ترَيا الروضَ الأريضَ كأنما
أسرَّةُ نورِ الشمسِ فيهِ سبائكُ

كأنَّ كؤوساً فيه تسري براحها
اذا عللتها السارياتُ الحواشكُ

كأنَّ الشقيقَ الغضَّ يكحلُ أعيناً
ويسفكُ في لبّاتهِ الدَّمَ سافكُ

وقال ذو الرئاستين ابو مروان بن رزين

وروضٍ كساهُ الطلُّ وشياً مجدَّدا
فأضحى مقيماً للنفوسِ ومُقعدا

اذا صافحتهُ الريحُ حلّتْ غصونَهُ
رواقصَ في خضرٍ من العصفِ ميَّدا

اذا ما انسكابَ الماءِ عاينتَ خلتَهُ
وقد كسرتْهُ راحةُ الريحِ مِبرَدا

وانْ سكنتْ عنهُ حسبْتَ صفاءهُ
حساماً صقيلاً صافيَ المتنِ جُرِّدا

أو ساطعٌ في حمرةٍ فكأنما
يدنو اليهِ من الهوآءِ معصفرُ
صبغُ الذي لولا بدائعُ لطفهِ
ماعاد أصفرَ بعدَ اذ هُوَ أخضرُ

وقال البحتريُّ

أَبكيا هذه المغاني التي أَخ لقها بُعدُ عهدِها بالغواني
أسعدَ الغيثُ اذ بكاها وان كا نَ خليًّا من كلِّ ما تجدانِ
جادَ فيها بنفسهِ فاستجدَّتْ حللاً منهُ جمَّةَ الألوانِ
فهي تهتزُّ بين افرندهِ الأَخ ضرِ حسناً ووشيهِ الارجوانِ
في سمآءٍ من خضرةِ الروضِ فيها أنجمٌ من شقائقِ النعمانِ
واصفرارٌ من لونهِ وابيضاضٌ كاجتماعِ اللجينِ والعقيانِ
ويريكَ الاحبابَ يومَ تلاقٍ باعتناقِ الحوذانِ والاقحوانِ
صاغ منها الربيعُ شكلاً لأَخلا قِ حسينٍ ذي الجودِ والاحسانِ
فكأَنَّ الاشجار تعلو رباها بنثيرِ الياقوتِ والمرجانِ
وكأَنَّ الصبا تَرَدَّدُ فيها بنسيمِ الكافورِ والزعفرانِ

تَرَيا نهاراً مشمِساً قد شابهُ
زهرُ الرُّبى فكأنما هو مقمرُ
دنيا معاشٍ للورى حتى اذا
حلَّ الربيعُ فانما هي منظرُ
أضحت تصوغُ بطونها لظهورها
نَوْراً تكادُ له القلوبُ تَنَوّرُ
من كل زاهرةٍ تَرقرقُ بالنَّدى
فكأنها عينٌ اليك تحدَّرُ
تبدو ويَحجبُها الجميمُ كأنها
عذراءُ تبدو تارةً وتَخفَّرُ
حتى غدت وهَدَاتُها ونِجادُها
فئتين في حللِ الربيعِ تَبَختَرُ
مصفرَّةٌ محمرَّةٌ فكأنها
عصبٌ تَيمَّنُ في الوغى وتَمَضَّرُ
من فاقعٍ غضِّ النباتِ كأَنهُ
دررٌ تَشقَّقُ قبلَ ثمَّ تَزَعفَرُ

ومَن عرف الايامَ معرفتي بها
وبالناس روَّى رمحهُ غيرَ راحمِ
فليس بمرحومٍ اذا ظفروا بهِ
ولا في الردى الجاري عليهم بآثمِ

ولو وثق بصفاء الودّ أو ركن الى خليل ، لكان من أشعر العاتبين وأعتب الشعراء.

ثم يأتي البحتريُّ آخر الجميع ، وفي يده للعتب سيف يريع ، فهو بطل محاربة او مقاطعة ، لا فتى مداعبةٍ او موادعة، فتدبر ما ذكرته لك في هذا الباب والله الملهم الى السداد.

الفصل الثامن

في

موازنة الزهريات

قال ابو تمَّام

يا صاحبيَّ تقصيَّا نظرَيكما
تريا وجوهَ الارضِ كيفَ تُصوَّرُ

مذهب الصدق والود والاحترام ، متفاخراً بفضله ومعاليه اذ نسبه الى الخمول ، مباهياً بشرف اصله اذ كان هو والملك المعاتَب من أسرةٍ واحدة ، فهو بعد معن ، أصدقهم عتاباً ، وأحلاهم خطاباً.

ثم يأتي ابن خفاجة وهو يكاد يسيل رقةً وانسجاماً ، ويفوح عنبراً ويدير مداماً.

ثم يأتي المتنبي وهو المعاتب المتكلّف ، عبد الغرض ورق الصنعة ، بيد انَّهُ امير الكلام ، العارف بانزاله في منازله من الشرف والجمال ، والفضل والجلال ، فهو لا يضع لفظاً في غير محلّه ، ولا يرسل كلمةً دون كبير معنى ، حتى جرى كلامه مجرى الامثال فهو دون الشعراء الثلاثة عتاباً ، ولعل السبب في ذلك انه كان سيّئ الظن بالزمن واهله ، لم يركن الى احد من الناس وحسبك قوله .

ولمـا صارَ ودُّ الناسِ خبًّا جزيتُ على اُبتسام بابتسامِ
وصرتُ أُشكُّ فيمنْ أصطفيهِ لعلمي أنَّهُ بعضُ الانامِ

وقوله ايضاً

وامسك من عنان قلمك ولو قليلا ، فلقد سحرتَ الالباب ببيانك ، ثم يختم فيقول ولو كنت كغيري من هؤلآء الناس جاهلاً أخلاق البشر ، غير عليم بخيانة الخلان ، وقلة الوفآء ، وكثرة الغدر ، لقلت يا ليتني لم أتخذك خليلاً .

وهذه القصيدة كما تراها من أرق العتاب ، وان كان حشوها ملام وتعنيف ، فهو بعد ان شدّد النكير على صديقه عاد فاستعطفهُ وذكرهُ عهود الود ، وأثنى عليهِ ثنآءً يزري بعرف الند .

فاذا وازنت بين القصائد المتقدمة وجدت أصدقها عتاباً ، آخذاً بين سلامة القصد والاخلاص ، وبين النصح والانذار ، والتحذير والتذكير ، وجميل الوعد والاستعطاف ، معن بن أوس ، وقد جمعت بين الجزالة والفصاحة ، والرقة والبلاغة ، فهو أشعرهم عاتباً ، وأعتبهم شاعراً .

ثم يأتي بعدهُ الامير الحمداني فهو يتكلم بما يوحيهِ اليهِ فؤآده ، لا متعمدٌ اخفآءَ ما في نفسهِ من الكمد ، ولا مظهرٌ غير ما بهِ من الجلد ، ذاهباً في عتب ابن عمهِ ومربيه ،

جملتها استعطاف وتذكير ، واتّضاع الصغير للكبير .

وهذه القصيدة كما تراها تكاد تسيل رقّة وانسجاماً ، ولا يشوبها شيء من التعمّل والتصنّع .

واذا انتقدت عتاب ابن خفاجة حق النقد ، وجدت فيه شيئاً من المداهنة وشدة التقريع ، وقد مُزجت بلطف الالفاظ ، ورقة الكلام ، ورشاقة التعبير ، الى غير ذلك من أحوال عصره وبيئته التي تحاكي أحوالنا لهذا العهد .

فهو يسأل صديقه عما دعاهُ الى أن يفتري عليهِ ويغتابهُ ، ويجعله مضغةً في أفواه الناس ، ويعرضهُ لاحتقار الشامتين ، بعد ان كان يثني عليهِ الثناء الطويل . ثم يناشدهُ لكي يراجع بهِ حسن الظن ، ويذكر ماضي الودّ وان كان قد تقادم عهده ، وتنوسي أمزه ، حتى أمسى كالطلل البالي ، وهو يقول لهُ وان كنت مغضباً أو حاقداً فابعث الينا بكتاب على البعد ، أو بسلامٍ يُعلّلُ برضاك ، وان كان ولا بدَّ لك من التسلّي بذكري في ساعات لهوك ومزاحك ، أو مداعبتي ، فلا تغتَب وتدعو الغيبة مداعبة ، بل فأغمد من عضب لسانك مصقولا ،

حشوهُ حُبٌّ وبرٌّ ، وكلامٌ قد ضُمنَ الدُّرَ .

وهذه القصيدة نسجَ المتنبي برودها بعد ان تمكنت منزلتهُ عند سيف الدولة واُعجِب بنظمه في غيبته وحضوره ، وسارت مدائحه فيهِ مغربةً مشرقة ، وكثر حاسدوه عند سيف الدولة ومزاحموه على مرتبته ، ورأى نفسه فوقهم في العقل والفضل والمنزلة والقريحة ، فصغروا في عينه حتى بات يعدُّ مدحه سيف الدولة تشريفاً لممدوحه المشار اليهِ ، فكان يصور نفسه وحسّاده والممدوح على النحو الذي ذكرته ، وينظم البيت بعد البيت ، حتى جاءت القصيدة على ما ترى من الشدة في العتاب بل التقريع والتفاخر ، ولو لم يضمّنها بعض أبيات تحبيب ومجاملة ، لكانت بأن تسمّى تعنيفاً وفخراً أولى ، وقد فهمها سامعوها منذ ما أنشدها على الوجه الذي ذكرته لك ، ولها قصّة مشهورة فلتراجَع في العرَف الطيب.

واذا انتقدت قصيدة أبي فِراس ، وجدتها عتاباً ممزوجةً شدّتهُ باللين ، وفخراً لا يغضّ من قدر المعاتَب بل يزين ، وعلى ديباجتها شيء من انكسار الاسر ، وغضون القهر ، وفي

وان كان قد كرَّر بها لفظ العتاب ، بل هي غيظ وتسخّط وتهديد ووعيد ، وكأنهُ نظمها حال خروجه من عند المعاتَب وهو مقمورٌ مخمور .

واذا انتقدت قصيدة المتنبي وجدت في خلال عتبه من العُجب والتقريع ، ما لا يليق صدورهُ في مجلس ملكٍ بل في عتاب ملك ، فهو طوراً يقول له أعيذ نظرك الصادق ان يرى الورم فيحسبه شحماً ، وطوراً يقول ماذا ينفع الناظر اذا لم يميّز بين الظلمة والنور ، وحيناً يقول سيعلم هذا الجمع وسوف تعلمون ، انني خير الناس وأولاهم بتكرمتكم لو انكم تنصفون ، وكم تطلبون لنا عيباً فتعجزون، ويكره الله ومكارم الاخلاق ما تأتون ، ثم يقول في مخاطبة نفسه ، لا تأسف لرحيلك عن هؤلاء القوم فانهم في الحقيقة هم الراحلون ، فان شرّ البلاد بلاد كهذه لا صديق بها ولا حبيب ، وشر مكاسب الانسان مكسبٌ يشين ويعيب ، وما مزيتي عندكم وقد ساويتموني ، بصعاليك هم في كل شيء دوني ، ثم يختم فيقول وهذا الذي ذكرته لك أو ذكَّرتُكَ به عتابٌ

واذا نظرت في عتاب البحتري ، وجدت بينه وبين الهجو خداً ضئيلاً يكاد لا يُحَدّ ، وخيطاً ضعيفاً يوشك من ثقل العتب ان ينقدّ ، فهو يقول لممدوحهِ أو معاتَبهِ اني أرى في عينيك ترجمة الضغائن ، والحقد الكامن ، وقد بدهتني بنزقاتٍ كانت عليَّ كحطب الوقود ، وقذفتني بعربدةٍ خجل منها الجلساء وشمت بي الشهود ، ولم تستحِ من مدحي ولا تذكّرتَ ما كان منك من العقود ، وظلمتني وما لي قوة تنهاك ولست آوي الى رُكن شديد ، ولو اني أريد لثرت ثورة مستقيد ، ولغزوتك من القوافي بجند عديد ، الا انه ختم هذا العتاب بل اللوم والتعنيف، بكلام هو كل التهديد ، وادّعى انه سيرحل عاتباً وما في رحيلهِ شيء من الوعيد ، ثم رأى ان يختم القصيدة بالسلام وشيء من المدح ، خشيةً من بطش المعاتَب أو طمعاً بنوالهِ ، فقال لهُ لئن جعلتني اخلد مجدك في شعري ، فقد عودتني ان لا تقابلني الا بالمعروف وكأنه يعتذر الى نفسه والسامعين بعوده الى مدحه .

وهذه القصيدة كما ترى ليست من العتاب في شيء

المحال فمتى يبرُّ بعهده ؟ ثم مَن الكريم الذي يقول لخليله ان مالي وقف عليك ، محبوس لوفآء ديونك ، بل نحن في عصر وبلاد نرى بها فاقة الصديق أو اعساره ، حجةً قويمةً وسنّةً متَّبعةً ، للبعد عنه وتجنبه ، ان لم أقل لمعاداته . ومن الصديق الوفيّ الطاهر النيّة السليم الطوية ، يرى جفآء صديقه ، فيخاطبه بهذا الكلام البالغ غاية الود والحلم والاخلاص ؟ بل ما أجدر المنصف منا ان يقابل الجفآء بالصد فيقول **السن بالسن ، والعين بالعين** ان لم يَكِلْ لهُ الصاع صاعين ، ومن الذي يجزي الاسآءة بالجميل واتقاً بوفآء الاحسان ؟ ونحن في عصر يليق بنا ان نقول فيهِ

وصرنا نرى انّ المتاركَ مُحسنٌ وأن خليلاً لا يضيمُ خليلُ

فاذا انعمت النظر بما ذكرته فقط ، ثمَّ تأملت بما يتدفق في ألفاظ هذه الابيات من مآء الفصاحة العربية ، والسلاسة البدوية ، مترقرقاً صافياً لا يشوبه كدر التصنع ولا يتكسر على جلاميد التقعر ، حكمت حكماً صادقاً انه كلام عربيّ بدويّ بحت ، لم يجر على لسانه ، غيرُ وحي جنانه

عن عشيرتك ، فحارب أهل عداوتك ، وان غُرمت دفعت عنك غرامتك ، وان اسأت اليَّ يوماً صفحت عن اساءتك ، عالمًا ان صفحي سيعقب لي منك جميلاً ، فأنت وفيٌّ شجاع ، فاذا ما نابتني نائبةٌ كنت عوني وساعدي في دفع الشدة ، وان كنت قد ارتبت مني بشيءٍ ، فلا تعجل بذلك ، فليس ما توهمتهُ بصحيح ، لانك ان قطعتني تكن كمن قطع يده وليس لهُ منها عوض ، ولا تدفعني بظلمك وعنادك ، الى ما لا أحب من هجرانك ، فالعاقل يرمي بنفسهِ الى القتل ، ولا يركب مطيَّة العار أو الذل .

وما بعد هذا البيان من حاجة لايضاح صفات هـذا القائل ، فلو قرأ قارئٌ هذه الابيات وزعم انها لاحد معاصريك من أهـل الحضارة من شعرآء الاقليم الشامي أو القطر المصري ، لدفعت زعمهُ ذاك بقوة النقد ، وحجتهِ التي لا ترد ، فليس الشأن لعهدنا ان يحارب الانسان عدوَّهُ تلك الحرب الحرَّة ، بل حربنا اليوم حرب المكر والخداع والغدر ، ثم من الذي يعاهده صديقه على معاداة من عادى ؟ وان فُرض

وبدهتَ لا نَزْرَ المحاسنِ مجبلاً
ومضيتَ لا قَصْمَ الغِرارِ فليلا
متدفّقاً أعيي العقولَ طريقةً
فكأنما ركبَ المجرَّ سبيلا
يستوقفُ العليا جلالاً كلما
سجدَ اليراعُ بكفّهِ تقبيلا
لا تستنيرُ بك السيادةُ غُرَّةً
حتى يسيلَ بكَ الندى تحجيلا
وسوايَ يُنشدُ في سواكَ ندامةً
يا ليتني لم أَتَّخِذْكَ خليلا

فاذا نقدت القصائد المتقدمة نقد بصير ، ووازنت بينها موازنة ناقد خبير ، ظهر لك من تحت شعر معن بن أوس ، البدويّ العربي بكامل صفاته ، فهو الصديق الصافي النيّة ، الطاهر القلب ، الساذج العيش ، الذي يرى ان يكون وصديقهُ في حالةٍ واحدة ، فيدعوهُ أخي ويقول لهُ ببساطة اني لن أخونك ان قهرك خصمٌ ، أو أضقت أو رحلت

أَعِدِ اُلتفاتك واذكُرَنْها خلّةً
لا تستقلُّ بهِ علاك مميلا
وأَصغْ الى سجع القريضِ فربمَّا
ندبَ القريضُ من الوفآءِ هديلا
وعُجِ المطيَّ على الوِدادِ وحيِّهِ
طَلَلاً على حكمِ الزمانِ محيلا
وابعَثْ بطيفك واعتقِدْها زورةً
وصِل اُلسلامَ على النَّوى تعليلا
ولئن سألتُ بك الغمامةَ وابلاً
يَسِمُ الجديبَ لما سألتُ بخيلا
واذا دعبتَ ولا دعابةَ غيبَةٍ
فاغضُضْ هناك من العنانِ قليلا
واصحبْ وذكركَ من هجيرٍ لافحٍ
ذكراً كما سرَتِ القبولُ بليلا
فلقد حللتَ مع الشبابِ بمنزلٍ
يرتدُّ طرفُ النجمِ عنهُ كليلا

بسّامةٌ تَسبي الحليمَ وسامةً
لولا المشيبُ لسمتُها تقبيلا
حمّلتُها شوقاً اليكَ عشيةً
حمّلتُها عتباً عليك ثقيلا
من كلّ ِ بيتٍ لو تدفّقَ طبعهُ
ماءً لغَصّ بهِ الفضاءَ مسيلا
إيهٍ وما بينَ الجوانحِ غُلّةٌ
لو كنتُ أنقعُ بالعتابِ غليلا
ما للصديقِ وُقيتَ تأكلُ لحمَهُ
حيّاً وتجعلُ عِرضَهُ منديلا
أقبلتَهُ صدرَ الحسامِ وطالما
أضفيتَهُ درعاً عليهِ طويلا
ما ذا ثناكَ عن الثناءِ ونشرهِ
بُرداً على الرسمِ الجميلِ جميلا
أَرِجاً كما عثرَ النسيمُ بروضةٍ
رطْباً كما نضحَ الغمامُ مقيلا

ونفسٌ تَـكبَّرُ الاّ عليكَ
وترغبُ إلاّكَ عمنْ رغبْ
فـلا تعـدلنَّ فداكَ ابنُ عم
كَ لا بل غلامُك عما يجبْ
وأنصِفْ فتاكَ فانصافُهُ
من ألفضلِ والشرفِ المكتسبْ
لَـكُنْتُ الحبيبَ وكنتُ القريب
ليالي أدعوكَ من عن كثبْ
فلمّا بَعـدتُ بدتْ جفوةٌ
ولاح من الامرِ مالا أحبْ
فلو لم أكنْ بك ذا خـبرةٍ
لقُلتُ صديقُك مَن لم يغبْ

وقال ابن خفاجة الاندلسي يعاتب الفتح بن خاقان صاحب قلائد العقيان

خُذْها يرنُّ بهـا الجوادُ صهيلا
وتسيلُ ماءً في الحسامِ صقيلا

ففـــــــــيمَ يُقرّفُني بالخمولِ
أميرٌ بهِ نلتُ أعـلا الرُّتبْ
وكان عتيـداً لديَّ الجوابُ
ولكن لهيبتِـهِ لم أجبْ
أتنكرُ اني شكوتُ الزمانَ
واني عتبتُكَ فيمن عتبْ
فالآنَ رجعتَ فاعتبتَني
وصيرتَ قوليَ لي والقلبْ
فلا تنسبنَّ اليَّ الخمولَ
عليـكَ أقمتُ فـلم اغترِبْ
وأصبحتُ منكَ فانْ كان فضلٌ
وانْ كان نقصٌ فأنتَ السببْ
ألستُ وإياكَ من اسرة
وبيني وبينكَ هـذا النسبْ
ودادٌ تناسبُ فيـهِ الكرامُ
وتربيـة ومحـلٌ أسِبْ

شرُّ البـلادِ مكانٌ لا صديقَ بهِ
وشرُّ ما يكسِبُ الانسانُ ما يصِمُ

وشرُّ ما قنصتـهُ راحتي قَنَصٌ
شُهبُ البُزاةِ سوآءٌ فيـهِ والرَخمُ

بأيِّ لفظٍ تقولُ الشعرَ زِعنفَـةٌ
تجوزُ عِنـدكَ لا عُربٌ ولا عجمُ

هـذا عِتابُكَ الاَّ انَّهُ مِقَةٌ
قد ضُمِّنَ الدُّرَ الاَّ انَّهُ كلِمُ

وقال الامير أبو فِرَاس الحمـداني يعاتب ابن عمه سيف الدوله

أسيفَ الهدى وقريعَ العربْ
الى مَ الجفآءُ وفي مَ الغضب

وما بالُ كتبِكَ قد أصبَحت
تُبـكِّيَني مع هـذي النكبْ

وما غضَّ منّيَ هـذا الاسارُ
ولـكن خلصتُ خلوصَ الذهبْ

وما انتفاعُ أخي الدنيا بناظرهِ
اذا استوتْ عندهُ الانوارُ والظُّلمُ
سيعلمُ الجمعُ ممّن ضمَّ مجلسُنا
بأنَّني خيرُ مَن تسعى بهِ قدمُ

. . . .

يا من يعزُّ علينا أن نُفارقَهم
وَجدانُنا كلَّ شيءٍ بعدَكم عدَمُ
ما كان أَخلقَنا منكم بتَكرِمةٍ
لو أَنَّ أمركُمُ من أمرِنا أَمَمُ
انْ كان سَرَّكمُ ما قالَ حاسدُنا
فما لجرحٍ اذا أرضاكمُ أَلَمُ
وبيننا لو رعيتمْ ذاك معرفةٌ
انَّ المعارفَ في أهلِ النُّهى ذِمَمُ
كم تطلبون لنا عيباً فيُعجزُكم
ويكرهُ اللهُ ما تأتونَ والكرمُ

. . . .

سوى شعلٍ يخافُ الحرُّ منها | لهيباً غيرَ مرجوِّ الخمودِ
ولو أني أشاءُ وأنتَ تربي | عليَّ لثرتُ ثورةَ مستقيدِ
ظلمتَ أخاً لو التمسَ انتصاراً | غزاكَ من القوافي في جنودِ
وقد عاقدتني بخلافِ هذا | وقالَ اللهُ أوفوا بالعهودِ
أتوبُ اليكَ من ثقةٍ بخلٍّ | طريفٍ في الأُخوَّةِ او تليدِ
وأشكرُ نعمةً لكَ باطلاعي | على أنَّ الوفاءَ اليومَ مودِ
سأرحلُ عاتباً ويكونُ عتبي | على غيرِ التهدُّدِ والوعيدِ
سلامٌ كلما قيلتْ سلامٌ | على سعدِ العفاةِ أبي سعيدِ
فتًى جعلَ التعصُّبَ للمعالي | ووجَّهَ ودَّهُ نحوَ الودودِ
وخلَّدَ مجدهُ بين القوافي | وبعضُ الشعرِ أملى بالخلودِ
وكيفَ يكونُ ذاكَ وكلَّ يومٍ | يقابلُني بمعروفٍ جديدِ

وقال المتنبي يعاتب سيف الدولة ملك حلب

يا أعدلَ الناسِ الاّ في معاملتي
فيكَ الخصامُ وأنتَ الخصمُ والحكمُ
أُعيذُها نظراتٍ منكَ صادقةً
أن تحسبَ الشحمَ فيمن شحمُهُ ورَمُ

تجلّى بشرُكَ الأمسيُّ عني ... تجلّي جانبَ الظلِّ المديدِ
وفي عينيكَ ترجمةٌ أراها ... تدلُّ على الضغائنِ والحقودِ
واخلاقٍ عهدتُ اللينَ منها ... غدتْ وكأنها زُبَرُ الحديدِ
وأظلمَ بيننا ما كانَ أضوا ... على اللحظاتِ من فلقِ العمودِ
أميلُ اليك عن ودٍّ قريبٍ ... فتبعدني على النسبِ البعيدِ
فما ذنبي بأنْ كان أبنُ عمي ... سواكَ وكان عودُكَ غيرَ عودي
فلم تكُ نيتي عنكَ اختياراً ... وكانَ اللهُ أولى بالعبيدِ
ويصنعُ في معاندتي لقومٍ ... وبعضُ الصنعِ من سببٍ بعيدِ
أما استحييتَ من مِدحٍ سوارٍ ... بوصفكَ في التهائمِ والنجودِ
تودُّ بأنها لك فيَّ عُجباً ... بجوهرِها المفصَّلِ في النشيدِ
بنَتْ لك معقلاً في الشعرِ ثبتاً ... وأبقتْ منك ذكراً في القصيدِ
وتبدهني اذا ما الكأسُ دارتْ ... بنزقاتٍ تجيءُ مع البريدِ
عرابدُ يُطرقُ الجلساءُ منها ... عليَّ كأنها حطبُ الوقودِ
ومعترضينَ إنْ عظَّمتَ أمراً ... بهم شهدوا عليَّ وهمْ شهودي
وما لي قوّةٌ تنهاكَ عني ... ولا آوي الى رُكنٍ شديدِ

أحاربُ مَن حاربتَ من ذي عداوةٍ
واحبسُ مالي ان غُرِمتَ فاعقِلُ
وان سؤتني يوماً صفحتُ الى غدٍ
ليعقبَ يوماً منكَ آخرَ مقبلُ
كأنّك تشفي منكَ داءَ مساءتي
وسُخطي وما في ريبتي ما تعجّلُ
واني على أشيآء منك تُريبني
قديماً لذو صفحٍ على ذاكَ مجملُ
ستقطعُ في الدنيا اذا ما قطعتني
يمينكَ فانظرْ أيَّ كفٍّ تَبَدَّلُ
وفي الناسِ ان رثّتْ حبالكَ واصلٌ
وفي الارضِ عن دارِ القلى مُتَحوَّلُ
اذا أنتَ لم تنصف أخاك وجدتَهُ
على طرفِ الهجرانِ انْ كانَ يعقِلُ

وقال البحتريّ يعاتب ابرهيم بن الحسن بن سهل

أَابراهيمُ دعوةَ مستعيدِ لرأيٍ منكَ محمودٍ فقيدِ

وأشار الى خلط بعض شعرآء عصرهِ وهذرهم ، واسراف بعض الفقرآء وبخل كثير من الاغنيآء ، ولم يتعرض في شيء من كلامهِ لاحوال الحكومة في بيئته ، فلم يذكر عدلاً ولا ظلماً ، وحاصل القول ان شعرَهُ وان كان من النفاسة بمكان ، فهو الثالث في هذه الموازنة . وزِنوا بالقِسطاسِ المستقيم .

الفصل السابع
في
موازنة العتاب

قال معن بن أوس من شعرآء الحماسة

لعمرك ما أدري واني لأَوجَلُ
على أيّنا تعدو المنيّةُ أولُ
وانّي أخوكَ الدائمُ العهدِ لم أخُنْ
انِ ابزاكَ خصمٌ أو نبا بكَ منزِلُ

انتشرت المساوئ فيها ، وكثر الظلم والغدر والخيانة ، بل كأن الفوضى قد طنَّبت بها حتى جعلته ان يوصي بقتل العدو كأن لا حاكم هناك ولا رادع ، ويحذّر من الشفقة عليه ورحمته ، فلا ذكر في كلامه هذا للخليل ، ولا للجار ، ولا للضيف ، بل كأنهُ كان يرى هذه الاسماء في بيئته غريبةً عن لغة أولئك القوم ، بعيدة عن اخلاقهم ، وعلى الجملة فمما في شعرهِ من قساوة القلب ، وما عليه من مسحة التشاؤم ، فان فيه من موسيقى الشعر ، اي جمال تركيب اللفظ ، وبراعة نسجه ، وحسن رنته في الاذن ، وبلاغته وفصاحته ، ما يستوقف الانظار ويسترعي الاسماع ، وخلاصة القول ان مجموعه البديع يحبب اليك ان تقول عند استماعه ، زدني من هذه اللآلي والمثاني ، وأعد على سمعي هذه الاغاني ، فهو السابق المجلّي في هذه الموازنة .

وأما كلام الشيخ ناصيف فيدلُّ على ان صولة المال ودولتَه ، كانت في بيئته فوق كل شيء كما هي لعهدنا هذا ، فتراهُ قد كرر من ذكر المال ، والكنوز ، والارزاق ، والغنى

وادّعاء الجهلاء ، وتعرض أهل الفضول لما لا يعنيهم ، فليس في كلامه شيءٌ يشير الى محاربة الاعداء ومناصبة اهل الظلم ، والحكم على أهل الارض طُراً بانطباعهم على الشرّ والفساد ، وهو كلامٌ بعيدٌ عن الاهواء ، خليّ من المطامع والاغراض .

فيُستفَادُ من هذه الموازنة ان كلام يزيد الثقفيّ ينبئك عن طفولية قومه وحال بداوتهم ، وضيق الحلقة التي كان ينظر اليها ، وقرب الغرض الذي كان يرمي اليه ، فلم يكن في آداب بِيئَتهِ ادبٌ فوق اكرام الضيف ، ورعاية حقوق الجار ، وحفظ عهود الصداقة ، والضنّ بالخليل ، فأتى على جميع ذلك بوصيته لبنيه او لقومه ، ولم يذكر شقاوةً ولا همّاً ولا خداعاً ولا ظلماً وهو يحذّرُ من العداوة ، ويحرض على الصداقة ، وعلى الجملة فان شعرهُ وان كان آخذاً بين طرفي البلاغة والفصاحة ، فليس فيه ما يهيج في النفس سروراً او نشاطاً ، او يحبب اليك لو أطال .

وأما كلام المتنبي فيدلنّا على ان البيِئة التي كان فيها قد

من الناس ، بعين الحَذِر من صداقتهم ، المرتاب في اخلاصهم ، المعتقد بمكرهم وخداعهم ، بل يراهم عدواً يوصي بمحاربته ، وان لا يُغتَرّ بملاينته ، ويرى قتل العدو كمال الفطنة ، بل لا يسلم الشرف — أي شرفك الذي امتهنَهُ عدوك — من الاحتقار ولا يُطهّر من العار الا بدمهِ اي بقتله ، وهو كما ترى ، كلام رجلٍ أساءت اليه الايام ، وأغضبته صحبة الناس فأوسعهاذمّاً ، وجرعهم من سخطهِ سُمّاً . وهو عكس رأي كثير من الفلاسفة قال ابن خلدون الانسان أقرب الى خلال الخير من خلال الشر باصل فطرتهِ وقوتهِ الناطقة العاقلة لان الشر انما جاءهُ من قِبَل القوى الحيوانية التي فيه وأما من حيث هو انسان فهو الى الخير وخلاله أقرب .

واذا تبصَّرت في كلام الشيخ ناصيف ظهر لك انهُ كلام مَن كان في غير تينك البِئتين ، فهو لا ينصَح ولا يوصي بل يصوّر حالة زمنه ، كأَن النصح والوصية ليس لهما تأثير في البِيئة التي كان بها ، وكأنهُ يتعجب من أحكام القضاء لما يُرى من غنى كثيرٍ من اللئام ، وفقر جمهور الحكماء والكرام ،

المسافر في البوادي اذا سقط على قومٍ ولم يضفهُ أحدمنهم ، هلك جوعاً أو عطشاً ، أما الحضر فان لم يضفهُ أحدٌ نزل على خان او فندقٍ ، بل الضيافة عند الامم المتمدنة قد أصبحت لهذا العهد اسماً لغدآءٍ أو عشآء يصنعه المرء للضيف أو للصديق الغريب ، وقس على هذا سائر ما ذكرهُ يزيد في شعرهِ من النصائح .

واذا قَلَّبتَ الطرفَ في كلام المتنبي رأيتهُ كلام رجل في بِيئة غير (١) بِيئة يزيد الثقفي ، فهو ينظر الى مَن حولَهُ

(١) لعل هذا اللفظ أحق من غيره بالتعبير عن معرب لفظ *Milieu* اذ المراد به عند الافرنج ليس وسط الشيء كما ظنه جمهور من المعربين عندنا واستعملوا له هذا اللفظ ، بل مرادهم بذلك : ما يحيط بالشيء او بالانسان من مكان وسكان : وبعبارة أخرى ، المكان الذي يعيش فيه الانسان او الحيوان وكل ما في المكان من الهوآء والمآء والسكان وسائر المؤثرات الخارجية ، ولما لم يكن عندنا لفظ يحيط بهذا المعنى ، أفضل من لفظ « بيئة » فيجدر استعمالها واطلاقها على هذا المعنى قال في القاموس : البيئة بالكسر المكان حله وأقام به . . . والبيئة بالكسر الحالة : فقد رأيت كيف ان هذا اللفظ يشمل المكان وكل ما فيه اذ هو يعني « الحالة » أيضاً ، قال علامة العصر صاحب مجلة الضيآء في السنة السادسة صفحة ٦٤ (ان النوع كلما ارتقى كانت بيئته أضيق) وقال أيضاً (ويبقى محصوراً في البيئة التي توافقه) وقال في صفحة ٣٥ (أما موضع نشأة الانسان الاولى فلا ريب انه وجد في اكثر البيئات ملآئمة لمزاجه وأفضلها ضمانة لبقائه وتعاقبه والله أعلم .

وبعضٌ يدّعي ما ليسَ فيهِ ... وبعضٌ يشتري ما لا يسومُ
وفي الشعراءِ مَن في كلّ وادٍ ... اذا هَدَرتْ شقاشقهُ يهيمُ
وبعضُ الشعرِ في أذنٍ كلامٌ ... يطيبُ وبعضُه فيها كلومُ

فاذا وازنت بين كلام هؤلاء الشعراء، اتضح لك صدق ماذكرتهُ لك في باب الحكم من ان اكثرها امثال ينظمها الشاعر، أو حِكَمٌ يسبكها شعراً ، فهذا يزيد الثقفي جهر بذلك من من أول بيت قصيدته ، ثم اذا انعمت النظرِ في قولهِ ، تبين لك انه بدويٌّ يعظُ ولداً لهُ أو قوماً هو كبيرهم، فيوصي أولاً بالخليل اذ البدويّ أول ما يحتاجُ اليه صديق يدافع عنه في وقت الشدة ويثأرهُ اذا حلّت النكبة ، ولا تغنيهِ عنهُ كثرة الرزق، لما هو معلوم من أحوال البادية ، ثم انهُ يوصي بالجار، وأنت تعلم ان الحضر المستبحرين في العمران لا يعرفون شيئاً من حقوق الجار ، بل قد يجاور المرءُ منهم جارهُ سنين عديدة ولا يعلم من أيّ قوم هو ولا من أيّ أمة من الناس، اذ لا غارات في المدن، والحكومات تتكفل بتأمين كل فردٍ من النازلين بها وحراستهم ليل نهار . ثم يوصي بالضيف لأن

والظلمُ من شيمِ النفوسِ فان تجد
ذا عفّةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ
ومن البليَّةِ عذلُ مَن لا يرعوي
عن جهلهِ وخطابُ مَن لا يفهمُ
والذلُّ يُظهرُ في الذليلِ مودةً
وأودُّ منهُ لمن يودُّ الارقمُ
ومنَ العداوةِ ما ينالُكَ نفعهُ
ومنَ الصداقةِ مايضرُّ ويؤلمُ
افعالُ مَن تَلِدُ الكرامُ كريمةٌ
وفعالُ من تلدُ الاعاجمُ أعجمُ

وقال شاعر القرن التاسع عشر الشيخ ناصيف اليازجي

يصيبُ كنوزَ مالٍ كلُّ فدمٍ بقيمةِ بعضِ فلسٍ لايقومُ
فلو يُعطى من الارزاقِ كلٌّ على مقداره انتصفَ الحكيمُ
ولم يعتبْ على الأيامِ شخصٌ يرى عدلَ القضآءِ فلا يلومُ
وبينَ الناسِ ذومالٍ بخيلٌ بفضلتهِ وصعلوكٌ كريمُ
وانَّ تكرُّمَ الفقرآءِ عندي كبخلِ ذوي الغنى عيبٌ ذميمُ

وقال المتنبي.

ولقد رأيتُ الحادثاتِ فلا أرى
يققاً يميتُ ولا سواداً يعصمُ
والهمُّ يخترمُ النحيفَ جسامةً
ويشيبُ ناصيةَ الصبيِّ ويُهرِمُ
ذو العقلِ يشقى في النعيمِ بعقلهِ
واخو الجهالةِ في الشقاوةِ ينعمُ
والناسُ قد نبذوا الحِفاظَ فمُطلَقٌ
يَنسى الذي يولَى وعافٍ يندمُ
لا يخدعنَّكَ من عدوٍّ دمعهُ
وارحمْ شبابَكَ من عدوٍّ ترحمُ
لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الاذى
حتى يُراقَ على جوانبـهِ الدمُ
يؤذى القليلُ من اللئامِ بطبعهِ
من لا يقِلُّ كما يقِلُّ ويلؤُمُ

الفصل السادس

في

موازنة الحكم

قال يزيد بن الحَكَم الثقفيّ

يا بدرُ والامثالُ يضـ ـربُها لذي اللبّ الحكيمُ
دم للخليـل بودهِ ما خيرُ ودٍّ لا يدومُ
واعرفْ لجاركَ حقَّهُ والحقُّ يعرفُهُ الكريمُ
واعلمْ بأنَّ الضيفَ يو ماً سوفَ يحمدُ أو يلومُ
والناسُ مبتنيانِ محـ مودُ البنايةِ أو ذميمُ
واعلمْ بُنيَّ فانَّهُ بالعلمِ ينتفعُ العليمُ
انَّ الامورَ دقيقُها مما يهيجُ لهُ العظيمُ
والنبلُ مثلَ الدَّينِ تقـ ضاهُ وقد يُلوى الغريمُ
والبغيُ يصرعُ اهلهُ والظلمُ مرتعهُ وخيمُ
ولقد يكونُ لكَ البعيـ ـد أخاً ويقطعُكَ الحميمُ

الابيات يصوّر وقعةً مع الروم وهو يكره ويخشى تكرار وقوعها ، فيحبب الى نفسه والابطال الذين معه ، الشجاعة والثبات وهو يتهدَّد الروم مرعداً مبرقاً كأنه يرى التهديد من عدَّة الكفاح فيقول لهم لا تحسبوا هربنا منكم وبعدنا عن بلادكم خوفاً من بأسكم او خشيةً من بطشكم، فانا قوم لا نهاب المنايا وصنعتنا الضرب والطعن وركوب الخيل وهي اذا حان الوقت حشوناها أسنَّةً ونبالاً ولاقيناكم بها خفافاً عجالاً (ولكن نحمد الله الآن على انكم كفيتمونا شرَّكم)

فيتبين للناقد البصير بعد الموازنة بين شعر الثلاثة المتقدمين في المعنى المذكور ان ابيات سعد بن مالك أجمع للوصف والسذاجة البدوية ، وابيات ابي فِراس أقرب الى انس الفصاحة العصرية الحاضرة وفيها شيء من التمليق ، وابيات المتنبي دونها في الفصاحة والسلاسة بادية عليها كلفة الصناعة ، مع ما تحتها من التشاجع والله اعلم .

في موقف لا أرخص فيه من النفوس وقد ظهر به غدرُ العدوّ وانكشف حقده ولم يبقَ فيه لدفع العدآء وردّ الشر ، الاّ الشجاعة والصبر .

واذا وازنتَ بين هذه الصورة وبين تصوير أبي فراس رأيتَ الفرق بين حالةٍ وحالة فذاك يصوّر حال قومٍ كلٌّ منهم امير نفسه ، وهم العرب في أبعد حالات البداوة ، وهذا يصور قوماً أدنى الى الحضارة متجهزين للحرب والجلاد ، خاضعين لأميرٍ يرأسهم ويتولى قيادتهم بنفسه وهم يتقلدون السيوف . ويعتقلون الرماح ولا يبرحون طوع أمره . ومعما على الابيات المذكورة من رونق الفصاحة الحمدانية العالية وحماسة الامير الحمداني الطبيعية المشهورة ، فان بريق المدح او التمليق ، والاقرار بالخضوع والطاعة لسيف الدولة ، ظاهر في كل كلمة من الابيات .

أما ابيات المتنبي فان رواءَ الصنعة ظاهر على وجه كل لفظةٍ من ألفاظه ، وهووان كنتُ ممن لا يرتاب في شجاعته ، ولي على ذلك اكثر من حجة ليس هذا محلها ، فاني أراه بهذه

قصدنا لهُ قصدَ الحبيبِ لقاؤهُ
اليناَ وقلنا للسيوفِ هلمُنّاَّ
وخيلٍ حشوناها الأسنةَّ بعد ما
تكدَّسنَ من هنَاًّ علينا ومن هنَاًّ

فاذا نظر الناقد نظراً صادقاً في شواهد الحماسة المذكورة ، وكان ممن يذوق الفصاحة الشعرية ، بدا له الفرقُ بين هؤلآء الشعرآء الثلاثة من هذا الوجه لأَدنى تأمل ، فرأى في شعر سعد بن مالك الفروسة البدويَّة مصوَّرةً في كل بيت بل في كل كلمة ، حتى يريك الفارس العربي يمرح متخايلاً على ظهر حصانه ابَّان السلم ، وبينا هو يعجب بجمال تكوينه ، اذ تفاجئُ سمعه اصوات نساء الحي وقد باغتهم قبيلةٌ معادية فيفرُّ مسرعاً للنجدة وقد انقلبت سحنة حصانه ففتح منخريه ونصب أذنيه كأن الحيوان ادرك ما ورآء ذيَّاك الصراخ من الويل والحرب ، وكأنك بفارسه وقد نخَسهُ برجليه في بطنه فانطلق يعدو انطلاق الريح حتى وافى القوم والرمح يهتزّ بيمينه وهو يكرُّ بعد الفرّ ، ويطعن هذا ، ويدفع ذاك

موازنة الحماسة

قال سعد بن مالك

والحربُ لا يبـقى لجا — محها التخيُّـل والمِراحُ
الاَّ الفتى الصبَّارُ في الا — نجدات والفرسُ الوقاحُ
والنـثرةُ الحصداءُ والا — بيضُ المُـكلَّلُ والرماحُ
والـكرُّ بعدَ الفرِّ اذ — كُرِهَ التقدُّمُ والنطاحُ
كشفتْ لهم عن ساقها — وبدا من الشرِّ الصُّراحُ

وقال ابو فِراس الحمداني

ولمّا سارَ سيفُ الدينِ سرنا — كما هيّجتَ آساداً غِضابا
أسنّتُه اذا لاقى طعاناً — صوارمُهُ اذا لاقى ضِرابا
دعانا والأسنَّةُ مُشرَعاتٍ — فكنّا عند دعوتهِ الجوابا

وقال المتنبي

وقد علِمَ الرومُ الشقيُّون أننا
اذا ما تركنا ارضهم خلفنا عدنا
وانَّا اذاما الموتُ صرَّحَ في الوغى
لبسنا الى حاجاتنا الضربَ والطعنا

وبصَّرك بطبقة الشاعر المنقود كلامه في هذا الباب وفوق كل ذي علمٍ عليم

الفصل الخامس

في

الموازنة

قد علمتَ ما ذكرته لك في الفصل الثالث من القسم الثاني انني لم اذكر الشعر بحسب الترتيب والتبويب الذي مرَّ بك الاَّ لأنني لم أجد مَن سبقني اليه ، واعلم انّني قد أكون مخطئاً في تقديم بعض الابواب على غيرها من التي ذكرتها ، فعلى مَن يكتب بعدي من الأئمة في هذا الفن ، أن يصلح ويسدَّ خللي فان الله يجزي المصلحين .

ثم انني اهملتُ بعض الابواب التي ذكرها صاحب الحماسة لاعتباري ايَّاها احد امرين : وذلك اما انها داخلة في باب من الابواب التي رتَّبتها ، واما لانها ضيّقة لا تستحق ان يُبنى لها بابٌ مخصوص في هذا الفن .

أو كما قال الارجاني

وصحبتُ ايامَ الوصالِ قصيرةً
ولبستُ ريعانَ الشبابِ جديدا

أو كما قال ايضاً

بلغَ الهوى من سرِّ قلبي موضعاً
لا العـذلُ يبلغُهُ ولا التفنيدُ

او كما قال في هذا المعنى كثيرون غير هؤلآء الشعرآء ذوي الذوق السليم ، والتخيلات السامية ، ممن يُطلق جواد فكره في اطراف البرّ الشاسع ، والبحر الخِضمّ الواسع ، فان لم يرَ بهِ ما يرضيه أفلتَ عقابَ خواطره في اعالي الجوّ الفسيح يسيح ، حتى يقنص المعنى البديع والتخيُّل المليح ، وذو النظر القصير لا يستطيع ان يرى الاَّ ما قرب منـه ، ويعجز فكره عن السفر البعيد فلا يرى بعين مخيلَّته الاَّ ما وقع تحت نظره .

وانت اذا اعطيت هذا التعليل حقَّهُ من التدبُّر، كشف لك النقاب عن طبقات التخيلات من أسماها الى ادناها

قرعتُ ظنابيبَ الهوى يومَ عاقلٍ

ويومَ اللوى حتى قشرتُ الهوى قشرا

فانظر تخيّلات هذا البدويّ اراد ان يقول انهُ عرف أسرار الغرام وذاق حلو الهوى ومرّه ، فجآء بهذا التخيّل الخشن البعيد ، فتصوَّر له الهوى كظنبوب بعيرهِ (أي عظم ساقه) وهو يضرب به بالعصا ليتنوَّخ ، الى ان قشر اللحم عن العظم . وهذا يدلُّك كما قدَّمتُ قبيل هذا على قلة حجاه وقصر نظره فلم يبعد عن بعيره ، وظنبوب البعير ، وفظاعة منظر قشر الجلد عن العظم ، واين هذه الاحوال الخشنة المكروهة ، من رقة الهوى ولطافة طباع أهله ، وشؤون العشاق والمحبين ، فهلاَّ قال كما قال البحتري

قد لبستُ الهوى وإنْ كان ضرًّا

وتحمَّلتهُ وإنْ كانَ ثقلا

أوكما قال المتنبي

جرَّبتُ من نارِ الهوى ما تنطفي

نارُ الغضى وتكلُّ عمَّا يُحرقُ

وكقول الحاج ابي عامر بن عيشون

مرضتَ ومرَّضتَ الكلامَ تثاقلاً
اليَّ الى ان خلتُ أنَّكَ عائبُ

وكقول الآخر

قومٌ اذا غسلوا الغداةَ ثيابَهم
لبسوا البيوتَ الى فراغِ الغاسلِ

فاذا منحتَ هذا الكلام حقَّهُ من التمحيص ، وجدته تخيّلات وتصورات ، والفرق بينها وبين التشبيه ، انك تشبّه شيئاً بشيءٍ قد عاينتَهُ أو وقع شيءٌ من مثله تحت حواسك ، والتخيّلات تتخيل لك ، ولم يسبق وقوع شيء مثلها تحت حواسك . فمَن منَ الناس عاين جيشاً لجِباً يمشي بين الارض والسماء ، أو خصراً متنطّقاً منطقةً من عيون الناس ، ومتى كان للزمن جهات ؟ ومتى كان الليل صورة لها جبين أو قواماً له ثياب ؟ وهل الكلام من الاجسام فيمرض ؟ وهل البيوت ثيابٌ فتلبَس ؟ أما ان ذلك كله تخيلات ؟ ولكنها تتفاضل بتفاضل العقول . قال الشاعر

بحسب هُويّ قوادمه وخوافيه في الريح ، فمنَ الناس مَن يسوم فكرهُ الجري فيتعثر ويسقط ، ويحوم طائره على الطفيف فلا ينقر ولا يلقط ، ومنهم من تسابق اجنحة خواطرهِ السانحَ والبارح ، وتحلّق في أعالي الفضآء فتصطاد الاعزلَ والرامح ، وهذا غرَضٌ بعيد وشأوٌ قصيٌّ ، لم يظفر به الاَّ بعض اكابر اصحاب القرائح العبقرية ولم يفتح بهِ عليهم الاَّ اتفاقاً كقول المتنبي

ولو لم يعلُ الاَّ ذو محلٍّ تعالى الجيشُ وانحطَّ القتامُ

وكقوله ايضاً

وخصرٍ تثبتُ الابصارُ فيه كأَن عليهِ من حدقٍ نطاقا

وكقولهِ

فاتيتَ من فوقِ الزمانِ وتحتهِ

متصلصلاً وامامهِ وورائهِ

وكقول ابن خفاجه الاندلسي

والليـلُ وضَّاحُ الجبيـ ـنِ قصيرُ أذيالِ الثيابِ

اطالةً اثارت الاحزان والشجون ، وافاضت دمع العيون ، ثم سئمت منها النفوس ، فظهرت امارات ذلك على وجوه الحضور من نعاسٍ وتمطّي ، وتثاؤبٍ وتلوّي ، وإعراضٍ وتشكّي ، فلا تحسبنَّ اثارةَ الحميَّـة في النفوس أو تحريك العواطف بالنـدب والعويل ، أو بالتحمّس الطويل ، فربَّ كلمة أغنت عن كلمات ، وبيت قام مقام ابيات ، والحاكم في ذلك كلّهِ الذوق الحسن جعلني الله واياكـ من أهلهِ ، بمنه وفضله.

الباب الثاني عشر : **الشعر التخيلي** . هذا بابٌ مُغلَقٌ في وجوه العامَّة من الشعرآء ، مقفَلٌ برموزٍ مفاتيحها في أيدي افرادٍ بلغوا العزَّة القعسآء ، فالشعر التخييلي ليس من الوصف ولا التشبيه ولا الاستعارة ، ولكن به شيءٌ من ذلك ، وتعريفهُ ، تجسيم التخيلات الفكرية ، والاوهام العقلية، وأنت تعلم انه متى أطلق المرء لفكرهِ العنان وحلهُ من قيود المشهودات التي حولهُ ، جرى في ميَدان ينطبق على قوة جنَانه ، ومدى نفَسه وبيانه ، ونسبة ذكائه وحُجاه ، وسرعة خطوات نُهـاه ، ويطير في أفق ضيّقٍ أو فسيح ،

واشدُد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يرَوُا العذابَ الأليم : او كقوله : ولا تَحسَبَنَّ اللهَ غافِلاً عمَّا يعمَلُ الظَّالِمُونَ إنَّمَا يُؤَخِّرُهمُ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَار : او كقول المتنبي في كافور :

ولما رأيتُ العبدَ للحرِّ مالكاً
أَبيتُ إباءَ الحرِّ مسترزقاً حرَّا
ومصرُ لعمري ارضُ كُلِّ عجيبةٍ
ولا مِثلَ ذا المخصيّ أُعجوبةً بكرا

وكقولهِ ايضاً

قضاءٌ منَ اللهِ العليّ ارادَهُ أَلا رُبما كانتْ إرادتُهُ شرَّا

وعلى المؤلف في هذا الفن ان يجتنب التطويل اذ قد يُغتفر ذلك للخطيب والمؤرخ والواصف في بعض المواطن ، وأما الممثِّل فعليهِ ان يكون متناهياً في البلاغة مع حسن البيان ، فان أفهام سامعيه متفاوتة ، والملل يسرع الى الكثير من الناس ، وقد شهدتُ لبعضهم روايةً ختمها بموت عزيزٍ على والديه ، قعدا عند قبره يؤبّنانه ويرثيانه ، وأطالا في ذلك

واستعلاء الباطل ، ومكافأة الخائن وفوز الجاهل ، وربح الغاشّ وسلامة القاتل ، الى غير ذلك من الشؤون القبيحة ، انعكس المقصود الذي تتوخاه والمطلب المرجو حصوله من التمثيل ، وكانت نتيجة رواياتك ، تجرئ السامعين على الظلم والشر وسائر الكبائر ، لما هو معلوم ، من ميل الطباع في الغالب الى المنكر ، أو سرعة انطباع ذلك في الاذهان ، وما اصدق قول ابي الطيّب في هذا المعنى

والظلمُ من شيم النفوس فان تجد
ذا عفّةٍ فلعلةٍ لا يظلمُ

ولتلافي ذلك ، يجدر بالشاعر أو الناثر، ان يعمَد لما تضمّنَ حكمةً وعبرةً وموعظة من السير والوقائع ، وان اعترضه في سرد الحكاية خطب من الخطوب التي جرت على عكس ما يُراد الاقتداء به ، فلينبّه على ان هذا من الشذوذ، ومما يجب التحذر من الوقوع فيه كقوله في التوراة عند ذكر فرعون : وقسّى الله قلب فرعون : اوكما ورد قوله في القرآن عند ذكر فرعون ايضاً : ربّنا اُطمسْ على اموالهم

والناظرين ،وانطباع ذلك في عقولهم بما يكون لهم عبرةً وموعظة ، وقدوةً يقتدون بها ، وزاجراً به يزدجرون .

فاذا أتيتَ بالصعب أو المستحيل ايجاده وتمثيله ، عسّرت الامر على صاحب الملهى والممثلين ، فان أهملوا شيئاً من الموصوف بالرواية ، كان ذلك عيباً ونقصاً امام الناظرين ، وان أهملوا الرواية بتةً وبدلوها بسواها ضاعت مزية صنيعك بل رُميتَ بالطيش والرعونة . على ان هذا أيسرُ الخطبَين ، لما بلغت اليه المعارف والفنون والصناعات لهذا العهد عند الفرنجة ، بحيث لم يكد يوجد لديهم امر مستحيل تصويره للناظر ، كأنه الطبيعي بعينه ، فلا السيل العرم ، ولا الوحوش الضارية ، ولا الحريق الهائل ، ولا دكّ الحصون ، ولا الزلزلة ولا البحر ولا غير ذلك مما كان يُظَنُّ ويعدُّ مستحيلاً تمثيله للناظرين ، يمتنع اليوم تمثيله لديهم حتى يخاله المشاهدون محسوساً .

بقي الوجه الثاني ، وهو الوجه المعنوي ، بل كل الغاية التي يرمي اليها فنّ التمثيل ، فان ختمت الرواية بظفر العاتي

القتال بين جيشين ، او توارد وحوش ضارية تفترس جثث القتلى ، او تفصيل خيانةٍ او فحشآء ، او تختم الحكاية بما كان من فوز الظالم وهلاك المظلوم ، واعتلآء الجهل على العلم ، وابادة الامين وانتصار الخائن ، وسؤدد اللئيم واضاعة الكريم ، وظهور الباطل على الحق ، وعتو العبد والخادم ، وعقوق الولد وقتل الوالد ، الى غير ذلك من الحوادث والوقائع التاريخية المشهورة ، مما يُرى في كل عصر وقُطر . وهذا غير محمود في الشعر او النثر التمثيليّ بل مما يجب اجتنابه ، والسبب في ذلك ، إنك تعلم ان المراد من الرواية التمثيلية ، افادة السامعين حكايةً او وقعةً تأريخية ، تبعث فيهم الحمية والحماسة والنشاط لتحدّي المحكى عنهم والاقتدآء بهم ، ان في الدفاع عن الوطن والاستبسال للموت في سبيله ، او لصنع المعروف واجتناب المنكر ، والقصد من تمثيلها وتكرار حوادثها في الملاعب والملاهي على هذا الوجه المعلوم عند الامم المستبحرة في الحِضارة ، هو ما تحقَّق من تأثير الصوت الحيّ ، والخطب والمشاهدات ، وكل شيءٍ عياني ، في اخلاق السامعين

وقعتُ على بعض ما توخيته . ومن يهد الله فما له من مضلّ.

الباب الحادي عشر: **الشعر التمثيلي** . هذا بابٌ لم يؤلّف به العرب شيئاً ، بل لم يكتب به الاَّ افراد من المعاصرين ، كالشيخ خليل اليازجي ، وأديب اسحق ، والشيخ نجيب الحداد، والثلاثة كانوا من نوابغ الكتاب المعاصرين رحمهم الله، وقد نسجوا على منوال الافرنج، وبعضهم ترجم عن الافرنسية، وقد يكون لغيرهم من شعراء العصر شيء من هذا الباب لم يصل اليَّ . بيد ان كل ذلك من باب التقليد ، وليس في شيءٍ من الابتكار أو الاجتهاد ، ولا بدع في ذلك ، فقد بلغ الافرنج في هذا الشوط مبلغاً من البراعة والاتقان ، ما وراءَهُ مطمع لطامع ، وحسبنا ان نكون لهم مقلّدين ، اللهمَّ بما يناسب بيئَتَنا ، ليحصل بعض النفع من الشعر التمثيليّ.

واعلم ان الشعر التمثيليّ وان كان قسماً من الشعر القصصيّ ، الا انه يختلف عنه في بعض الوجوه . فمن ذلك انك تسرد في الشعر القصصي ما عاينت او تيقنت حدوثه في الحكاية التي ترويها ، من هطل سيلٍ عرم ساعة اشتباك

والتحوُّل والتغيير والتبديل . والسبب الثاني تكرار القافية الواحدة وانت تعلم ان اطرب صوتٍ في الدنيا لو ظلَّ على نغَمٍ واحد ساعتين او ثلاث لملَّتهُ الأُذن وسئمتهُ النفس ، وهذا هو السرُّ في فضل الملاحم على غيرها من ابواب الشعر ، فانها ليست حديث ساعةٍ ، او زيارة ليلة بل هي قصة حادثة او حوادث متشعبة الوقائع ، اوحكاية عظيمة من العظائم ، يسرد فيها الشاعر مجاريها بالتفصيل يوماً فيوماً ، وليلةً فليلة فان تخلل ذلك شيءٌ من الحشو أو الركيك او البارد ، او نقص براعةٍ في النسج والسرد والتركيب ، او قلَّة ذوقٍ في التفصيل والتعبير ، او غير ذلك مما تقتضيه صناعة الملاحم ، فات سهمهُ الغرض بل رُمي بالخطاء بدل الاصابة . فهو يُطلب منه ان ينتقل في حديثه من عجبٍ الى اعجب ومن بارعٍ الى ابرع ، ومن بليغٍ الى ابلغ ، حتى يملك القلوب ويستحوذ على غاية التمام .

وقد أطلت الشرح في هذا الباب ، بل اكون قد كررت به بعض القول ، ولكن قد توخَّيت به الفائدة وارجو ان اكون

فلما أَجزنا ساحةَ الحيِّ قلنَ لي
أَلم تتَّقي الاعداءَ والليلُ مقمرُ
وقلنَ أهذا دأبُكَ الدهرَ سادراً (١)
أما تستحي او ترعوي او تفكّرُ
اذا جئتَ فامنحْ طرفَ عينيك غيرَنا
لكي يَحسبوا انَّ الهوى حيثُ تنظرُ
فآخرُ عهدٍ لي بها حينَ اعرضت
ولاحَ لهـا خدٌّ نقيٌّ ومحجَرُ

فانظر براعة نظم هذه القصة وسبكها هـذا السبك العجيب برقة تأخذ بمجامع القلوب ، وبلاغة مابعدها لمتطلب غاية . بَيْدَ انها لو طالت لملَّها القارئُ لسببين : الاول منهما وحدة الموضوع وانت تعلم ان الانسان مولع بالتنقُّل من حديث الى آخر ، ومن منظور الى غيرهِ ، ومن حالةٍ الى أخرى فهو يملُّ الحالة الواحدة المستديمة ولوجمعت شروط السعادة كلها ، بل لعل السعادة لا تكون الا في التنقل

(١) اي غير مبال ولا مهتم بشيء

أقصُّ على اختيَّ بدءَ حديثنا
وما ليَ من أَن تعلما متأخَّرُ
لعلَّهما أنْ تبغيا لك مخرجاً
وأن تُرحبا[١] سرباً بما كنت أحصَرُ[٢]
فقامت كئيباً ليسَ في وجهها دمٌ
منَ الحزنِ تذري عبرةً تحدَّرُ
فقالت لأُختيها أَعينَا على فتى
أتى زائراً والأمرُ للامرِ يُقدَرُ
فأقبلتا فارتاعتا ثمَّ قالتا
أَقِلّي عليكِ الهمَّ فالخطبُ أَيسرُ
يقومُ فيمشي بيننا متنكراً
فلا سرُّنا يفشو ولا هوَ يظهرُ
فكانَ مجنّي[٣] دونَ من كنتُ أتقي
ثلاثَ شخوصٍ كاعبانِ ومُعصِرُ

(١) اي تتباعدا انت وهنّ (٢) اكتم (٣) المجنّ الترس

وترنو بعينيها اليَّ كما رنا
الى ربرب وسطَ الخميلةِ جؤذَرُ
فلما تقضَّى الليلُ الاَّ أقلُّهُ
وكادت توالي نجمهِ تتغوَّرُ
اشارت بأن الحيَّ قد حانَ منهمُ
هبوبٌ ولكن موعدٌ لك عذوَرُ
فما راعني الاّ منادٍ برحلةٍ
وقدلاحَ مفتوقٌ من الصبحِ أشقرُ
فلما رأت مَن قد تنبَّه منهمُ
وإيقاظَهم قالت أَشِرْ كيفَ تأمرُ
فقلت أُباديهم فإما أفوتهم
وإما ينالُ السيفُ ثأراً فيثأرُ
فقالت أتحقيقاً لما قالَ كاشحٌ
علينا وتصديقاً لما كانَ يؤثَرُ
فانْ كانَ ما لا بدَّ منهُ فغيرهُ
منَ الامرِ أدنى للخفاء وأَسترَُ

فواللهِ ما ادري أتعجيلُ حاجةٍ
أتى بك أم قد نامَ مَن كنتَ تَحذرُ
فقلتُ لها بل قادني الشوقُ والهوى
اليكِ وما عينٌ منَ الناسِ تنظرُ
فقالت وقد لانت وأفرخَ رَوعُها
كلاكَ بحفظٍ ربُّكَ المتكبّرُ
فأنتَ أبا الخطَّابِ غيرُ مدافَعٍ
عليّ اميرٌ ما مكثتَ مؤمَّرُ
فيالكَ من ليلٍ تقاصرَ طولهُ
وما كانَ ليلي قبلَ ذلكَ يقصُرُ
ويا لكَ من ملهىً هناكَ ومجلسٍ
لنا لم يكدّرْهُ علينا مكدِّرُ
يمجُّ ذكيَّ المسكِ منها مُفلَّجٌ
رقيقُ الحواشي ذو غروبٍ مؤشَّرُ
يَرِفُّ اذا يفترُّ عنهُ كأنهُ
حصى بَرَدٍ او أُقحُوانٌ منوَّرُ

عن الدنيا ومن فيها بالحديث عن نفسه او عن حبيبته او عن كليهما ، وهذه احوال لم يستنكفها الشاعر العربي ، وكلها كما علمت مخلةٌ بشروط الشعر القصصي : قال عمر بن ابي ربيعة :

فلما فقدتُ الصوتَ منهم واُطفئت
مصابيحُ شبّتْ بالعشآء وأنوُرُ
وغابَ قُمَيْرٌ كنتُ أرجو غيوبَهُ
وروَّح رُعيانٌ ونوَّم سُمَّرُ
ونفّضتُ عني العينَ أقبلتُ مشيةَ الـ
حُبابِ وركني خيفةَ القوم أزورُ
فحييتُ اذ فاجأتُها فتولّهت
وكادت بمكنونِ التحيةِ تجهرُ
وقالتْ وعضّتْ بالبنان فضحتني
وأنتَ امروٌ ميسورُ امركَ أعسرُ
أريتُك اذ هُنّا عليك ألم تخَفْ
رقيباً وحولي من عدوّكَ حُضَّرُ

خلت من الحماسة بل في الغرب عند الفرنجة كثير من الملاحم الفلسفية ، والهجوية ، والتاريخية وغيرها وكلها قد خلت من الحماسة .

ومن شروط الملاحم ان يكون الشاعر راوياً لا ان يجعل نفسه بطل الملحمة كفعل امرئ القيس في معلقته ، فانه لم يخرج عن ثلاثٍ ، ذاتهِ ، وحبيبتهِ ، وفرسهِ ، ومثله طرَفة بن العبد وغيره من اصحاب المعلقات ، خلا زهير بن ابي سلمى ، والحارس بن حلزّة اليشكُريّ ففي معلقتيهما مما ذكر عن الملاحم .

على ان الشاعر العربي قلَّ ان يتكلم عن غير نفسه الا في النادر كما تعلم ، حتى انه لو قصَّ حديثاً في الشعر ، وأردت ان تدخله في عداد الملاحم لشذّ عن الشرط السابق وهو ان يكون الشاعر راوي الحديث اجنبياً عن القصة او بعبارة أخرى ان يكون غير متعمّدٍ جذب الانظار الى حذقه وبراعته ، والدهش من فروسته وشجاعته ، والاعجاب بمكارم اخلاقه ، فكل ذلك مما تأباه النفوس واخيراً ، ان لا يذهل

يطول شرحه وتعداده ، تصلح لان تكون أغنيَّةَ العاشق الولهان ، ورنمة الوالدة العطوف ، وتعزية الحزين ، وتسلية المكروب ، واستاذ المصوّر ، وإمام النقّاش ، وعَروضَ الشاعر ، وقبلةَ الخطيب ، ومعلّم المغنّي ، ومُرشد المربّي عند كل امة وفي كل عصر ، وعلى الجملة فهي قوت النفوس ومحيي اشرف العواطف ، فلا بدع ان تطول حياتها ، اذ مكارم الاخلاق والصفات النبيله ، هي نفيسة في كل زمن وقليله ، بل هي ضالة من نال شيئاً من الذكآء عند كل شعبٍ وقبيله

قالوا ويُشترط في الملاحم ان يكون بطل الملحمة او ابطالها أمرآء القوم او رساءهم والمراد بذلك ان لا يكونون غربآء عن قومهم ثم ان يتكلم شاعر الملحمة بعواطف القوم وشعائرهم فان لم ينطبق كلامه على ما يشعرون ، قُضي على ملحمته بالفناء العاجل فلا تُنشر الى يوم يبعثون.

بيد ان الملاحم — وسأطلق عليها هذه التسمية أسوةً بمن تقدمني في ذلك — قد تلبس ثوب الشعر القَصصي وان

بها غابر عاداتهم ، وهجوا بها الجبان والخائن ، الى غير ذلك، فثبتت على الحدَثان ، وظلّتْ حديثة وان تقادم الزمان ، وهذا هو شأن إلياذة هوميروس أو ملحمته فقد امتدت حياتها وطال عمرها ، وكم ملحمةٍ قُصِفَت في مستهلّ سنّها وريعان أمرها ، وذاك لتوفّر الشروط المطلوبة أو عناصر الحياة في ملحمة هوميروس ونقصها في سواها ، فهي بما توفَّر فيها من عناصر الحماسة والتهييج ، تصلح للانشاد في المبارزات والحروب عند القبائل والعشائر اهل الخيام ، كما تصلح عند الامم البالغة من الحضارة أرفع مقام ، وبما فيها من عناصر أدب النفس ، ومكارم الاخلاق ، وحب الحرية والعدل ، وسائر الفضائل ، تصلح للتعليم والانشاد امام العذارى الفتيّات وسائر ربّات الخدور ، من سكان الوبر الى سكان القصور ، في جميع العصور ، وبما فيها من الوصف الدقيق البديع ، وحسن السبك ، وبارع اللفظ ، وجمال النسق ، والانتقال من موقفٍ الى مشهد ، ومن مشهدٍ الى منظر ، ومن منظرٍ الى مظهر ، ومن مظهرٍ الى واد الى غير ذلك مما

أرضهم ، مستقتلين عن حريمهم وأولادهم وأموالهم ، مستغيثين بالآلهتهم ومعبوداتهم ، فيترنم شاعرهم ويتغنى بنصرهم وفتوحاتهم ، ويتفاخر متحمساً بمبارزات أبطالهم وشجعانهم ، ويعول وينوح على قتلاهم وكسراتهم ، وبين ذلك يصف طيب أوطانه ، وأخلاق أهلها وعاداتهم ، وغناءهم وخسائرهم وسائر احوال عيشهم ، على نحو ما صنع هوميروس بقصائده المشهورة **بالالياذة** — وقد ترجمها الى الشعر العربي حضرة صديقنا الكامل غرَّة بيت العلم ، العالم الالمعي ، والشاعر اللوذعي ، سليمان افندي البستاني — . قالوا فان توفرت هذه الشروط ونبغ بين القوم شاعر — ولا بد من ان ينبغ واحد — يقوى على حسن الوصف ، واجادة السبك ، وبراعة التعبير ، ودقة النسج ، وجمال السرد ، الى غير ذلك من صفات البراعة ، تناقل الركبانُ قصائده أو ملحمته ، وحفظها القوم وتناشدوها ، وتغنّوا بها في ولائمهم وافراحهم ، وأبّنوا بها موتاهم ، وهنّأُوا بها الظافر من قوّادهم ، وأثنوا بها على عظمائهم ، وعددوا بها مآثر آبائهم ، ودرسوا بها تأريخ أسلافهم وبلادهم ، وقراوا

لدعواي ان الاراجيز لا تنطبق على سائر ما ذكرتهُ من الشعر القَصصي أو هو المسمى بالملاحم بل بها شيءٌ من هذا النوع .

واعلم ان هذا النوع من الشعر عند الافرنج هو أعظم ابواب الشعر وأدقها وأبعدها مطاباً فلا يطرقهُ منهم الاَّ الفحول وما هم كلهم ببالغين منه المطلوب بل ما أقلَّ المُجيدين . ويزعم علمآؤهم انهُ لم تتوفر الاجادة بهِ لشيخ شعرآء الدنيا هوميروس اليونانيّ ثم لفِرجيل ثم لِدانتي وبعدهُ برتبةٍ بعيدة لشاكسبير ووالتيرسكوت ولامارتين وفيكتور هوغو وبالجملة ، لكلّ من أجاد بهذا النوع من الشعر ، الاَّ لتوفّر الشروط اللازمة لهُ ، وأوّلها ان يكون الشاعر في أمةٍ فتيَّه الاعتقاد بدينها ، حديثة الاتحاد بين أفخاذها وبطونها ، وعماراتها وقبائلها وشعوبها ، وان يكون القومُ بما لديهم فرحين ، وبيناهم كذلك ، يفاجئهم عدوٌّ يقتحم ثغور بلادهم ، ويكتسح اموالهم ،فيتأثّرونهُ ويتعقبونهُ ،وتدور بينهم الدوائر ، ويطول العِدآء ، ويدافعون مستبسلين عن

للقطاميّ ولكنها قصيرة ايضاً وقرأت منها ما يأتي :

ونادى صاحب التَّنورِ نوحٌ وصُبَّ عليهمُ منهُ البوارُ
وضجّوا عندَ جيئتهِ وفرّوا ولا يُنجي من القدرِ الحذارُ
وجاشَ المآءُ منهمراً اليهمْ كأَنَّ غُثَآءَهُ خِرَقٌ تسارُ
وعامَتْ وهيَ قاصدةٌ باذنٍ ولولا اللهُ جارَ بها الجوارُ
الى الجوديّ حتى صار حجراً وحانَ لتالكَ الغُمَرِ انحسارُ
فهذا فيهِ موعظةٌ وحكمٌ ولكنني امروءٌ فيَّ افتخارُ

وهذا بحرٌ لا ساحل لهُ ، ولم أذكر لك هذه الشواهد ، الاَّ برهاناً على ما قدمته ، من ان الاراجيز عند العرب لم تكن طويلةً أو محيطة بوصف حوادث تأريخية أو وقائع حربية بتفاصيلها ، بل كانت العرب تنطق بالرجز قبل ان نطقت بغيره من أبحر الشعر ، فألمَّ بسائر احوال العرب . قال في التهذيب وزعم الخليل ان الرجز ليس بشعر وانما هو انصاف ابيات واثلاث . فلا عجب بعد هذه الرواية ان يكون الرجز اول بحر نطقت به العرب الشعر ، وليس بيان ذلك من غرض هذا الكتاب وانما ذكرتُ لك تأييداً

نحنُ ضربنا الازْدَ بالعراقِ والحيَّ من ربيعةِ المرّاقِ
وابنَ سُهَيلٍ قائدَ النفاقِ بلا مَعونات ولا أرزاقِ
الا بقايا كرمِ الاعراقِ لشدَّةِ الخشيةِ والاشفاقِ
من المخازي والحديث الباقي

وكقول الآخر

نحن قتلنا مُصعباً وعيسى وابنَ الزبيَر البطلَ الرئيسا
عمداً أذقنا مضرَ التيئيسا

وكقول الآخر في وقعة الخندمه

إنْ تُقبلوا اليومَ فما بي علّه هذا سلاحٌ كاملٌ وألّه
وذو غرارين سريعُ السلّه

ثم هرب امام خالد فلامته امرأته فقال

إنّكِ لو شهدتِ يوم الخندمهْ اذ فرَّ صفوانُ وفرَّ عكرمَهْ
ولحقتنا بالسيوفِ المُسلمَه يفلقنَ كلَّ ساعدٍ وجمجُمَهْ
ضرباً ولا تسمعُ إلاّ غمغمَه لهم نهيتٌ خولنا وجمجمَه
لم تنطقي في اللوم ادنى كلِمَه

وأحسن ما وقفت عليه من ذلك قصة نوح (عم) أو الطوفان

لك من ان هذه الاراجيز كانت قصيرة ، وبعضها لا يتجاوز الاربع أو الخمس ابيات أو أقل ، وقد نُظِمتْ لاغراضٍ خصوصية تافهة كقول امرأة أبي حمزة الضبيّ ترقص ابنتها

ما لأَبي حمزةَ لا يأتينا   يظلُّ في البيتِ الذي يلينا
غضبانَ إنْ لم نلدِ البنينا   تاللّهِ ما ذلكَ في أيدينا
وانما نأخذُ ما أُعطينا   ونحنُ كالارضِ لزارعينا
نُنبِتُ ما قد زرعوهُ فينا

أو كقول الآخر يصف سهماً صادراً وهو من أبدع الوصف

ألقى على مفطوحِها مفطوحا   غادرَ داءً ونجا صحيحا

وكثير من هذه الاراجيز قد جرت على السنتهم وتناقلتها قبائلهم ودعت البيت أو البيتين أرجوزة كما يتبين لك من مطالعة كتب ادبهم . ومن ذلك تعلم انها لا تنطبق على ماذكرتهُ لك من الشعر القَصصيّ ووصف الوقائع والحوادث التاريخية به وصفاً مستوفياً . اللهمَّ الا ان يكون الشاعر أتى على حادثة طفيفةٍ ، أو لمعةٍ من واقعة كقول شاعرٍ من بني تميم

اني اذا خفيَ الرجالُ وجدتَني
كالشمسِ لا تخفى بكلّ مكان

وهو فخرٌ محض . وكقول غيره

وفارقتُ حتّى ما أُبالي منَ النوى
وإنْ بانَ جيرانٌ عليَّ كرامُ
فقد جعلتْ نفسي على النأي تنطوي
وعيني على فقدِ الحبيبِ تنامُ

وهو بحديث الاشواق أولى . وكثيرٌ من شعر الحماسة على هذا النحو

وأما الاراجيز فلم يصل الينا من أراجيزهم ما ينيف على الخمسين بيتاً ، بل اكثرها أقلّ من ذلك بكثير ، قال عبد الله ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء في ترجمة الاغلب الراجز: وكان الاغلبُ جاهليًّا اسلاميـًّا وهو أول من أطال الرجز وكان قبلهُ الرجل يقول البيت والبيتين اذا فاخر او شتم وحسبُكَ قولهم عن الاصمعي انهُ كان يحفظ ستة عشر الف ارجوزةٍ ولعلها من المبالغات المتناهية في الغلوّ ولكنها تؤيد ما ذكرته

وسمّاهُ بعضهم بالاراجيز — وكلاهما غير وافٍ بالتعبير عن هذا الغرض. أمّا الحماسة فلأنَّها قد تخلو كثيراً من القَصَص كقولهِ

ذكرتُكِ والخطيُّ يخطرُ بيننا
وقد نهلَتْ منّا المثقَّفةُ السمرُ
فواللهِ ما أدري واني لصادقٌ
أداءٌ عراني من حِبابكِ أم سِحرُ
فانْ كانَ سِحراً فاعذُريني على الهوى
وإن كانَ داءً غيرَهُ فلكِ العُذرُ

وهو كما تراهُ الى النسيب أقرب. وكقول الآخر

اني على ما قد علمتَ محسَّدٌ
انمى على البَغضاءِ والشنئآنِ
ما تعتريني من خطوب ملُمة
الاّ تُشرّفُني وتُعظِمُ شاني
فاذا تزولُ تزولُ عن متخمّطٍ
تُخشى بوادرهُ لدى الاقرانِ

وحملجت العيون ، وانخذلت المتون ، ولحقت الظهورَ البطون ، ثم ساآءت الظنون . وانشد . . . فقال عثمان اكفف لا أمَّ لك فلقد أرعبتَ قلوب المسلمين ولقد وصفته حتى كأَني أنظر اليه يريد يواثبني .

أسمعتَ بما قالهُ الخليفة لهذا الواصف ؟ وهو لم يُرِد اطرآءهُ ، ولكن براعةُ وصفهِ ، وحسنُ نسجهِ ، ودقة تصويرهِ ، مثّلت الواقعة للخليفة حتى قال لهُ لقد وصفتَهُ حتى كأَني انظر اليه يُريد يواثبني .

وانتَ اذا انعمت النظر فيما ذكرته لك في هذا الباب والابواب المتقدمة ، واتيت على حفظ قواعد فن النقد كلّها ، وكنتَ ممن رُزقوا شيئاً من الذكآء وحصةً من الذوق ، لا تلبث ان تنجلي لك محاسن دقّة الوصف ، ونقد من أخطأَ من الواصفين باذن الله ، وأنْ ليس للانسان الاّ ماسعى .

الباب العاشرُ : **القصص** . هذا الباب لم يذكرهُ أحدٌ من كتّاب العرب مع ان الشعر القَصَصيّ كان عند العرب وان لم يسمّوهُ بهذا الاسم ، وربما أدخلهُ بعضُهم في باب الحماسة ،

سجراوان ، كأَنهما سراجان يقدان ، وقَصَرة رَبله ، ولهزمة رهله ، وكتد مُغبط ، وزور مفرط ، وساعد مجدول ، وعضد مفتول ، وكف شثنة البراسن ، الى مخالب كالمحاجن ، ثم ضرب بذنَبه فأرهج ، وكشر فأفرج ، عن أنيابٍ كالمعاول مصقولة غير مفلولة وفمٍ أشدق ، كالغار الاخرق ، ثم تمطّى فأسرع بيديه ، وحفز وركيه برجليه ، حتى صار ظلّهُ مثليه ، ثم أقعى فاقشعرّ ، ثم مثل فاكفهرّ ، ثم تجهَّم فازبأرّ ، فلا والذي بيتهُ في السمآء ، ما اتّقيناه بأوّل من أخٍ لنا من بني فزاره ، كان ضخم الجزاره ، فوهصه ، ثم أقعصه ، فقضقض متنه وبقر بطنه فجعل يلغُ في دمه فذمرتُ أصحابي فبعدَ لأَيٍّ مااستقدموا ، فكرَّ مقشعر الزبره . كأَنَّ بهِ شيهماً حوليًّا فاختاج من دوني رجلاً اعجر ذا حوايا ، فنفضهُ نفضةً فتزايلت أوصاله ، وانقطعت أوداجه ، ثم نهم فقرقر ، ثم زفر فبربر ، ثم زأر فجرجر ، ثم لحظ فواللهِ لخلت البرق يتطاير من تحت جفونه ، عن شماله ويمينهِ ، فارتعشت الايدي ، واصطكت الارجل ، وأطَّت الاضلاع ، وارتجت الاسماع ،

المعزآء[١] وذاب الصيخد[٢] وصر الجندب[٣] وضايق العصفور الضبُّ في وجاره ، قال قائلنا : أيها الركب غوّروا بنا في دوح هذا الوادي فاذا واد كثير الدَغَل دائم الغَلَل شجرآؤهُ مغُنّه وأطيارهُ مرُنَّه فحططنا رحالنا باصول دوحات كنهبلات فاصبنا من فضلات المزاود وأتبعناها بالمآء البارد فانّا لنِصف حرّ يومنا ومماطلته ومطاولته إذ صرَّ اقصى الخيل أذنيه وفحص الارض بيديه ثم ما لبثَ ان جال فحمحم وبال فهمهم ثم فعل فعلَهُ الذي يليه ، واحد بعد واحد فتضعضعت الخيل وتكعكت الابل وتقهقرت البغال فمن نافر بشكاله وناهض بعقاله فعلمنا ان قد أُتينا وانهُ السبعُ لا شكّ فيه ، ففزع كل امرىءٍ منا الى سيفه واستلَّهُ من جرُبّانه ثم وقفنا لهُ رزدقاً فأقبل يتظالعَ في مشيته كأنهُ مجنوب أو في هجار ، لصدرهِ نحيط ، ولبلاعيمه غطيط ، ولطرفه وميض ، ولارساغهِ نقيض ، كأنما يخبط هشيما ، أو يطأ صريما ، واذا هامة كالمجنّ وخدٌّ كالمسنّ وعينان

(١) الارض الصلبة (٢) عين الشمس (٣) أي وصاح الجراد شديداً

والطيّبُ من المأكول أو المشروب حتى تحسب طعمه في فيك ، بل يصف لك الاخلاق من لطيفةٍ وكثيفة حتى تحسب أصحابها أشخاصاً ماثلةً بين يديك .

ولكيلا تعدّ ما أقولهُ في باب المبالغات فهاك شاهداً آخر من النثر رواهُ الجاحظ في المحاسن والاضداد قال : دخل أبو زبيد الطائي على عثمان بن عفّان في خلافته وكان نصرانياً . فقال لهُ عثمان بلغني انك تجيد وصف الاسد. فقال لهُ لقد رأيت منه منظراً وشهدت منهُ مخبراً لا يزال ذكرهُ يتجدد على قلبي قال هات ما مرّ على رأسك منهُ قال خرجتُ يا أمير المؤمنين في صُيّابةٍ[١] من افناء[٢] قبائل العرب ذوي شارة حسنة ترتمي بنا المهارى باكسائها القزوانيات ومعنا البغال عليها العبيد يقودون عتاق الخيل نريد الحارث ابن ابي شمر الغسّاني ملك الشام فاخروّطَ[٣] بنا المسير في حمّارة القيظ حتى اذا عصبت[٤] الافواه وذبلت الشفاه وشالت[٥] المياه واذكت[٦] الجوزاء

(١) صِيابة القوم لبابهم وخيارهم (٢) افناء أخلاط ولعلها هنا بمعنى الجماعات المختلطة والتقدير في جماعات من خيار قبائل العرب (٣) أي طال (٤) أى جف ريقها (٥) أي قلت (٦) أوقدت

قياماً على أقدامِها قد تنكَّبتْ
صوارمُها كلٌّ يُطيعُ ويخضعُ
تحلُّ بيوتُ المالِ حيثُ محلُّهُ
وجِسْمُ العطايا والرُّواقُ المرفَّعُ
اذا ماجَ أطنابُ السرادقِ بالضحى
وقامتْ حوالَيهِ القنا تتزعزعُ
وسلَّ سيوفَ الهندِ حولَ سريرهِ
ثمانونَ الفاً دارعٌ ومقنّعُ
رأيتَ مَن الدنيا اليهِ منوطة
فيمضي بما شآءَ القضآءُ ويصدعُ

قلتُ لا يصفُ هذا الوصف الاَّ ابن هاني متنبّي الغرب أو من هو مثله فيأتي على ذكر دقيق الموصوف وجليله ، ويقرب بعيده ويحيط بمجموعه ، حتى يمثّل لديك المشهودات كأَنك تراها وصهيل الخيل أو قعقعة السلاح أو الصوت الحسن حتى كأَنها ترنُّ في أذنيك ، وعَرفَ الطيوب كأَنك تشمُّها ، ويصِفُ الناعم أو الخشن حتى كأَنك تلمسها ،

القارئُ انها لبعض الشعرآء الخاملين غير ان ذلك من الشاذّ الذي لا عِبرة به فليس يقول

تَحفُّ بهِ القوَّادُ والامرُ أمرُهُ
ويقدمهُ رأيُ الخلافةِ أجمعُ
ويسحبُ أذيالَ الخلافةِ رادعاً
بهِ المسكُ من نشرِ الهُدَى يتضوَّعُ
لهُ حُلَلُ الإكرامِ خُصَّ بفضلِها
نسائجُ بالتّبرِ المشهَّرِ تلمعُ
بُرودُ أميرِ المؤمنينَ بُرودُهُ
كساهُ الرّضى منهنَّ ما ليسَ يُخلَعُ
وبينَ يديهِ خيلهُ بسروجهِ
يُقادُ عليهنَّ النضارُ المرصَّعُ
وأعلامهُ منشورةٌ وقبابُهُ
وحجَّابُهُ تُدعى لامرٍ فتُسرِعُ
مليكٌ ترى الاملاكَ دونَ بساطهِ
وأعناقُهم مِيلٌ الى الارضِ خُضَّعُ

التمثيلي[١] وبالحقيقة ان هذا الباب وباب الشعر **القصصي**[٢] لا يفترقان كما ستراه ، الاَّ في العموم والخصوص ، **فالقصصي** يحيط بموضوعات كثيرة وهو ينتهي عندهم في الغالب بما يُضحَكُ منهُ ، بل يشتمل كله على المضحكات . **والتمثيلي** موضوعه أمرٌ خصوصيّ بعينه ، وينتهي بما تتأثر له نفوس السامعين من كشف خيانةٍ مستورةٍ ، او كمينٍ ، أو غدرٍ ، أو سرقةٍ ، الى غير ذلك مما هو من هذا النوع

وليس كل شاعر قادراً على الجولان في هذا المَيدان فانَّ وصفَ شيءٍ بعينه قد يمكن الاجادة به مع بذل غاية الوسع وان لم يكن الشاعر من اهل السبق ومَن تصفح دواوين الشعراء أو قراء الاشعار الكثيرة في كتب الادب وقف على أبياتٍ بديعة التركيب ومعانٍ عالية لطيفة لا يحسب

(١) *Dramatique* ويمكن ان يطلق على ما يمثل منه اسم : العبر : جمع عبرة لان التمثيل في هذا النوع يحتم في الغالب بما فيه عبرة وموعظة للناظرين ، فاذا سأل احد مثلاً ماذا يمثل في هذه الليلة في دار التمثيل ؟ واجابه المسئول رواية كذا ، فقال من أي نوع هي ؟ فيقال من (العبر)

(٢) *Comique* أو *Comedie* ويمكن ان يطلق على هذا النوع اسم المضحكات ، كما يمكن ان يطلق على ما يمثل من الشعر المحزن أو النثر *Tragédie* اسم المبكيات ، هذا ان رضي به اهل هذا الفن عندنا.

من دقة التخيُّلات ، لو صرفوا أفكارهم الى هذه الوجهة ، لأَتوا بالمذهل المعجب ، والمرقص المطرب ، فهو عند الفرنجة لهذا العهد من أهم فروع الشعر بل من أعظم أبوابه ، بشرط ان لا يخرج عن أقسام البديع ، وسأذكر لك شيئاً من ذلك في محله ان شاء الله

الباب التاسع : **الوصف** . هذا بابٌ تدخل منه الى فسطاط ممتد الاطراف ، بعيد المطاف ، واسع الساحات كثير الشعاب ، متعدد المنازل وافر الرحاب ، فالوقائعُ الحربية ، والمواكب الملوكية ، والمقابلات السلطانية ، والقصور الرفيعة ، والحصون المنيعة ، كلها تدخل في باب الوصف . والشوارع الكبيرة ، والمباني الفخيمة ، والرياش الثمين وسائر آلات الزينة والنعيم ، مع أدق مايقع تحت الابصار ، الى أعظم ما تتصوره الافكار ، من الاختراعات والآلات العجيبة التي تظهر كل يوم في أوربا وأميركا ، هذه وصفها والكلام عنها يدخل في هذا الباب . وقد فرَّع منه الافرنج قسماً من الشعر

الاسلام؟ ولكني أدلُّك على غلامٍ من الحيّ نصراني كأَن لسانه لسان ثور يعني الاخطل . فانظر كيف وصف كعبٌ لسان الاخطل وشبهه بلسان الثور لانه كان هجّآءً شتّاماً .

فلما استبحر العمران وتمكنت قواعد الحِضارة واتسعت مناحي أهلِها وذهبوا في التأنق والملاطفة كل مذهب ، وأخذوا في ضروب الرقة والمجامله ، وتشعّب تداخلهم بعضهم في بعض ، وكثرت إلفَتُهم ، وتوالى أخذهم وعطآؤهم ، واجتماعهم وسائر معاملاتهم ، وبعدوا عن خشونة العيش بقربهم من المعارف . ودام ترقيها عصراً فعصراً ، أعرضوا عن الهجآء الفظ المقذع ، وانصرفوا الى أنواعهِ البديعية كالتهكم ، والتنكيت ، والتلميح والتورية ، والتلويح . هذا مذهب أهل الحجى واللطف ولا عبرة بالارذلين وأهل السخف .

على ان العرب مع ادخالهم انواع البديع هذه في باب الهجآء ، فلم يستخدموها فيه الا قليلاً . وهذا مما يؤسف له ، فانهم مع صفآء قرائحهم ، وثقوب أذهانهم ، وما عُرفوا به

لا تحسَبُ المجدَ تمراً أنت آكلهُ
لن تبلُغَ المجدَ حتى تلعقَ الصبِرا

وكقول الآخر

تَشبّهُ عبسٌ هاشماً إنْ تسربلتْ
سرابيلَ خزٍّ أنكرتها جلودُها
فلا تحسَبنَّ الخيرَ ضربةَ لازبٍ
لعبسٍ اذا ما ماتَ عنها وليدُها
فسادةُ عبسٍ في الحديثِ نسآؤها
وقادةُ عبسٍ في القديمِ عبيدُها

واعلم ان هذا كان شأن الهجو عند العرب في اكثر حال بداوتهم فلما احتضروا أو خالطوا الحضَر ، تحول هجوهم من الوصف وذكر المعايب الى المهاترة والشتم والمقاذعة ولعل اكثر الامم كالعرب في ذلك . والشتم مستقبحٌ في كل عصر قال المبرّد : كان يزيد بن معاوية عتب على قومٍ من الانصار فأمر كعب بن جُعَيل التغلبي بهجائهم فقال له كعب أأهجو الانصار ؟ أراديّ انت الى الكفر بعد

والبحث الدقيق ، لوجدته لا يتعدى اعلان حديث النفس واظهارها الكراهة والبغض لعدوّها ،وتصويرها أقبح ماتراه فيه من الاخلاق والمعايب . هذا أصل الهجو بين البشر في أوّل أمرهم ، وإبّان سذاجتهم ، وصفاء فطرتهم ، وطرافة منابتهم ، وطراوة طينتهم ،بل كانوا يَصفون عدوّهم بما يرونه فيه من العيوب ثم يقابلون ويوازنون بينه وبين من يخالفه في ذلك ان كان بحسن الخلق أو بحسن الاخلاق واكثر ما يكون بينه وبين الشاعر الهاجي أو قبيلته فيفاخر المهجوّ بهم ويذكر ما يراه به من العيوب والمناقص كقوله

ولكنني أنفي عن الذمّ والدي
وبعضُهم للذمِ في ثوبه دَسْمُ

وكقولهِ

دببتَ للمجدِ والساعونَ قد بلغوا
جهدَ النفوس والقَوا دونَهُ الازُرا
فكابروا المجدَ حتى ملّ اكثرُهم
وعانقَ المجدَ مَن أوفى ومَن صبرا

بالفسَه والغضب فتجيبه اجابة الهازل المداعب برحبٍ من الذرع ، وطلاقةٍ من الوجه ، وثبات من المنطق .

ومن هذا الباب ما يُحكى عن الفيلسوف الفرنسوي ڤولتير قالوا ، نزل عليه يوماً أحد اصحابه وكان قادماً من سفرٍ ، فسألهُ ڤولتير من أين القدوم ؟ فاجاب من عند جان جاك روُسوّ فقال لهُ طوبى لك فقد شاهدت الفيلسوف الشاعر . فسكت الضيفُ فقال ڤولتير ما بالُك سكتَّ فقال انهُ ليغمّني يا صاح ان رأيهُ فيك غير رأيك فيه ففهم ڤولتير ان روُسوّ قد اغتابَهُ فقال أظنُّ كلينا مخطئاً . وهو من أحسن الاجوبة السريعة في استدراك المدح وتحويله الى ذم والدفاع عن نفسه. وقد طوت ڤولتير وروُسوّ الايام والسنون وعبارة ڤولتير هذه يتناقلها الخلف عن السلف ولو شتم ڤولتير خصمهَ كل الشتم لما نُقل عنهُ ذلك بل لو نُقل لكان للمؤاخذة والتحميق .

واعلم انك لو نقَّبتَ عن أقدم ما يُحكى للامم من الهجو إن شعراً أو نثراً ووضعت ذلك نصب عينيك للتمحيص

أنتَ في القدسِ تصلّي   وهوَ في البيتِ يطوفُ

وقال ابو الطيب البزّاز يهجو ابن زهر الطبيب

قُلْ للوبا انتَ وابنُ زهرٍ   جاوزتما الحدَّ في النكايه
ترفقّا بالورى قليـلاً   في واحدٍ منكما كفايه

وقال ابن عبدل يهجو رجلاً بالبَخَر

فما يدنو الى فيهِ ذُبابٌ   ولو طُلِيَتْ مشافرُهُ بقندِ
يَرَيْنَ حلاوةً ويخفنَ موتاً   وشيكاً ان هممنَ لهُ بوردِ

فقد علمت مما تقدم ان عيوب الخلقة ايضاً وهي : **غير الاخلاق الذميمة وغير المناقص** يتصرف بها الشاعر الالمعي قليلاً فيخرجها كاقبح الاوصاف وقد تؤلمْ المهجوّ اكثر مما يؤلمهُ السب والافحاش : قال ابن المقفَّع . لا تتخذ اللعن والشتم على عدوك سلاحاً فانهُ لا يجرح في نفسٍ ولا في مالٍ ولا في دينٍ ولا منزلة : وقال أيضاً . ان خلطتَ بالجِدّ هزلاً هجنّتَهُ وان خلطتَ بالهزل جدًّا كدَّرتَه غيرَ اني قد علمت موطِناً واحداً،فان قدرت ان تستقبل فيه الجِدَّ بالهزل اصبت الرأي وظهرت على الاقران . وذلك ان يتورَّدك متوردٌ

المواثيق وربما شدُّوا لسانه بنسعةٍ كما صنعوا بعبد يغوث المحاربي حين اسرته بنو تميم يوم الكلاب وهو الذي يقول

اقول وقد شدُّوا لساني بنسعةٍ (١)

أمعشر تَيمٍ اطلقوا من لسانيا

وتضحك مني شيخةٌ عبشميةٌ

كأنْ لم ترَ قبلي اسيراً يمانيا

وقال صاحب الكليات : ما وُصِفَ بهِ الانسان من أخلاقهِ الذميمة يُسمَّى هجاءً : وفي هذا التعريف تحديد غير شامل لضروب الهجو كلهِ ، فان بعض المناقص او كلّها تدخل في هذا الباب ، ويدخل فيه ايضاً العجز والتقصير لانها من العيوب التي اذا وصفها الشاعر وصفاً حسناً مستحكماً، جاءت كمن يصوّر ذا أنف كبير بزيادةٍ ولو قليلة عن الحقيقة، فانهُ يكون في غاية الشناعة وسبباً لمزيد ضحك الناظرين واستهزآئهم، قال الشاعر وهما مشهوران

لكَ أنفٌ يابنَ حربٍ أنِفَتْ منهُ الانوفُ

(١) النسعة سير يضفر على هيئة النعال وقد يجعل زماماً للبعير

جلّ من ما عندهم من الهجو لا يتعدّى التعريض والتلميح والتورية والتلويح والاشارة والتوهيم والتهكم والتنكيت وهي افعل في نفس المهجوّ وانكى وارقّ في اذن السامع وابقى قال صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه: اما الهجو فابلغهُ ما جرى مجرى التهكم والتهافت وما قربت معانيه وسهل علوقه بالقلب ولصوقه بالنفس ، فاما القذف والافحاش فسِباب محض: (وقد تقدم ذكر ذلك في الفصل الاول من هذا الكتاب) . وفي الحديث الشريف : المستَبَّان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان ويتقاولان ويتقابحان في القول. وهذا كله يصدق في الهجو القبيح كما تقدم القول .

وقال الجاحظ وهل اهلك عنزة وجرماً وعكلاً وسلول وباهلة وغناء الا الهجاء وهذه قبائل فيها فضل كثير وبعض النقص فمحق ذلك الفضل كله هجاء الشعرآء وقال ويبلغ من خوفهم من الهجاء ومن شدة السبّ عليهم وتخوفهم ان يبقى ذكر ذلك في الاعقاب ويُسَبّ به الاحيآء والاموات انهم اذا اسروا الشاعر اخذوا عليه

صامت ، فلما رآه لا يكلّمه ، اقبل الرجل يعضّ ابهاميه ويقول يا سوأَتاه والله ما يمنعه من جوابي الا هواني عليه .

واعلم ان الهجو كان يُعَدّ نقصاً عند كثيرٍ من البدو اهل الوبَر وخشونة العيش ، قال شاعرهم

ولقد امرُّ على اللئيمِ يسبُّني
فاجوزُ ثُمَّ اقولُ لا يعنيني

وقال الآخر

واغفرُ عوراءَ الكريمِ ادخارَهُ
وأُعرضُ عن شتمِ اللئيمِ تكرُّما

فكيف به اليوم عند اهل المدن وذوي الحضارة والنعيم واهل اللطف والذوق السليم ممن يبذل الدراهم والدنانير ، ويصرف الوقت الطويل والنصب الكثير ، في شراء ثوبٍ من كَتَّان او حرير ، بشرط ان يكون حسب الزِّيّ الاخير ، من ازياء الفرنسيس او الانكليز ، او سواهم من اهل التبريز ، وانت اذا استبصرت في احوال هؤلاء القوم ، علمت انهم يعدّون المهاترة والمقاذعة من افحش المعايب بل

منزلة رفيعة . فلا تحسبنَّ الهجو في شيء من ذلك قال ابنُ قتيبّه : فاما السِباب وشتم السلَف وذكر الاعراض بكبير الفواحش ، فمما لا نرضاهُ لخِساس العبيد : وروى المبِرّدُ ما محصلّهُ ان الوضيع كان ينقلب الى الشريف لانهُ يرى مقاولتـه نخراً ، والاجتراء عليه ربحاً ، كما ان مقاولة الشريف للئيم ذُلٌّ وضَعَةٌ قال الشاعر

اذا انتَ قاولتَ اللئيمَ فانّما
يكونُ عليك َالعتبُ حين تقاوِلهْ

وقد امتنع قومٌ من الجواب تنبُّلاً ومواضعهم تنبئ عن ذلك وامتنع قومٌ ِعيًّا بلا اعتلالٍ وامتنع قومٌ عجزوا واعتلُّوا بكراهة السَفهَ ، وبعضهم كان يَسبُّهُ الرجل الركيك من العشيرة ، فيُعرض عنـه ويسبُّ سيّد قومه قال وهذا كثيرٌ غير معيب . وهذا رأي المبِرّد او عادات القوم لتلك العصور عصور البداوة ، وعادة القوم لعصرنا ، ان هذا كمال العيب والسَفهَ فتنبَّه . وحكى المبرّد ايضاً ، ان رجلاً وقف على الاحنف فجعل لا يألو ان يسبَّهْ سبّاً يُغضبُ ، والاحنف مطرق

بامثال الهضاب كأن رَكباً　　عليها من بني حام قعودا
أبا وهب جزاكَ اللهُ خيراً　　نحرناها واطعمنا الثريدا
فعُدْ إنَّ الكريمَ له مَعادٌ　　وظني بابن أروى انْ يعودا

فقال لها لبيد أحسنتِ يا بُنيَّتي لولا انكِ سألتِ فقالت ان الملوك لا يُستحى من مسئلتهم فقال يا بنيتي وانتِ في هذا اشعر.

فانظر كيف ان ابنة لبيد لم تمدح الامير على مائة ناقة في ذلك العصر وهي شيءٌ كثير الا بكلام قليل، ومع ذلك فقد عاتبها ابوها على بعضهِ، اذ كان لبيد شريفاً كما علمت فلكل مقامٍ مقال.

الباب الثامن: الهجاء. هذا بابٌ ولجهُ الفحول المتقدمون بالشدَّة والعُنف وسلكوا منه الى طريق الشتم والقذف وانت تعلم ما دار بين جرير والاخطل والفرزدق وامثالهم من البدو المتحضرين، مما لا يرتفع عن سِباب الاجلاف السفلة الوقِحين، وقد تبعهم في ذلك كثيرٌ من شعراء المولّدين كابن الحجَّاج واضرابه ولهم عند اهل السفاهة والدعارة

قصَّرَ عن أوصافِكَ العالِمُ
وكثَّر الناثرُ والناظمُ
مَن يكنِ البحرُ له راحةً
يضيقُ عن خنصرهِ الخاتمُ

وما جحد المتنبي النعمة ولا قصّر في المدح ، ولكن مقامه وترفُّعه في المدح والانشاد ، غير مقام هذا الحداد ، فاحسن ارشدك الله التميز والانتقاد .

ومن احسن ما استشهدهُ في هذا الباب، حكاية لبيد بن ربيعه ينتهي الى كِلاب وكان شريفاً في الجاهلية والاسلام وقد نذر ان لا تهبَّ الصبا الا نحر وأطعم ، فهبَّت وهو بالكوفة مقتِرٌ مملِق ، فعلم بذلك الوليد بن عُقْبة ينتهى نسبهُ الى عبد مناف ، فبعث اليه بمائة ناقة مع ابياتٍ ، فلما اتتهُ قال جزى الله الامير خيراً وقد عرف اني لا اقول الشعر ولكن اخرجي يا بنيَّتي اجيبي الامير ، فتفكَّرت ساعةً ثم قالت

اذا هبَّتْ رياحُ ابي عقيلٍ دعونا عندَ هبَّتها الوليدا
طويلَ الباعِ ابيضَ عبشميًّا أعانَ على مروءَتهِ لبيدا

او مُعدَم ولله درُّ ابي الطيب

وتعظُم في عينِ الصغيرِ صغارُها

وتصغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ

فلا تنكرنَّ شكراً قليلاً، مقابلَ نعمةٍ جليلة ، ولا تستعظمنَّ حمداً جزيلاً وشكراً طويلاً ، مقابلَ احسان زهيد بل فانظر في ذلك الى قدر المنعِم والمنعَم عليه واحكم بعد ذلك حكمك، فان الف دينار من الامير ابي شجاع فاتك الى المتنبي منذ الف سنة (ولعلَّها تعادل قيمة مئتي الف فرنك ليومنا هذا) انطقتهُ بمثل الابيات الآتية التي تتهادى إباءً وتمايل ترفعاً قال

وما مدحتُ لانَّ المالَ فرَّحني

سيَّانِ عنديَ اكثارٌ وإقلالُ

لكن رأيتُ قبيحاً ان يُجادَ لنا

واننّا بقضاءِ الحقِّ بُخَّالُ

وخاتمُ خنصرٍ من ذهب انطق ظافراً الحدّاد الاسكندري بالشكر الآتي :

مافي معاجم اللغة من الصفات الممدوحة والمناقب المشكورة وجعلها قلادةً في عنق الممدوح وصبّها عليه دفعةً واحدة ، فهو صنيع المدلّسين المرآئين المداجين ممن لا قيمة لكلامهم إنْ عند انفسهم أو عند الناس ، بل لا طلاوة لشعرهم ومدحهم بتةً .
واعلم انه لما كان المدح تصوير الصفات ، فكلما قرب من الصدق كانت به صورة الممدوح أظهر ، ومَن المصوِّر الذي لا يبذل منتهى جهدهِ وغاية وسعهِ في اتقان صورةِ مصوَّرِهِ؟ ثم انه كلما كان الشاعر نبيهاً ألمعيّاً تحرّى في ثنيّات مدحهِ تصوير الحَسن من ملامح ممدوحهِ كأَن يكون طويلاً فيذكر طول حمائل سيفه ، أو قوياً فيذكر اقتداره على لبس الدرع وحملها ، او وقوراً ، او مهيباً ، او جميلاً ، وسترى شواهد ذلك كلّهِ فيما يأتي .

اما الشكر او التحدُّث بالنعمة فلا يجب ان يتعدى تصوير عواطف الشاكر ، فان النعمة الكبيرة قد لا تكون جليلةً ، اذا حلَّت على عظيم وبعكسه ، فان اليسير من الاحسان ، قد يُنطق بكثير الشكران ، اذا وقع موقعه وحلَّ على بائسٍ

بنسبة صفاتٍ لهُ لم يعرفها ومكارم لم يسترعفها أو النوح والبكآء ، وتكرار الندب والتحسّر ، فهذا يسمَّى قائلهُ كذاباً نوَّاحةً ، وأنت تعلم انهُ قد يُضطر الشاعر أو الخطيب أو الكاتب الى تأبين رئيسٍ أو كبيرٍ لا فضل بهِ ولا فضيلة ، فان استطاع ارضآء السامعين، دون مداهنةٍ في التعزية والتأبين، فهناك يُعتَرف لهُ بكمال البراعة ، وبلوغ الغاية من الصناعة .

الباب السابع : **المدح والشكران** . هذا بابٌ يظنّهُ الغبيُّ مباح الولوج لمن أراد من جميع العباد وان لا مفتاح لهُ غير الموالسة والمدالسة والكذب وأنت تعلم انهُ بابٌ مستغلَق الاَّ على المجيد الثاقب الذهن الذي لا يبيع الكلام الاَّ بالغالي لان مدح المرء بصفات ليست لهُ هجآء بحت، وذم محض . ولست تجهل ان أفراد الناس الجامعين لاكثر مزيّةٍ محمودة ومنفعة مشهورة قد لا يرى منهم الشاعر في عصره الاَّ الرجلَ الواحد . فالشاعر المتوقد الذهن المبدع، يتفنن بالمدح دون ان ينسب لممدوحهِ ما ليس فيه ، وبهذا يُعرَف فضل الشاعر السابق على السكّيت والمتطفّل وأماجمع كل

الشاعر الى الوصف شيئاً من التشبيه كان ذلك اكثر صعوبة ولا يجيد فيه الاّ كبار الشعرآء .

الباب الخامس : **الغزل والنسيب** . هذا الباب أعزّ مما تقدمه مطلباً ، وأصعب مرتقىً ، لان موضوعه أوسع من الابواب السابقة وذلك لما فيه من وصف المحبوبة وتصوير ملامحها وحركاتها والاعراب عن وجدانات النفوس وما يتصل بذلك من شكوى السهاد وألم البعاد وحكايات الاجتماع واللقآء وذم الوشاة والرقبآء والغَيرة حتى من النسيم والحَيرة حتى في التسليم الى غير ذلك مما لا يفي بتعبيره الاّ لسان شاعر ضيغم ذي قلب مستهام متيَّم .

الباب السادس : **التفجع والرثاء والتأبين والعزآء** . هذا الباب لا يحسن الدخول فيه والاجادة بهِ الاّ المقدّمون من الشعرآء والكتاب وهو وان كان غير واسع الموضوع ، الا انه كثير الفروع ، ضيّق الصِراط ، شديد الوعورة ، اذ المقصود منه ، وصف الميت بأوصافه الحقيقية أو ما يقرب منها ، ودعم ذلك بالحجج البيّنة ، لا الكذب على الميت والناس

البابين السابقين لانهُ وان كان الشاعر غير مضطر فيه الى تعب فكر وكدّ قريحة ، فهو محتاج الى حسن نظر ، وصدق ذوق ، للتعبير عن وداد اكيد ، واخلاص لا يشوبه تصنع ، وعواطف كريمة دفعته الى العتاب فلا بد له من التلطف في القول والتوسل الى تقريع المعاتب أو لومه أو تهديده بكلامٍ مؤثّر غير خشن ولا فظّ والا انقلب هجآءً صريحاً وهو لدى المنتقد أدلّ على اخلاق المؤلف من البابين السابقين.

الباب الرابع : الزهريات . هذا الباب أوسع موضوعاً من الابواب المتقدمة لما فيهِ من تعدّد المرئيات واختلاف المنظورات فالتفنن في وصفها وحسن تصويرها مما يستدعي صدق نظر ورويَّةٍ ، واطّلاع وافر على كثير من العلوم أو ذكاء ينوب عن سعة الاطلاع ، فان لم يكن بهِ سوى وصف الاشجار والازهار والمياه والرياض ، كان قسماً من تصوير الرياض المعروف عند المصورين باسم « پايزاج » — وهي كلمة فرنسوية يراد منها تصوير النبات وما يتبعه من الاطلال والرسوم والمواشي والاطيار — وان أضاف

الباب الثاني : **الحكم** . وهو من أشرف موضوعات النظم لكنها من أسهل ابوابه وأقرب رتبهِ منالاً اذ هي حقائق أدبية وزواجر ونواهٍ يفرغها الشاعر في قالب النظم فلا يحتاج لاجلها الى كدِّ قريحةٍ أو إعمال فكرة في استخراجها أو تأليفها أو ابتكارها ، لان الشاعر لا يصل الى النظم في هذا الباب حتى تكون قد امتلأَت ذاكرته من امثال الامم واقوال الحكماء ، والامثال والحكم ، هي هيَ عند جميع الامم ومنذ أقدم العصور ، فلا تجد حكمةً أو مثلاً عند امةٍ ، الا وتجدهُ بعينه أو بمعناه عند غيرها ، وهيهات ان تقوى على استنباط حكمةٍ غير مسبوقة ، فيتحصل من ذلك ان الشاعر مهما أجهد قريحته لابتكار حكمةٍ ، فلا ينظم الاَّ كلاماً سمع معناه وسبق الى محفوظه ، ثم نسي انه طبع في ذاكرته ، فبقي فيها معناه كما يبقى اثر الحروف على الورق وقد زال لون الحبر ، بيدَ ان الحِكَم لشرف غايتها تفعل في النفوس الفعل الذي يتوخاه الشاعر .

الباب الثالث : **العتاب** . هذا الباب أصعب منالاً من

تبويبهِ وانها العقبة الكؤود ، وقد رأيتُ ان ابدأ من أسهلها الى أصعبها ، فقسمتها الى اثني عشر باباً ، ورتبتها الترتيب الآتي.
الباب الاول الحماسة ، الباب الثاني الحِكَم ، الباب الثالث العتاب ، الباب الرابع الزهريات ، الباب الخامس الغزل ، الباب السادس الرثآء ، الباب السابع المدح والشكران ، الباب الثامن الهجو ، الباب التاسع الوصف ، الباب العاشر القَصَص ، الباب الحادي عشر التمثيل ، الباب الثاني عشر التخييل ، وهذا اوان الشروع في تفصيل رتبها أو طبقاتها.

الباب الاول : **الحماسة** . وأراهُ من أسهل أبواب الشعر لضيق موضوعه واقتسارهِ الشاعر على ان لا يخرج فيه عن حدمعلوم من ذكر الفر والكر ، والرماح والسيوف ، والمقارعة والطعان ، فاذا توسع فيه الى الفخر الذي هو شيءٌ من الحماسة ، كان وصف الدفاع عن الحريم والولد والجار والعشيرة ، وكلها احوال لو نظم في وصفها عشرون شاعراً مُجيداً ، لمَا وقعوا من الكلام الاَّ على متشابهٍ متقارب، ولتلاقوا بالسبك والمعاني تلاقي الصديق والصاحب.

والانشآء ، فاقتحمتُ هذا السدّ مستنجداً بحلم أهل العلم ، فان كنتُ قد أصبتُ في شيءٍ واخطأتُ في شيءٍ ، فليغتفر لهذا بذاك ، وان كنتُ قد أحسنتُ في الوضعين ، — وما أبعد ذلك — فلا تنكرنَّهُ فمع الخواطئ سهم صائب ، وان كنتُ قد خبطتُ في الفنين — وما أحسبُني الاّ كذلك — فانظر الى صنيعي بعين الحليم ، لا المتعنّت ولا ذي الطبع اللئيم ، وقل كلمةً طيّبةً يغفرِ لك اللهُ انَّ اللهَ يغفرُ الذنوبَ جميعاً انهُ هو الغفورُ الرحيم .

الفصل الرابع

في

رتب الشعر او طبقاته

اعلم انهُ قد يتبادر الى ذهن القارئ ان ترتيب ابواب وطبقات الشعر هو امرٌ ذوقيٌّ وقد علمت مما مر بك في الفصل السابق ان موضوعات الشعر لها المقام الاول في

الكتاب بتةً واقولُ لليراعة ليس هذا بعشك فادرجي . .

ثم بدا لي رأيٌ ولست أدري ايقومُ به عند الافاضل عذري ام يُسَجَّلُ بهِ لومي ويُوقَع بذكري فان كان الاول، فيابشراي ويااَلجذَل وان كان الثاني ، فواضيعة العمر وواخيبةَ الامل .

أما الرأيُ فهو ان اطابق بين موضوع الكتاب وما يتفرّع عنهُ ، ولما كان هذا الفرع — اي تبويب الشعر بحسب صعوبة تأليفه — هو اهمُّ فرع مِن فروع تأريخ العلوم الادبية ولا يمكن اتمام الكتاب وحصول الفائدة المقصودة منهُ بدونهِ تذكرتُ قول الشاعر

ولم ارَ في عيوبِ الناسِ شيئاً كنقصِ القادرينَ على التمامِ

واقدمتُ على هذا العمل .

وقد علمتَ زادك الله علماً انهُ لم يوضع بالعربية كتاب لقواعد علم الانتقاد ، بل ولا في غيرها من اللغات الافرنجية، الاَّ ان يكون شيءٌ لم يصل خبره الينا وكذلك قد علمتَ مما تقدم ، انهُ لم يؤلَّف بالعربية كتاب في تبويب رتب الشعر

والنسيب ، والهجآء والاضياف ، والمديح والصفات ، والسير والنعاس ، والملح ، ومذمة النسآء وهو اقبح ختام ولم ينظر في ترتيبهِ الى سمو الموضوعات أو صعوبة نظمها او سهولتها او المشقة التي يتحملها المؤلف في الوصف وتصوير الحقائق او غيرها مما هو من فروع تاريخ العلوم الادبية — وهو غرض الناقد والضالَّة التي ينشدها كل اديب — وانما غاية واضع ديوان الحماسة لم تتعدَّ جمعَ ابياتٍ رشيقة وقصائد انيقة من كلام العرب وبعض المولّدين وفعل البحتري مثله .

ولست اخفي على القارئ اللبيب ما اعتراني من اليأس والقنوط لدى وصولي الى هذا الموقف المقفر الخالي ووقوفي عند هذا الطلل الموحش البالي وقد قدَّمتُ في مقدمة الكتاب ذكر ماعانيتهُ بعد الاقدام على تأليفهِ وما نصرني بهِ أئمة الفضل من التحمس والتشجيع ، وما لاقيتهُ من النصب ، الاَّ ان ذلك كله لم يكن شيئاً مذكوراً بالنسبة الى مالاقيتهُ في هذا الموضع ، وقد خذلتني قوتي ، واهملني صبري وعدتُ على نفسي باللوم لاقتحامها ما هو فوق طورها وكدتُ اترك

أو انه انتحله لنفسه أو نسبه لهُ غيره لغرضٍ ما وهل يرتفع عن سائر انشآئه أو نظمه أو ينحطُّ عنهما .

والقسم الثانى موازنة المنقود مع غيرهِ من شعر أو نثر أو تصوير أو غير ذلك مما هو من نوعهِ لمتفننٍ آخر أو اكثر ليتضح الفرق للناقد .

على ان الموازنة لا يجب ان تكون مقصورةً على نظم شاعرٍ وشاعرٍ أو كاتبٍ وكاتب بل على الناقد ان يجعل الموازنة بين أبواب الشعر أي موضوعاته في المقام الاول من نقدهِ وهي العقبة الكؤود التي تعترض الناقد العربي ، اذ لم يؤلَّف عندنا الى اليوم تأريخ مطرد للعلوم الادبية ينفسح فيه الكلام بهذا الموضوع وهو أهم ما يرمي اليه التاريخ المذكور.

ومع ما تعلم من عنايتهم بالشعر ، فان العرب لم يأخذوا على انفسهم ضبط أبوابهِ في مؤلَّفٍ مخصوص وترتيبها اتّباعاً لسمو الموضوعات وصعوبة تصويرها ونظمها ؛ بل جل ما وصل الينا من ذلك ، هو ديوان الحماسة لابي تمَّام وقد قصَرَهُ على عشرة ابواب كما تعلم وهي : الحماسة ، والمراثي ، والادب ،

أبواب الشعر بين المديح والرثآء والنسيب والهجآء والعتاب والزهريات الى غير ذلك من أبوابه ولا بين الكلام المسجَّع والشعر ولا بين أحدهما والترسل ولا بين الخطب ورسائل الملوك ولا بين هذه والرسائل الاخوانية الى غير ذلك مما يطول شرحه واستقصاؤُه ، بل عليه ان يرتب ذلك مع ما كان من نوعهِ فيوازن بين المدح المنقود وما لديه من مدائح الشعرآء المبرّزين ومَن دونهم وبين الترسُّل والترسُّل فيما يناسب الموضوع الموازَن . فان وازن بين كلام ابن خلدون في « الخطط الدينية » وبين كلام شهاب الدين الحلبي « في التوشيح » لم تصح الموازنة ، لان موضوع الكلام مختلف ، ولكل موضوع من الكلام الفاظٌ هي بهِ أليق وتعبيرٌ هو به اجدر كما تقدم قبل هذا ، بل موازنة كلام شهاب الدين الحلبي بكلام صاحب المثل السائر اصح واطبق .

ومما تقدم بسطهُ تعلم ان الموازنة تنقسم الى قسمين لا بدَّ للناقد من النظر فيهما فالقسم الاول موازنة المنقود مع سواه من انشآء المؤلف نفسه ليُعلم هل الانشآء انشآؤُه

على ان تفصيل ما عانوه من الجِدّ والمثابرة على التفتيش والمواظبة على التنقيب والادمان للبحث والجَلَد على الاستقرآء للوصول الى هذه الامنية مما لا يتسع لهُ هذا الكتاب .

ولكن لا بدّ من الاشارة الى ذلك لاتمام الفائدة . فاعلم أرشدني الله وإياك انه كما ان العالم من علمآء النبات يصف النباتات أولاً ثم يقسمها أقساماً وفصائل فيصف الفطر مع الفطر وأنواع الاعشاب مع الاعشاب والحشائش مع الحشائش والاشجار مع الاشجار فتصح موازنته ويسهل عليه التميز بين نوع وآخر ، فكذلك كان صنيع علمآء النقد عند الفرنجة ، وانما لا أنكر ان ذلك كان أسهل عليهم مما هو عندنا بكثير .

وقد وقفتَ في القسم الاول من هذا الكتاب على ملخَّص تاريخ علم النقد عندهم وما مهَّدوهُ لهُ من تأريخ علوم الادب وترتيب أبواب كل طائفةٍ منها وذلك قبل ان يصل علم النقد الى ما وصل اليه اليوم بزمن طويل .

واعلم انه يتحتَّم على الناقد عند الموازنة ان لا يخلط في

هي اليوم قواعد هذين العلمين ، وقد ظلَّتْ أعصراً متطاولةً خافيةً على العلمآء وذلك لاغفالهم الموازنة المذكورة .

على ان العرب سبقوا الافرنج — عدا اليونان والرومان — في هذا الباب ، فان الحسَن الآمدي قد صنف كتاب الموازنة بين الطائيين منذ نحو الف سنة(*) ثم ان ابن الاثير الجزري منذ سبعمائة سنة سلك هذا السبيل في بعض فصول كتابه **المثل السائر** المشهور خصوصاً عند ما رام ان يظهر تفوّقَهُ على أبي اسحق الصابيء ولهذا تُعَدُّ موازنة الآمدي أفضل مما صنعه ابن الاثير ، لان الاول وازن بين شاعرين كان قد مرّ على موت الاخير منهما نحو قرنٍ من زمانهِ ومع ذلك فليست الموازنَة المذكورة مستوفاة شروط موازنة الناقدين من علمآء الفرنجة لعهدنا هذا ، فانهم يدققون في الفحص والاستكشاف ، ونبش خفيات المعاني وغوامض العبارات ، وروابط الكلام ، والبحث عن أسرار ذلك جميعه ، الى غايةٍ قُصوى لا تخطر ببال غير الناقدين .

(*) توفي الآمدي سنة ٣٧١ للهجرة

واعلم ان هذا التبويب ليس بالمطلب الهين ولا بالمنال السهل ، وقد ظل دهراً موضع حَيْرة النقادين ولغزاً لا يرون الى حلّهِ سبيلا

والذي عليه اليوم إجماع علماء النقد ان الموازنة(*) هي الدليل الناطق ، والفاروق الصادق ، الذي يميّز بين الفاضل والمفضول ، ويرتب بابات القرائح والعقول

وقد اقتدوا في ذلك بعلماء النبات وعلماء الحيوان . وهؤلاء لم يتوصلوا الى معرفة الشكل من النبات والنوع والجنس والرتبة والصف والسرد والمملكة الا بعد نظم أنواع النبات وتنسيقها وموازنتها أي مقابلتها مع غيرها من أنواع النبات ولم يتمكنوا من معرفة رتب الحيوان السافلة والعالية وتمييز الانواع تمييزاً صادقاً الاّ بعد صف ذوات الحافر مع أنواعها وذوات الثدى وذوات الفقَر وذوات الاجنحة كلّ طائفةٍ مع أشكالها ثم أخذوا السكين وشرَّحوا النبات والحيوان وردّوا الفروع الى الاصول فعرفوا من ذلك الحقائق التي

(*) الموازنة في اللغة هي المعادلة والمقابلة

والا فلا يسلم حكمهُ من الخطاء كما وقع الكثيرين من أكابر العلماء وذلك لانهم لم يتخذوا لهم هادياً في تلك البوادي غير الاهوآء أو هي اذواقهم أو التقليد .

والمراد **بالتبويب** هو تعيين بابة الكتاب المنقود أو مؤلفهِ وتحديد مرتبتهِ بين أمثالهِ بالحجج العادلة والبراهين الساطعة المقبولة ، لانك بعد ان تأتي على شرح المنقود . وتستوفي شروط الشرح التي ذكرتها لك من تحديد العلاقة بين الكتاب المنقود ، وتاريخ العلوم الادبية بالعموم ، ثم تحديد علاقته بما كان من نوعه وبالمكان والزمان اللذين ظهر فيهما ، ثم تحديد العلاقة الكائنة بين المؤلف وتأليفه ، يتحتم عليك ان تبيّن في أيّ رتبة رتّبتَ المنقود ، وفي أيّ بابة عددته قبل الحكم ، ليرى ذوو البصائر هل جرتَ في الحكم أو انت من المقسطين .

وكما ان الحكم وتعيين القصاص لايجوز في العدل قبل تحديد الذنب وتبويب الجرم ، فبمثله الحكم في النقد ، لايجوز قبل تحديد مرتبة المنقود أيّ بابته .

الدعة أو الطيش أو السكون أو لحدّة التصور أو البلادة إلى غير ذلك من آثار الاحداث النفسانية وانها لم تسمُ أو تنحط عن سائر كتاباتهِ الا للسبب المكتشَف ومتى تمكنت هذه الملكة من الناقد واطّلع على شيء من انشآء المؤلف ثم عرض لهُ من قلمهِ ما يسفل أو يرتفع عما كان أطلع عليهِ اسرع في كشف السرّ وبيان السبب . وهذه الملكة وان كانت عزيزة المنال الا انها كسائر الملكات تحصل للرجل بادمان المطالعة وتحصيل العلوم اللازمة لها خصوصاً اذا أُوتي ذوقاً سليماً وقلباً عليماً وإرادةً صادقة .

الفصل الثالث

في

التبويب

وهو الدرجة الثانية من سلم النقد

اعلم انه لا بدَّ للناقد من قاعدةٍ يسير بموجبها في تحديد طبقات الناظمين والمنشئين وغيرهم من أهل الصناعات الجميلة

يخرج الى الناس وأشد احتمالاً لما يكون من عبث الصبيان (كذا) فاذا لبس ثوبهُ اربدَّ لونهُ واحمرَّت عيناهُ وكان حازماً حليماً شجاعاً بصيراً بأمور الحرب والسياسة داهية وقد أجمع الرواة على شدة بخله وحكمتهِ وفضلهِ وعدلهِ » . قال « وكان عبد الرحمن الاموي صاحب الاندلس خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم أعور له ضفيرتان وكان فصيحاً لسناً شاعراً حليماً عالماً حازماً سريع النهضة في طلب الخارجين عليهِ لا يخلد الى راحةٍ ولا يسكن الى دعةٍ ولا يكل الامور الى غيرهِ ولا يتفرد في الامور برأيهِ شجاعاً سخياً شديد الحذر وكان يقاس بالمنصور في حزمهِ وشدة ضبطهِ المملكة »

فاذا أضاف الناقد الى علم الفراسة التي لا بدَّ لهُ منها ، شيئاً من الوقوف على المكان والزمان والاحوال التي كتب فيها الكاتب ذلك الكتاب أو الرسالة أو القصيدة لم يبطئ ان تنجلي لهُ اسرارها فيعلم ان كلمة كذا أو جملة كذا لم تسقط من قلم المنشئ الا لتغلُّب الهم أو الحزن عليهِ أو الفرح الذي استخفهُ أو لخمار الخمر أو لغير ذلك من أسباب الخوف أو

طويل الشعر طويل الظهر قصير الساق والفخذ خافض الصوت لم يُرَ مازحاً أو ضاحكاً الا في وقتهِ ولا يكاد يقطّب في شيء من أحوالهِ واذا غضب لم يستفزَّهُ الغضب تأتيهِ الفتوحات العظام فلا يظهر عليه أثر السرور وتنزل به الحوادث الفادحة فلا يُرَى مكتئباً »

وهذا الوصف البديع وان كان ناقصاً لانهُ لم يذكر هيئة وجههِ هل كان مستديراً أو مخروطاً ولا شكل أنفهِ ولا فمهِ بيد انهُ وصفٌ يمكن تصوير الموصوف في مخيّلة الناقد . ومثل ذلك ماذكرهُ عن أبي حنيفة النعمان قال « كان حسن الوجه حسن المجلس شديد الكرم حسن المؤاساة لاخوانهِ وكان ربعةً من الرجال وقيل كان طُوالاً تعلوهُ سُمرة أحسنهم منطقاً واحلاهم نغمة » ووصف غير هذين العلمين أيضاً بيد ان جل التراجم عُطْل من ذلك .

وقل مثل ذلك في تواريخهم الا ما رُويَ عن ملامح بعض الخلفاء قال ابن الاثير ما محصلهُ « كان المنصور أسمر نحيفاً خفيف العارضين وكان من أفصح الناس وأحسنهم خُلقاً مالم

ابن حاتم بن الحسن بن جعفر بَن ابراهيم بن الحسن اللخمي المقدسي الاصل الاسكندراني المولد والدار المالكي المذهب»

وليس ذكر الاسماء الكثيرة أو النسب محل المؤاخذة في هذا الموضع، لكن ذكر الاسماء والكنى، معاً وكان يُستغنى بذكر الاشهر من ذلك، تخفيفاً وإراحةً لذهن القارئ

ولو قلّبت كتاب الاغاني على ضخامتهِ لما وجدت ذكراً للملامح والسحنات أو تفصيلاً لذلك الا لبعض أفرادٍ كالحطيئة الشاعر قال «كان دميم الخلقة هجّاءً جشعاً سؤولاً مُلحِفاً دني النفس قبيح المنظر رَثّ الهيئة» وهذا اكثر ما فيهِ وصف الاخلاق لا وصف السحنة. ولو قلّبت ديوان الحماسة ويتيمة الدهر وقلائد العقيان ومطمح الانفس ودمية القصر والوفيات ونفح الطيب وغير ذلك من كتب التراجم والتواريخ لما وجدت وصفاً صحيحاً وافياً بهذا الغرض غير وصف ابن خلكان لابي مسلم الخراساني فانهُ يقول «وصف المدائني أبا مسلم فقال كان قصيراً اسمر جميلاً حلواً نقيّ البَشَرة أحور العين عريض الجبهة حسن اللحية وافرها

من الغرب الى الشرق وبالعكس . ولهذا السبب والله أعلم قد ندَّ عنا اكثر أحوالهم وسني مواليدهم ووفياتهم بل ذهبت عنا أسماء كثيرين من اعاظم ادبائهم وشعرائهم ممن أكلت مؤلفاتهم نيران الحروب . هذا فضلاً عن اهمال أكثر مؤرخي العرب ومترجمي أعلامهم ، ذكر الملامح وتفصيل السحنات التي يحتاج الى معرفتها الناقد ، فان المتنبي مثلاً مجهول الملامح عندنا فلا نعلم أقصيرٌ هو أم طويل ، أمهزول أم سمين ، أبيض أم أسمر ، كبير الانف أم صغيرهُ ، أقناهُ أم أخنسهُ ، كبير العينين أم صغيرهما ، غائرهما أم بارزهما ، مخروط الوجه أم مستديرهُ ، الى غير ذلك من وصف مزاجهِ وأخلاقهِ وغرائزهِ كالبخل والكرم واللؤم والحلم وغيرها . ولكنهم كانوا حرَّاصاً على ذكر الانساب والكنى والتعريف ، فقد تروم الوقوف على ترجمة الحافظ أبي حسن القدسي مثلاً وتفتش عنها كثيراً فلا تهتدي اليها الا بمعجزة وذلك لكثرة الكنى قال ابن خلكان « أبو الحسن علي بن الانجب أبي المكارم المفضل بن أبي الحسن علي بن أبي الغيث مفرج

كشفت لي عن أسرارها وأظفرتني بكنوز جواهرها اذ لم يظفر غيري باحجارها » الى ان يقول « فمن وقف على ما ذكرتهُ علم اني لم آتِ شيئاً فريّا وان الله قد جعل تحت خواطري من بنات الافكار سريّا » الى غير ذلك مما حشا بهِ كتابهُ المذكور حتى كدَّر صفا احسانهِ وشوَّه محاسنهُ. وليس هذا موضع نقد الكتاب ، وانما ذكرت لك هذه الامثلة تعزيزاً لمعرفة أسرار العلاقة بين الكاتب وانشائهِ ، وقد اختصرت ما أمكن خوف الملل ولعلي أعود اليهِ في فصل آخر . والبحث في هذا المعنى يستدعي زيادةً في الافاضة والشرح مما أرجو ان يفيهُ حقَّهُ من يكتب فيهِ بعدي .

على ان هذا الفرع من فروع علم النقد عند الافرنج أسهل منالاً وأوفر ثمرةً مما هو عندنا وذلك لجِدَّة حضارتهم وآداب لغاتهم وربما كان لقلة عدد أدباء كل أمة من أممهم وانحصارهم في بلاد معلومة من كل مملكة ، بالنسبة الى كثرة عدد أدباء العرب وتنقلهم من مكانٍ الى آخر ومن مملكةٍ الى مملكة على اتساع الممالك التي دوَّخوها بل تنقُّلهم

ولا وأبي ما ساعدانِ كساعدٍ
ولا وأبي ما سيّدانِ كسيّدِ

واذا علمت ان ابن الاثير الجزري صاحب كتاب المثل السائر كان وزير الملك الافضل ابن السلطان صلاح الدين الايوبي ، وانهُ كان ذا نفس الى المناصب طموح وطبع الى الغضب جموح واطماعٍ وكبرياء وقساوةٍ وازدراء أساء العشرة مع أهل الشام حتى كادوا يذوقونهُ كأس الحِمام ، وتعدد منهُ في مصر قبيح الفعل فهرب منها مستتراً خوف القتل ، وخرج من حلب مغاضباً ومن اربِل وسنجار معاتَباً اذا علمت ذلك كلهُ ، لم تعجب من خُيَلاء الرجل واعجابهِ بنفسهِ وقولهِ في مقدمة المثل السائر « وهداني الله لابتداع اشياء لم تكن من قبلي مبتدَعَه ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالها تابعةً وانما هي متَّبَعة » . ولا من قولهِ في موضع آخر « وهو مما يدلُّ على حذاقة الكاتب وفطانتهِ وكثيراً ما تجدهُ في مكاتباتي التي أنشأتها » الخ . ولا من قولهِ بعد ذلك « ولقد مارستُ الكتابة ممارسةً

فرُميتُ منك بغير ما أمّلتُهُ
والمرءُ يشرَقُ بالزلال الباردِ
فصبرتُ كالولد التقيّ لبرّهِ
أغضى علي ألمٍ لضرب الوالدِ
ولم تعجب من قولهِ وقد كتب بها اليهِ من الاسر
فمثلك من يُدعى لكل عظيمةٍ
ومثليَ من يُفدى بكل مُسوَّدِ
تشبّثْ بها اكرومةً قبل فوتها
وقم في خلاصي صادق العزم واُقعُدِ
فان تفتدوني تفتدوا شرفَ العلا
واسرعَ عوّادٍ اليهمْ معوَّدِ
يدافعُ عن اعراضكم بلسانهِ
ويضربُ عنكم بالحسامِ المهنَّدِ
متى تُخلِفُ الايامُ مثلي لكم فتىً
طويلَ نجادِ السيفِ رحْبَ المقلّدِ

أراني اُبن عشرين او دونها   وقد طبّق الارضَ شعري مسيرا
إذا قلتُ قافيةً لم تزل   تجوبُ السهولَ وتطوي الوعورا
ولو كانَ يفخرُ ميتٌ بحيٍّ   لكانَ ابو هاشمٍ بي فخورا
ولو كنتُ اخطبُ ما استحقُّ   لما كنتُ اخطبُ الاّ السريرا

ولا من قوله في قصيدة اخرى

انا بين احشآء الليالي نارُ   هي لي دخانٌ والنجومُ شرارُ
فمتى جلا فجرُ القضآء ظلامهَا   صلِيَتْ بيَ الاقطارُ والامصارُ
بي تحلمُ الدنيا وبالخيرِ الذي   لي منهُ بينَ ضلوعها اسرارُ
فبكلّ مملكةٍ عليَّ تلهفٌ   وبكلِّ معركةٍ عليَّ أُوارُ

واذا علمت ان ابا فراس الحمداني هو الامير المجيد والشجاع الوافر الادب والجود والنبل صاحب الكلام الرشيق البليغ الرصين العالي وانه ابن عم سيف الدولة ملك حلب لم تعجب من قوله يعاتبه

قد كنتَ عُدّتيَ التي أسطو بها
ويدي اذا اشتدَّ الزمانُ وساعدي

الناقد ، تظهر العلاقة بين الكاتب وإنشآئه للمطالع ،وكلما كانت اكثر خفآءً ، واشد غموضاً ، ضعفت احكام الناقد ، الاّ من أُوتوا الذكآء النادر والعلم الوافر وقليلٌ ما هم .

وانت تعلم ان الراغب في معرفة اخلاق الفرد من البشر ، او في تصويرهِ يتقصَّى في البحث عن ملامحه وسائر احواله الظاهرة من الغضب او الحلم ، السهر او كثرة النوم ، الاستقامة او المكر ، الى غير ذلك مما يدلّ على اخلاقهِ اتم دلالة . فبمثلهِ ناقد اقوالهِ ، اذ هي بنات افكاره ، وترجمان اسرارهِ ،يجب عليه ان يبحث ويدقق ، فمرآة المرء انشآؤهُ .

وكما ان الانشآء يدلُّ على المنشئ ، فكذلك الوقوف على احوال المنشئ تساعد الناقد على كشف اسرار الانشآء . فانك اذا علمت ان الشاعر المأموني مثلاً ، هو من اولاد المأمون الخليفة العباسي ، وانه صاحب تلك النفس الشريفة والنسب الرفيع ، وانه كان يطمح ببصرهِ الى الخلافة ، ويمني نفسه قصد بغداد ، في جيوش تنضم اليهِ من خُراسان لفتحها ، لم تعجب من قوله

واعلم ان الوقوف على هذه الاسباب يقوم بالبحث عن احوال الكاتب فيقتدي الناقد بالطبيب أو الجرَّاح الذي لا يكون نطاسيًّا، ولا يكون حكمهُ على العلَّة ومحلها في الجسم مصيباً، حتى يحسن معرفة تشريح الجسم الانساني، ووظيفة كل عضوٍ من اعضائه . اذن قاعدة معرفة ذلك هي البحث.

وبحث الناقد، يجب ان يكون عن سنّ المؤلف لعهد تأليفه المنقود، وحالة دنياهُ من فرحٍ أو حزن وفقر أو غنى، وعن صحته، هل كان سليماً أو سقيماً، ضعيفاً أو قويًّا، عصبيًّا أو دمويًّا، وعن أصلهِ هل كان كريماً أو لئيماً، أو من اواسط الناس، وهل تلقَّى في مدرسة أو هو ابن اجتهادهِ، وعن مسقط رأسه، وهل المدينة التي نشأ فيها، من المدن الشمالية او الجنوبية، شديدة البرد والحرّ اومعتدلتهما، وهل كان متزوجاً او عزَباً، وهل كان له اولاد او لا، وهل عشق او حزن حزناً مفرطاً على فقد عزيز او مال، وهل كان ممازحاً او وقوراً، وهل كان يعاقر الخمرة او يقامر، وهل كان شرهاً او عفيفاً.

وبالجملة فعلى قدر البحث والامعان في التدقيق، وقوة بصيرة

مما لا يُعوَّلُ عليه او انهُ يدلُّ على عواطف الكاتب وتأثير الاحداث النفسانية فيه ، حال تأليفهِ ذلك المنقود فقط . ولكن للوصول الى الفائدة المطلوبة لا بدَّ من النظر والتدقيق في اكثر كتابات المؤلف ، وسيأتي معنا بعد هذا مزيد بيان في هذا الشأن وعلى الله قصد السبيل .

الفصل الثاني
في
تعريف العلاقة بين الكاتب وانشائه

اعلم انه لا يتيسر الكشف لمعرفة العلاقة بين الكاتب وانشائه ، الاَّ بالوقوف على الاسباب والمؤثرات التي دعت الكاتب ان يكتب الرسالة أو الكتاب أو القصيدة المنقودة على تلك الصورة ، فيما ان سواهُ يكتبها على وجه آخر . وهذا كله يصدق على الكتابات الادبية ، أو ما في معناها ، وأما الكتب العلمية فلا تدخل في هذا البحث.

الزهد ولمَا تمثَّل لديك منه الا الفيلسوف . اما ما نُقِل لنا من زهديات ابي نواس — ان صح انها لهُ — فتكاد تكون كالشعرة البيضآء في لمَّة اليافع فانك لو قلَّبتَ اشعاره الكثيرة مع انهُ لم يصل الينا منها الاَّ القليل ، لما شممت منها غير رائحة الخمر ، حتى ليحسبَ القارئ انهُ يتنقَّلُ من بيت غار ، الى حانة خمَّار ، ومن منزل فُحشٍ وسُخْف ، الى موقف شتمٍ وقذف .

واما رسالة ابن سينا فمن اطَّلع على ما كتبه في الطب ، والفلسفة ، والمنطق ، والطبيعيات ، والكيميآء ، وغير ذلك ، علم ان الرسالة ليست من وحي جَنانه ، بل من طرف لسانه ، ومعلوم ان كل منشئٍ يستطيع ان يكتب ما يُطلب منه دون ان يكون معتقداً بما كتب ، او واقفاً عند حدود ونواهي كتابته ، خصوصاً اذا كان ذا عقلٍ سامٍ كعقل ابن سينا ، وعلمٍ واسعٍ كعلمهِ ، وقريحةٍ سيَّالةٍ كقريحتهِ .

واعلم ان النقد لا يكشف أخلاق المنشئ او الناظم من رسالةٍ كتبها ، او قصيدةٍ نظمها ، او حكمةٍ علَّقها ، فكل ذلك

وبهجتها بهجة ، فتعجب منها ومنهم تعجبهم منه وقد ودَّعها ، وكان معها ، كأنه ليس معها . وليعلم ، ان أفضل الحركات الصلاة ، وأمثل السكنات الصيام ، وأنفع البرّ الصدقة ، وأذكى السرّ الاحتمال ، وأبطل السعي المراءاة ، وان تخلص النفس من الدَّرَن ما التفتت الى قيلٍ وقال ، ومنافسة وجدال ، وانفعلت بحالٍ من الاحوال ، وخير العمل ما صدر عن خالص نية ، وخير النيَّة ما ينفرج عن جناب علم ، والحكمة أم الفضائل ، الى ان يقول وأما المشروب فيُهجَرُ شربُهُ تلهّياً ، لا تداوياً وتشفّياً .

فاذا عمد الناقد الى كشف أخلاق هؤلاء القائلين فنظر الى أحد القولَين من قولَيهم ثم عرض لهُ القول الآخر لم يشكّ ان القائل الاول هو غير القائل الثاني لما بين القولين من التباين في الاميال . بيدَ ان هذا جميعه وما يكون من مثله هو من الشاذ الذي لن يكون برهاناً لهدم قواعد النقد ، بل أحر بهِ ان يكون حجةً لها اذ لكل قاعدة شذوذ كما هو معلوم . فانَّكَ لو تتبَّعت سائر شعر المعرّي لما وجدت بهِ غير

وهي كما تراها، صفات متعاكسة شديدة التباين . ويقرب منه ما روي عن الرئيس ابن سينا ، قيل انهُ كان يجتمع كل ليلة في دارهِ طلبة العلم فيقرئهم فاذا فرغوا أحضر المغنّين وهيَّأَ مجلس الشراب بآلاتهِ فيشتغلُ بهِ . وانه مع ما كان عليهِ من سعة العلم وقوة العقل وسموّ المدارك وبعد الفهم ، كان خاضعاً لقواهُ الشهوانية، حتى قيل انها كانت سبب هلاكه .

ومما يحسن ايراده بهذا المقام وصيَّتهُ لأَبي سعيد الصوفيّ وقد اقترحها عليه أحد أصحابه ، فكتب .

ليكن الله تعالى أوَّل فكر له وآخرهُ وباطن كلّ اعتبارٍ وظاهره ، ولتكن عين نفسهِ مكحولةً بالنظر اليه ، وقدمها موقوفة على المثول بين يديه . . . فاذا صارت هذه الحال لهُ مَلَكَةً ، وانطبع فيها نقش الملكوت ، وتجلّى لهُ قدس اللاهوت ، فألِفَ الانسَ الاعلى ، وذاقَ اللذَّةَ القُصوى ، وأخذ عن نفسهِ مَن هو بها أولى ، وفاضت عليه السكينة ، وحُقَّتْ لهُ الطمأنينة . . . وتذكر نفسَهُ وهي بهِ لَهِجَة ،

يقول

ألاَ في سبيل المجدِ ما أنا فاعلُ

عَفافٌ واقدامٌ وحزمٌ ونائلُ

كأَني اذا طلتُ الزمانَ وأهلَهُ

رَجَعتُ وعندي للأَنام طوائلُ

وانّي وان كنتُ الاخيرَ زمانُهُ

لآتٍ بما لم تستطعهُ الأَوائلُ

ومما يندرج بين هذه الشذوذ ، ما يرويه التأريخ عن المعتضد بن عبَّاد من أشهر ملوك الطوائف بالاندلس ، انهُ جمع بين أسمى الصفات وبين أدناها ، فيقال انهُ كان عالي الهمَّة شديد البأس والاقدام ، كثير الجبن والدهآء والجور والاعتساف ، شارك في العلوم والفنون ، وأحبَّ أهل الأَدب ، وكان مولعاً بالخمر منهمكاً بالملاذ ، مع ضبطهِ زمام الاحكام والاقدام على صعاب الامور ، حريصاً على دولته ، يستبيح الدمآء ، كَلِفاً ببنآء القصور ، شاعراً أديباً ، ذا مكرٍ وحيَل .

كأَنَّ ما فاتَ اذا ما مضى
حلمٌ وما كانَ كأَنْ لم يزلْ
بادرْ فقد أصبحتَ في مهلةٍ
بالعملِ الصالحِ قبل الأَجَلْ
وكنْ على علمٍ فانَّ الفتى
يقدمُ يوماً ما على ما عملْ
ولا يكاد يستدلُّ الا بمعجزةٍ ان من يقول
كلُّ ذكرٍ من بعدهِ نسيانُ
وتغيبُ الآثارُ والأَعيانُ
انما هذه الحياةُ عناءٌ
فليخبّركَ عن أذاها العيانُ
ما يحُسُّ الترابُ ثقلاً اذا دِيـ
ـسَ ولا الماءَ يتعبُ الجرَيانُ
نَفَسٌ بعدَ مثـلهِ يتقضَّى
فتمرُّ الدهورُ والأَحيانُ

الشرط الثالث

تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وانشآئه والمصنوع وصانعه

قال الفيلسوف بُوفّونْ مِرءآة المرءِ انشاؤه كما سبق ذكره في غير هذا الموضع ، ولكن قد لا يصدق ذلك دائماً ، فان من يقرأ زهديات أبي العتاهية لا يستطيع ان يصدّق ان الرجل كان من أطمع الناس وأشدهم حرصاً وهو القائل

تعلقّتَ بآمالٍ طوالٍ أيّ آمالِ
واقبلتَ على الدنيا مُلِحًّا أىَّ اقبال
أيا هذا تجهّزْ لِـ فراقِ الاهلِ والمالِ
فلا بدَّ من الموتِ على حالٍ من الحالِ

ولا يكاد الناقد يحكم أو يصدّق ان قائل

اسقني حتى تراني احسبُ الديكَ حمارا

يقول

صدَّ عن الحقِّ اتبّاعُ الهوى
وزيَّنَ الباطلَ طولُ الاملْ

سرّحت طرفك في رواتي الباريسية الحسناء ، وصلاح الدين ، لفقيدي الأَدب ، أديب اسحق ونجيب الحداد ، وفي بعض مقالات الصحف الشهيرة لبعض نوابغ الكتّاب ، ثم تمتّعت بمحاسن انشاء مجلّة الضياء ، وببعض الفصول التي تُنشَر في غيرها من المجلاّت المعتبرة لبعض مشاهير الكتّاب ، رأيت هناكَ اللغةَ بارزةً بمحاسنها القشيبة ، وحضارتها اللطيفة العجيبة ، دون ان تستعين بالركيك أو الاعجميّ من اللفظ .

وحاصل الكلام ، ان للزمان والمكان علاقةً شديدة بالانشاء والنظم وسائر الفنون البديعة ، وعلى الناقد ، ان يدقّق البحث في ذلك ، لاننا انما نكتب ما يمليه علينا العصرُ من حوادثه ، وما تتلوهُ علينا العادات من تأثيراتها ، والازياء من أفعالها في الاخلاق ، فلا بدَّ لنا من تتبع تاريخ عصر الشيء المنقود ، ومكانه ، للوقوف على اخلاق أهلهِ وازيائهم ، وارآئهم ، وعلومهم ، وعوآئدهم ، وعقائدهم ، الى غير ذلك ، من الدقيق الى الجليل ، ليكون النقد سليماً من شائبة الغلط ، والعصمة لله وحده .

العراق وما يجاورها في الجاهلية والاسلام والكلام يطول في ذكر المتقدمين منهم فأمَّا المحدثون : وذكر عدةً منهم ، ثم ذكر جماعة من المولّدين ، الاَّ انه علَّل عن ذلك تعليلاً وان كان جزيل الاعتبار ، بَيدَ انه ليس السبب وحده فيما ذكرهُ ، بل للهوآء المعتدل تأثير في ذلك عظيم كما سيتبيَّن معنا في محله.

واعلم ان لكلّ قطر من الاقطار العربية ، نهج انفرد به وغلب على أهله ، فان طريقة التعبير والمصطلَح عليه من الالفاظ المقبولة في كتابات أهل مصر ، هو غير المصطلح عليه بتمامهِ عند أهل الحجاز ، وطريقة هؤلاء ، هي غير طريقة أهل الشام ، ونسق هؤلاء ، هو غير نسق أهل تونس ، وهلمَّ جرًّا . وأنت تعلم ان كلهم يختار الفصيح ويرغب في البليغ ، وانما نشأ الاختلاف في درجات حسن مناهجهم ، وأساليب تراكيبهم ، من اختلاف أذواقهم ، ولست تجهل ان اللغة تتبع حالة العصر من الخشونة أو الحضارةِ في أساليب التعبير والتعريب ، لا بمعنى انها تفسد أو تستعجم كما جرى لها مع كثير من المعرّبين والمترجمين وأصحاب الجرائد ، بل أنت اذا

يفعل تأثيرهُ في الامزجة ، وبالتالي في الاخلاق ، فيجعلها يابسةً أو قريبةً من الشراسة ، وناهيك ببرد همذان قول ابن خالويه

همَذَانُ مُتلفةُ النفوس ببردِها
والزمهرير وحرُّها مأمونُ
غلب الشتآءُ مصيفهَا وخريفهَا
فكأَنما تموزُها كانونُ

أما اقليم بغداد فهو أصلح منها وأوفر اعتدالاً ، ولهذا تجد من الدماثة في انشآء البغداديين ، ما لا تجدهُ في انشآء العرب الذين نشأوا في أرض فارس وكلما كان اقليم البلاد أقرب الى الاعتدال ، ظهرت على الانشآءِ مسحة الرقة والظرف ، أو كلما وضحت على الكتابة ديباجة اللطف ورواء اللين والدماثة ، كان ذلك دليلاً على ان الكاتب من اقاليم معتدل او اكثر ميلاً الى الحرارة . واثر الهوآء في أخلاق البشر ، مما تنبَّهَ لهُ العلماء في كل زمان قال الثعالبي : لم يزل شعرآء عرب الشام وما يقاربها ، أشعر من شعرآء عرب

آداب المكان ، واطلع على شيءٍ من مثل الذي ذكرته أو أشرتُ اليه ، عدَّ الكاتبَ أو الشاعر المنقود كلامهُ فجوراً ، ساقطاً ، فاحشاً ، خلياً من الفضائل ، ولهذا فعلاقة التأليف بالمكان لها من هذا الوجه عند علماء النقد محلٌّ عليّ

أما أبو اسحق الصابئ ، فهو وان كان لهما معاصراً ، واكبر منهما سناً ، فلم يكن انشاؤه عنيفاً ، ولا يظهر على رسائلهِ شيءٌ من الصلَف البادي على وجوه رسائلهما ، ولا ترنّ في الآذان القعقعةُ التي ترن من الفاظهما ، مع انه كان يستعمل السجع مثلهما ، وفوق ذلك كان يكتب بلسان الخلفآء والملوك وكان انشاؤهُ في غاية اللطف والفصاحة والادب ، وليس السبب في تأدّبهِ برسائله وكتاباتهِ الخصوصية عشرة الخلفآء والوزرآء فقط ، بل هو فيما أرى ، مفعول تأثير المكان ، أي الاقليم كما سيجيء معنا ذكره مفصّلاً . فان تأثير الاقليم كما تنفعل منهُ الاجسام ، تنفعل منه العقول حسبما هو مقرّرٌ ، وأنت تعلم ان اكثر أرض فارس غير معتدلة الهوآء ، وأغلبها شديد اليبوسة في الصيف ، شديد البرد في الشتآء ، وهذا

عيناهُ مرّةً وخرج منهُ ريحٌ لها صوتٌ فخجل وانقطع عن المجلس، فقال الصاحب لاهل مجلسهِ أبلغوهُ عني .

يا ابنَ الحضيريِّ لا تذهبْ على خجلٍ
لضرطةٍ منكَ مثلَ النائي والعودِ
فانها الريحُ لا تستطيع تحبسُها
اذ انتَ لستَ سليمانَ بنِ داودِ

قال الثعالبي وحكي ان مثل هذا الامر وقع للهمذاني فخجل وقال صرير التخت، فقال الصاحب أخشى ان يكون صرير التحت . ومثل هذا الكلام وهذه الاحوال والمخاطبات، لا يليق صدورها من الصاحب، أو في حضرته، وهو وزير خطير قد ملأَ البلاد شهرةً بعلمٍ وفضل، ورجاحة عقل . وفيما حكاه الثعالبي وغيره عن الصاحب والادباء والشعراء الذين ظهروا في بلاد الفرس، ما هو أقبح من هذا، وما لا يُعَدُّ هذا في جنبه شيئاً وهو برهان على ان آداب البلاد كانت تبيح لذلك العهد، ما يُعَدُّ اليوم عند الفرنجة نهاية الخشونة وقلّة الادب . فاذا لم يكن عند الناقد علمٌ بتأريخ

واكثاراً من الفاظ البيع والشرآء ، والسلعة والشركاء ، والسوق والكساد ، والدَّين والغريم ، مما يدل على اتساع التجارة لعهدهما وشيوعها . ثم انك تجد لهما بسطاً في المقدّمات ، ومراعاةً لها في النتائج ، مما يدلُّ على فشو علم المنطق أو أقلّهُ تعلّق الكتَّاب به في ذلك العصر . وأظهرُ ما على انشآئهما ، الخشونة بل الوقاحة ، حتى في مخاطبة الرؤسآء ، ولقد تجدها في تضاعيف تسوّلهما من الاكابر والامرآء . واذا أنعمت النظر انعام منتقدٍ بصير ، وجدتهما يلتذّانِ بالمشاتمة ، ويتباهان بالمهاترة وفحش الكلام ، حتى انهما ليستحسنانِ ذلك في رسائلهما الى الوزرآء ويظهر ان هذه الطريقة كانت غير مرذولة لعهدهم في بلاد فارس والعراق العجمي ، وان الامرآء لم يكونوا يأنفون من استماع الكلام البذيّ في مجالسهم ، بل لم يستنكفوا من التلفظ بهِ والتفكّه بهِ في بعض كتاباتهم ومحاضراتهم ، كما تدلّ على ذلك آثارهم ، وفيما جرى لابن الحضيريّ مع الصاحب بن عبَّاد حجةٌ . حكى الثعالبي ان ابن الحضيريّ كان يحضر مجلس النظر للصاحب بالليالي ، فغلبتهُ

ووجه باستعمال الالفاظ لا يختلف ، ومذهب واحد في العلوم ، والسبب في ذلك ، انهم كانوا أهل عصر واحد ، فكلهم عاشوا في القرن الثالث للهجرة والجاحظ أدرك قسماً من القرن الثاني والاولان من أهل البصرة والثالث يُنسب الى الدينور الاَّ انه نشأ وتادب في بغداد وسكنها ومات بها نظيرهما فمستقرٌّ جميعهم ومجمع شملهم واحد . واذا انتقدت انشآء ابي بكر الخوارزميّ ، وبديع الزمان الهمذاني ، وابي اسحق الصابئ ، وكلهم من اهل القرن الرابع للهجرة ، وجدت فرقاً ظاهراً بين انشآء الاولَين وبين الثالث ، فان طرق التعبير ، وأساليب الكلام ، ونسج الالفاظ ، ووجوه استعمالها ، وتركيب الجُمَل التي تراها في انشآء الخوارزمي ، تكاد تكون هيَ هيَ في انشآء الهمذاني ، وكانت كتابة الرسائل لعهدهما محل إعجاب الملوك والوزرآء والرؤسآء واهل الادب ، — كما هي عند ادبآء الترك لعهدنا هذا — فانك ترى فيما كتباهُ وهما من امرآء الانشآء ، اعتناءً بالترصيع والتسجيع بانواع البديع وميلاً الى القوافي التي تقرع الاذن وتدخلها باذن وبغير اذن

مثالاً من احدى صفحاته « وقيل لعبد الرحمن بن ابي بكر أي الامور أمتع ؟ قال مذاكرة العلماء ، وقال رجاء بن حيوة لعبد الملك بن مروان في أسارى بن الاشعث ان الله قد أعطاك ما تحب من الظفر فاعطِ الله ما يحب من العفو وقال هزيم بن عديّ بن ابي طحمة ليزيد بن عبد الملك بعد ظفره بين يدي المهلب ما رأينا أحداً ظلم ظلمك ولا نصر نصرك ولا عفا عفوك » ويا ليت شعري ما كان أغناه عن هذه العنعنة والاسناد وما الكتاب بكتاب حديث فلا يُستغنى عنهما

أما علاقة التأليف بالزمان والمكان الذي ظهر فيهما فهو من الاهمية بمكان عظيم ، اذ لكلّ زمنٍ طريقةٌ مألوفة من الكتابة ان في تركيب العبارات أو ضروب الفصاحة ومثل هذا الاختلاف ناشئ ايضاً بين قطرٍ وقطر والامثلة من ذلك كثيرة فانك اذا تأملت بكتابة الجاحظ والمبرّد وابن قتيبة بعين الناقد البصير ، وجدتَها كلّها في طبقةٍ واحدة من الفصاحة ، وصورة واحدة من طرق التعبير وتركيب الجُمَل ،

ظهور البدر في سماءٍ صافية لم اكن أظن انه مرَّ ببال أحد من الانس » ثم يذكر بيتاً غثيثاً ويتبجَّح بهِ ماشاء ، وهب ان البيت كان متناهياً في الحسن فأيُّ داعٍ لسرد حوادث حجّهِ والشيخ أبي القاسم في تلك الحكاية الطويلة ؟ والمقصود هو البيت الشعري لا غيره ! على ان مثل هذه الحكاية تليق بترجمة ناظم البيت نفسه وقد نسامحه بها لو ذكرها في ترجمة الشيخ أبي القاسم .

وقد وقع لكثير من علمائنا مثل هذا اذا أغفلوا مراعاة العَلاقة الكائنة بين التأليف وبين ما كان من نوعهِ فاضاعوا فضل كتبهم وأُولعوا بالسفاسف ، والخلط بين الغث والسمين ، والتكثير من قال وقالوا ، وفلان ابن فلان ، وهذا الجاحظ على علو منزلته في فنّ الانشاء وسموّ طبقته في علوم وقته لم يسلم من المؤاخذة على ذلك ، واذا نظرتَ الى كتابهِ البيان والتبيين ، وهو من اجلّ كتب الفصاحة والبلاغة ، حكمت انه بالمؤاخذة جدير فقد حشاهُ من ذلك ، بحيث أنك لو استخلصته من قال وقالوا ، وفلان ابن فلان ، لما بلغ ثلث الكتاب وهاك

الـكلام في علم البديع مثلاً . فلا علاقة بينهُ وبين حوادث تاريخية . اللهمَّ الاَّ اذا كانت مما يقتضيهِ العلم . كقوله : وأول من ذكر شيئاً من العلوم البديعية ، عبدالله بن المعتز ، ثم تلاهُ قدامة الـكاتب أوِ عاصرَهُ الخ : وأما تخطّي ذلك الى القول في محل مشاهدٍ بديعيّ « ومما اتفق لي انني لمّا يسَّر الله لي التبريك بزيارة البيتِ العتيق في السنة الخامسة والسبعين بعد الثمانمائة ذهبتُ من مدينة فاس يوم الاثنين لخمس من شوال مع رفقة كان بينهم صاحبنا العالم الاجلّ والصدر الاكمل الحاج عبدالله الفاسي ثم شيخنا امام أهل الفضل غير مدافَع جامع علوم الدنيا والدين فخر الاسلام وشرف الموحدين أبوالقاسم عثمان بن الشيخ عزالدين بن الشيخ احمد الششتري الآشي المدغيسيّ المرّاكشي أعلم علماءِ وقته فلما جزنا المهالك وقضينا المناسك وخرجنا من الحرم الى بئر زمزم والبدر في الأُفق ينير وقد أنسانا لفحات الهجير جلسنا والليل يحبّبُ السمر والنوم قاطعَ الاجفان وهجر فأسمعتُ شيخنا أبا القاسم بيتاً في معنى

والفلسفة ، وأهملنا البحث في تأريخ العلوم الادبية لعهدهِ ، لضربنا بالكتاب عُرَضَ الحائط ، وعددنا هذا الفيلسوف من المشعوذين فاعتبر ما ذكرته لك في هذا الباب والله الهادي .

الشرط الثاني

تحديد علاقة التأليف بما كان من نوعه وبالزمان والمكان اللذين ظهر فيهما

اعلم انّهُ لا بدَّ للناقد من انعام النظر في ذلك اذ لكلّ علمٍ علاقة مع علمٍ آخر أو أكثر من سائر العلوم ، ولكلّ شأنٍ وبحثٍ طريقةٌ من الانشآء وأساليب الكلام . فالكتابة في التأريخ وسرد حوادثهِ من شنّ غارات ، وأخذ ثارات ، وانتصاراتٍ وفتوحات ، وقهقراتٍ وكسرات ، وعزلٍ ونصب ، ووهبٍ وغصب ، هو غير الكلام في الطبيعيات من جاذبيةٍ وهيولى ، وحركةٍ وسكون ، وقوةٍ فاعلة وقوةٍ منفعلة ؛ وغير الكلام في التشريح ، من فِقَرٍ وغضروف ، وأعصابٍ وأوتاد ، ومفاصل وعضلات . وشرايين ورباطات . الى غير ذلك مما هو كثير . فاذا كان

في تأريخ العلوم الادبية لعهد تأليف الكتاب او الشيء المنقود لتُعلَم منزلة المؤلف عنده وهل انهُ كان مبتدعاً أو مقلّداً أو مجلّياً أو مقصّراً اذ لكل عصر شؤون ومذاهب في العلوم وغيرها من الفنون فما يُعَدُّ عندنا مهملاً وفي عداد الخرافات كالسحر والطلسمات ، قد بقي دهراً طويلاً سائداً على عقول البشر وكانت لهُ صولةٌ عند اكثر الامم البائدة كالمصريين ،والكلدان ، والفرس،وعند العرب أيضاً، وحسبك ان مثل الفيلسوف ابن خلدون قد وسَّع لهُ في مقدّمته المشهورة اثنين وثلاثين صفحة فيما ان كلامه على علوم الارتماطيقي والهندسة والهيئة والمنطق والطبيعيات والطب والفلاحة والالهيات والكيمياء والفلسفة والنحو واللغة والبيان والادب والترسُل والشعر لم يشغل اكثر من اثنين واربعين صفحة فهذا وحده يدلّك على ما كان لهم من العناية بهذا العلم بل الخرافة ، فلو قرأنا ما كتبهُ ابن خلدون من ذلك في كتيّبٍ أفردَهُ لهذا العلم ولم يتيسَّر لنا الاطلاع على مقدَّمتهِ ، أو معرفة مقامهِ الرفيع في عالمي العلم

ان المتنبي قد تحدَّى أسلوب هذين الشاعرين الكبيرين بل قد ترك طريقة أبي تمَّام منذ اتصالهِ بسيف الدولة حسبما ألمع الى ذلك شيخنا علاَّمة العصر الشيخ ابرهيم اليازجي في آخر العرف الطيب ، والتزم في الاكثر من شعرهِ ، طريقة البحتري انْ بالوصف أو بالتعبير أو بالسبك والتركيب والامثلة على ذلك كثيرة وليس هذا محلها ، ولا عجب في ذلك فمن كان ذا نفس كبيرة كالمتنبي واطماع كاطماعهِ وقريحةٍ كقريحته واطلاع واسع على علوم وآداب عصره ، لا بدع ان يتحدَّى في شعرهِ طريقة سابقيه وهما هما وقد تمثّلا لهُ على نحو ما ذكرتُ تارةً يقبضون الالوف وطوراً يصفان مجالدة الصفوف وحيناً يخاطبان بمدآئحهما الخلفآء والامرآء ويجالسان الوزرآء والعظمآء ووقتاً يشتغلان بالنسيب والهجآء وهو لم يكن لهُ همٌّ غير السؤدد والمجد ، ولم يرَ من نفسهِ طريقاً أقرب للوصول الى مبتغاه من ركوب طريقهما ، فطرّس على آثارهما ، ثم فاتهما .

فيستفاد من ذلك انهُ لا بدّ للشارح من النظر والبحث

حيثُ يستقبَلُ الزما ... نُ ويُستحسن البَلَدْ
سفرٌ جدَّدَتْ لنا الـ ... ـلهوَ أيامُهُ الجدد
عزمَ اللهُ للخليـ ... ـفةِ فيهِ على الرشَدْ

وكقولهِ في الفتح بن خاقان

ملِكٌ بعاليـة العراق قبابُهُ ... يقري البدورَ بها ونحنُ ضُيوفهُ
لم ألقهُ حتى لقيتُ عطـاءهُ ... جزلاً وعرّفني الغِنى معروفهُ
فتفتّحتْ بالاذنِ لي أبوابُهُ ... وترَفعتْ عني اليـهِ سجوفهُ
عطفت عليَّ عنايةٌ من ودّهِ ... وتتابعت جملاً عليَّ ألوفهُ
عالي المحـلِ أنالني بنوالهِ ... شرفاً أطلَّ على النجومِ منيفهُ
أي اليدين أجلُّ عندي نعمةً ... إغناؤُهُ إيّايَ أم تشريفهُ

فيرى الناقد ان الشعر في ذلك العصر كان لهُ المقام الاول بين العلوم الادبية ، فقد كان يُنشد في حضرة الخلفاء والملوك والامراء وتهتزُّ لسماعهِ مجالسهم ، ويجيزون عليـهِ بالأُلوف ويقرّبون منهم الشاعر حتى يكون لهم نديماً وخليلاً ويُتغنَّى به في ساعات أُنسهم وتوصَف به وقائع حروبهم وايام أعيادهم وافراحهم الى غير ذلك من الشؤون ، فيتحقق لديه

تظلُّ البزاةُ البيضُ تخطفُ حولَنا
جآجيءَ طيرٍ في السمآءِ سوامِ
تَحدَّرُ بالدرّاجِ من كلّ شاهقٍ
مخضّبةٌ أظفارُهنَ دوامِ
فلم أرَ كالقاطولِ (١) يحمل مآؤُهُ
تدفُّقَ بحرٍ بالسماحةِ طامِ
ولا جبلاً كالزوِّ يوقَفُ تارةً
وينقادُ إمّا قدتَهُ بزمامِ
لقد جمعَ اللهُ المحاسنَ كلَّها
لأَبيضَ من آلِ النبيِّ همامِ
يطيفُ بطلاقِ الوجه لا متجهّمٍ
علينا ولا نزرِ العطآءِ جهامِ

وكقولهِ

قد رحلنا عنِ العرا قِ وعن قطبها النكدْ
حبذا العيشُ في دمشـ قَ اذا ليلُها بَرَدْ

١ والقاطول موضع على دجله

الوزير محمد بن عبدالملك الزيّات ينشدهُ

لوسعت بقعةٌ لاعظامِ أُخرى

لسعى نحوها المكانُ الجديبُ

فيقول لهُ الوزير انك يا أبا تمّام لتحلّي شعرك من جواهر لفظك وبدائع معانيك ما يزيد حسناً على بهيّ الجواهر في أجياد الكواعب، وما يُذخَرُ لك شيء من جزيل المكافاة، الاّ ويقصر عن شعرك في الموازاة...

واذا قصر طرفهُ الى ما بعد ذلك لاح لهُ أبو عبادة البحتريّ الشاعر الكبير في خدمة الخليفة العباسيّ المتوكل والفتح بن خاقان وزيره، ينادمهما في الاقامة والظعن وينشدهما مدائحهُ، فيصف أيام سرور الخليفة، والأماكن المحبوبة لديه، وحضوره مجالس أنسهِ، تارةً في روضةٍ غنّاء، وطوراً على ظهر سفينة في المآء وهو يقول

أبى يومُنا بالزوِّ (١) الاّ تحسُّناً لنا بسماعٍ طيّبٍ ومُدامِ

غُنينا على قصرٍ يسيرُ بفتيةٍ قعودٍ على ارجائهِ وقيامِ

١ الزو اسم السفينة التي يصفها

وبين تأريخ العلوم الادبية بالعموم . **والثانى** تحديد علاقة التأليف أو غيره من المصنوعات بما كان من نوعه ، وبالمكان والزمان الذي ظهر فيهما . **والثالث** تحديد العلاقة الكائنة بين الكاتب وكتابته والمصنوع وصانعه .

الشرط الاول

ايضاح وتحديد العلاقة بين الكتاب المنقود وبين تأريخ العلوم الادبية بالعموم

اعلم ان الوصول الى معرفة ذلك لا يتمّ الاّ بانعام النظر واطالة البحث في تأريخ العلوم الادبية لعهد تأليف أو صنع المنقود ، فيجد الناقد من ذلك معيناً على صحة النقد لا يقدّر ثمنه . فان من يروم نقد شعر المتنبي مثلاً فعليه ان يتقدم عصرَه قليلاً وينظر الى ما كانت عليه حالة الشعر وقيمته ، فيتمثّل لهُ ابو تمّام قبل المتنبي بثمانين عام في حضرة الامير ابي دُلَف يجيزهُ على قصيدةٍ مدحهُ بها بخمسين الف درهم ثم يعتذر اليه فيقول لهُ ان الجائزة دون شعرك ، ثم يترآى لهُ في حضرة

القسم الثاني

في

قواعد الانتقاد

الفصل الاول

في

سلم النقد

اعلم انَّهُ يتحصل مما اجمع عليه علمآء النقد في هذا العصر، انّهُ لا يمكن الوصول الى سديد النقد الاّ بارتقاء درجاته الثلاث، وهي: الشرح، والتبويب، والحكم.

أما الشرح فلا يكون صحيحاً كاملاً حتى يستوفي ثلاثة شروط الاول ايضاح وتحديد العلاقة بين الكتاب المنقود

السرّ في كشف العيوب ودفعها، فمن أوتي ذلك، امكنه ان يدفع عن عمله تعييب الناقدين، ويكشف بمعرفته مغالط المقصّرين.

وعلى الجملة، فان النقد يشمل جميع العلوم والفنون، بل هو استاذ المعارف، فليس على الارض علمٌ او فنٌّ يعصي احكام الانتقاد السديدة ولله غيبُ السموات والارض.

سواها . فاذا أحكم صفها وتنضيدها ماهرٌ صَنَاعُ اليدِ سليمُ الذوق عليمٌ بوضع الاشياء في مواضعها انقلب تهجينك الى مدحٍ واستحسان . واذا راقبتَ الرفَّ والروشن والمائدة وما على كلٍّ منها ، وجدتَ الآنية والتحَف بعينها ، لم يَزد عليها شيءٌ ولا نقص منها شيء . بَيدَ انك اذا انتقدت سبب انقلابك من الاستهجان ، الى الاعجاب والاستحسان ، تراهُ نتيجةَ أمرٍ يسير من تبديلٍ وتغيير وتقريبٍ وتبعيد وإحكامٍ وتسديد ومرجع ذلك كله الى النسبة والحاكم فيما ذُكر سلامة الذوق . وتحصل صحة التناسب ايضاً بالتعليم كما هو الشأن في صناعة الهندسة .

وبصدق الارادة ، قد يحصل التفاهم بالاشارات عن غير تواطوءٍ سابق على ذلك ، بل قد يتجاوز هذا ، حتى يحصل بين الفردين من البشر بالنَظَرات ، ولا أطيل بذلك ، فشواهدهُ كثيرةٌ غير خافية على مَن راقب حركات البشر مراقبة ناقد بصير .

فقد رأيت مما تقدم ما للنسبة وصدق الارادة من

قالت وعيشِ ابي وا كبر اخوتي
لأُنبّهنَّ الحيَّ انْ لم تخرجِ
فخرجتُ خيفةَ قولِها فتبسَّمتْ
فعلمتُ انَّ يمينها لم تَحْرَجِ
فلثمتُ فاهاً آخذاً بقرونِها
شُرْبَ النزيف بِبردِ ماءِ الحشرجِ

ولا يُغنّى بهذا الشعر على الحجاز بل بالعكس .

وما هجرتكِ النفسُ يامَيُّ انها
قَلَتْكِ ولا أنْ قلَّ منكِ نصيبُها
ولكنّهم يا أملحَ الناسِ أُولِعوا
بقولِ اذا ماجئتُ هذا حبيبُها

واذا صُرِفتْ ابصارُك تِلقاءَ رفّ او روشن أو مائدة عليها آنيةٌ مختلفة متفرقة وطرائف مبثوثة وتحفٌ منثورة غير منضودة ، فقد تؤآخذ صاحب البيت او الدكان وتنسبه الى نقص الترتيب والرُعونة لما عاينتَ من ذلك بل قد تستبشع وضعه بعض أوانٍ لا ملاءمة ولا نسبة بينها وبين

الى ما يتفرع من ذلك وغيره مما يظهر به تقصير الخطيب أو سبقه .

واذا انتقدتَ تلحينَ أُغنيّةٍ فتنصتُ ان كنتَ ذا سمعٍ سليم وقلبٍ عليم الى وقع النقرات وتخالف النبرات وتناسب الانغام ودرجات الاوتار وصحة وزنها والسلّم المختلّ من السلّم الصحيح واحوال الازمنة المنحلّة وهي الانقطاعات والوقفَات بين صوتٍ وآخر ونقرةٍ واخرى وصحة الجواب وعدم تقصيرهِ او خروجه عن الدرجة وسلامة القرار وكل ذلك مما يناسب الغرض الملحونة لهُ تلك الأُغنيّة او ذلك النغَم ثم مراعاة النسبة بين الالفاظ والمعاني والانغام وهو أمرٌ لهُ عند امم اوروبا ارفع مقام وقد استوجب عناية اكابر موسيقيّيهم وشعرآئهم وممثّليهم ومثال ذلك ان تعلم انّهُ لا يُغنّى على نَغَم العجم بهذا الشعر

ما زلتُ ابغي الحيَّ اتبعُ ظلّهُم

حتى دُفِعتُ الى ربيبةِ هودجِ

مشبه للالوان الطبيعية ام مخالف لها ثم تنظر في قوام الفتاة والظاهر من أعضآئها وهل بينهما نسبةٌ ثم تنظر الى اليد التي تقطف الزهرة لترى هل كان وضع اليد في حالة قطف الزهرة شبه الحالة الطبيعية ام خرج عن الوضع الطبيعيّ وهل الزهرة المقطوفة أو التي باشرت اليد قطفها مع وجه الفتاة وسائر أعضآئها وخصوصاً عينيها ونظرها حين القطف وهيئة وقوفها وانحنآئها للقطف والوان الحديقة وسمآئها ومآئها وغير ذلك من أدق ما في الصورة ، الى أظهر ما فيها ،كل ذلك ،مماثلٌ ومشابه اتمّ المشابهة لما كان من مثلهِ في الحقيقة ام لا .

واذا انتقدتَ خطيباً على مِنبرٍ أو مِرقاةٍ فأوَّلُ ما يستوقف بصرك ويسترعي سمعك منظرُهُ ثم صوتُهُ ، ثم القآؤهُ وايمآؤهُ ، ثم نَبَراتُهُ وخفضاته ، ثم مخارجهُ ومقاطعهُ وما يتخلل ذلك من إرعادٍ في الوعيد وتهويلٍ في التهديد وتعليـلٍ في الوعد وتأميـل ، وتبشيرٍ في الفوز وتهليل ، وإعوال في الخطب الجليل ،واقناعٍ قويم ، وبرهانٍ مستقيم ،

يرسم ليكشف للمشاهد فكرَهُ وغايته . والرائي يتأمَّل ليقرأ ما في نفس المصوِّر والمصوَّر . والغرض الذي يرمي اليه جميعهم هو التفاهُم ، فصدق الارادة في الفهم والتفهيم ، هو الكاشف لاسرار النفوس ، وكلما عظمَت ارادة المتكلم أو الكاتب في التفهيم وأوتي ذكاء اللبّ وصدقت ارادة السامع أو القارئ في قبولهِ كانت أقرب لنقد عواطفه وادراك اسرار اخلاقه وآدابه.

واعلم ان النقد يختلف باختلاف العلوم أو الاشياء المنقودة . وذلك لانك اذا انتقدت كتاب ادبٍ ، فتنظر اولاً في عبارته لتحله في المحل اللائق به من مقامات الفصاحة ، ثم تنظر في معانيه لتعلم مكان قائلها من الحجى والذوق ، ثم تنظر في الفائدة المتحصلة منه . فاذا اتيت على ذلك كله تعيد النظر لتنقد الصحيح من الفاسد أو الخطأ من الصواب أو ما كان بذاته صحيحاً لكنه بالنسبة الى موضوع الكتاب أو شيءٍ آخر منه فاسداً .

واذا انتقدت صورة صوِّرَتْ بها فتاةٌ تقطف زهرةً في حديقةٍ ، فتنظر اولاً في لون النبات والزهر لترى هل هو

منكري فوائد الانتقاد لا يكون النقد بالغاً ذلك المقام الرفيع في مجلس العلوم ، أي لا يفوز بكشف الحقيقة ومعرفة الاخلاق، حتى يلجَ الناقد في ضمير المنقود وتختلط روحهُ بروحهِ فيكشف لنا اسرار نفسه ، ومن اين له ذلك ؟

قلتُ ان ما يعبّر عنه في علم الطبيعيات بالجاذبية يليق بنا ان نسميّه في علم الانتقاد **بصدق الارادة** فان كان سرُّ الجاذبية يقرّب كما هو مقرَّر في علم الطبيعيات اصغر جزءٍ من اجزاء الرمل من اقصى اقاصي الارض نحو مثله في ادناها ليتحدا وهما من الجماد(*) أفليس للعاقل من سرّ يقرّب من فهمه عواطف امثاله من البشر ومكنونات ضمائرهم وسائر اسرار نفوسهم ؟ بلى انهم أحق بذلك من الجمادات وسرّ الجاذبية فيهم افعل فصدق الارادة من المتكلم والسامع ، والكاتب والقارئ ، والمصور والناظر ، هي قاعدة التفاهم ، فالمتكلم يَنطِقُ ليُفهم ، والسامعُ ينصت ليَفهم ، والكاتبُ يكتب ليبلّغ مرامه ، والقارئُ يقرأ ليعلم مقصودهُ . والمصور

(*) اذا لم يعرض لهما في طريقهما ما يحول دون اتصال الجاذبية بينهما

النقد مُصيباً الاَّ عند ما يصيب كَبِدَ الحقيقة . وكلما بعد النقد عن الحقيقة كان فاسداً ومردوداً . اذن موضوع الانتقاد قصد الحقيقة وبعبارةٍ اخرى الانتقاد هو التفتيش عن الحقيقة ، فمن يأخذ كتاباً لينتقدهُ باخلاص يُدعى بعدل ناقداً . ومن يبحث فيه لنشر الهفوات وستر الحسنات يُعَدُّ عائباً وحاقداً وحاسداً ، ومن يستر القبيح وينشر المليح ندعوهُ مداهناً مخادعاً ، واقبح من هذَين من ينصب نفسه للانتقاد أو يتعرَّض لشيءٍ منه ولم يكن ممن آتاهم الله صدق النظر ولا استكمل العدَّة اللازمة لذلك من علوم لم يعلم منها الاَّ الأَسماء فراح يقول هذا خطأٌ وذاك صواب وهو في الحكمين يخبط خبط عشواء

الفصل الثامن

في

صدق الارادة

ومن اركان النقد ايضاً صدق الارادة قال بعض

ومهما سفل عقل الفرد من البشر لا يتجاوز الكاب ذكاءَ أرقى الحيوان ولا ينحط عقل الانسان عن درجة أشد الناس جهلاً وأوفرهم بلادةً . وقل مثل ذلك عن الفرس، فمهما بلغ من حسن الخَلق فذلك غير حسن الغزال وان خلو القصيدة الزهرية من الغزل ليس بعيب ولا ينقص شيئاً من حسنها ، اذا كانت جامعة حسن الوصف وبلاغة التعبير وفصاحة اللفظ ورشاقة الكلام ومتانة النسج كما ان وصف الجبل بما فيه ليس مما يُعاب عليه واصفهُ فانهُ وصف لنا الحقيقة لم يزِد ولم ينقِص . بل لو وصفه بغير ما فيه لكان مما يُعاب عليه، اذ حقيقة الوصف أو التصوير أو النقش حتى كأَنك تعاين الموصوف أو المصوَّر أو المنقوش ، هي الضالة التي ينشدها الشاعر البليغ، والكاتب اللوذعيّ، والمصوّر البارع، والنقَّاش الالمعيّ، والموسيقيّ الحاذق، والخطيب الاصمعيّ في اشعارهم وكتاباتهم وتصاويرهم وتماثيلهم وانغامهم وخطبهم .

فالحقيقة سلاح النقد وكلُّ جمال في الكون هو دون جمال الحقيقة وعماد النقد واساسه هو الصدق ولا يكون

الفصل السابع

في

النسبة

ومن أركان النقد ان يكون نسبيًّا فاذا رام الكاتب وصف ذكآءِ كلبٍ مثلاً فلا يستعير له ذكاءَ احد اذكيآء البشر واذا اراد وصف بليد من الناس فلا يصور لنا في رأسه دماغ حمار ومثل ذلك اذا انتقدنا صورة فَرَسٍ مطهّم فلا يلزم ان نعيبها لانها دون حسن الغزال أو قصيدة زهرية فلا نؤاخذ ناظمها لخلوها من النسيب أو قرأنا وصف جبل من جبال لبنان فلا ننسب للواصف عجزاً أو تقصيراً لانه لم ينعته بكثرة الرياض ووفرة الادغال والمروج من بعد ان وصفه بشدة الارتفاع ومصادمة الرياح وعذوبة المآء وطيب الهوآء فلكلٍ شأن هو به اليق ، وحال قد تفرَّد بها عن سواه ، وطبيعة مخصوصة عرف بها . فمهما بلغ الكلب من الذكاء

الممالك والبلاد التي هي على وجه الارض أو وصف ما بها من البحار والجبال وما يكتنفها من الهوآء الى غير ذلك مما هو معلوم . والكيميآء هي التحليل والتركيب ، فلو ظلّ الكيماويُّ الدهر يحلّلُ الهوآء والمآء ، ويراقب الاحتراق والتنفُّس ، ويميز بين الاجسام الموزونة وغير الموزونة ، ويفرّق الاجسام المركَّبة من الاجسام البسيطة ، لما عرف موقع موسكو ولا ، بُعدَها عن توكيو ، ولا افادته في أي درجة تقع مدينة باريس من العرض الشمالي أو الطول الشرقي . ومن هذه الامثلة تعلم ، ان موضوع النقد كسائر العلوم العقلية لا يتحوّل . وعلى الجملة فكلُّ محسوسٍ على وجه الارض بل وفي الفضآء هو عرْضةٌ للنقد ، ولذلك قيل موضوع علم النقد وقواعده أصلية ، لا بمعنى ان هذه القواعد تحدَّدت وتقررت . فهذا أول من تجرأ عليه مؤلف هذا الكتاب كما تقدم القول

وموضوع علم النقد وقواعده اصلية وهي مقررة عند جميع امم الارض كسائر قواعد العلوم العقلية وموضوعاتها ولا تختلف الاَّ في الفروع . مثال ذلك اننا لا نعرف أمةً من الامم قد عدَّت الافراد ازواجاً أو حسبت الزوجين ثلاثة فقواعد علم الحساب أصلية في ذاتها لا تحتمل الاختلاف وموضوع الحساب هو الاعداد المتفرقة وعلم الحساب هو جمع الاعداد وتضعيفها وتقسيمها واسقاط عدد معلوم من عدد آخر الى غير ذلك مما هو معروف ، فلسنا نعلم أمَّةً اتخذت علم الحساب لمعرفة الطب ، بل ذلك ممتنع ، اذ لو أقام الحاسب اعواماً يضرب أخماساً في أسداس ويسقط مئآتٍ من آلاف ويقسم مئين على عشرات لما خفَّف من حمى العليل شيئاً ولا عرف بذلك ما في جوفه من العلة أو ما يجري في عروقه من الدم . اذن من هذا الوجه ، موضوع كل علم غير قابل التحويل . وزيادةً في الايضاح أقول هل يمكن اخذ موضوع الجغرافية السياسية أو الوصفية وجعله موضوع الكيمياء ؟ الجواب ان ذلك محال لان الجغرافيا هي رسم

عواطف الكاتب ويكشف ما وراءَ ذلك من شؤونه واحواله حين كتابة سطوره بل ان انشآء الكاتب قد يميط لهُ الحجب عن اخلاقه وآدابه وامياله . وكما ان المصوّر لم يرد حين التصوير الاَّ رسم هيئة القارورة ، فكذلك الكاتب حين كتابته قد لا يُريد الاَّ ابراز المعنى المقصود منه ، ولكن كما ان صحيفة البلور ، قد رُسم عليها بفعل طبيعيّ من نور الشمس ، ما في قلب القارورة ، فهكذا يرتسم على اللفظ وينطبع في قلب الكلام من عواطف نفس الكاتب وامياله — اراد ام لم يُرد — ما لا يخفى على الناقد الحاذق وان خفيَ على الكاتب نفسه ، وما اصدق قول الشاعر

ومهما تكنْ عندَ امروءٍ من خليقة
وانْ خالَها تخفى على الناسِ تُعلَمِ

فكلام المرء مِرآة اخلاقه وجاءَ في التوراة يتكلم الفم فضلة ما في القلب ولكن لا يبين ذلك في اكثر الاحوال الاَّ لمن كان ذا بصيرة نقَّادة وعلمٍ واسع ولولا ذلك لما ظهرت فوائد النقد ولا رجحت موازين النقَّادين

عليك مقتدر وان لا تصل اليك يد مخلوق بسوء . واذ قد بلغ سعدك هذا المدى القصيّ فأنا اكتفي منك بأن تريدَ لي الخير فيصيبني لانك خسيس لا تسمح يدك بالجميل فأرجوه منك .

فاذا منحتَ هذا النقد نظراً صائباً وبصيرةً نافذة وكنت ممن المّ بشيءٍ من علم اخلاق البشر ونبش ضمائرهم وجدتَ انَّ هذه كانت خواطر المتنبي عند نظمه هذه القصيدة لا ما يظهرُ من برقع مديحها لمن كان اعجمياًّ في فن النقد .

ومن هذه الامثلة وكثير غيرها تعلم ان منكري حقيقة النقد ليسوا على شيءٍ من الهدى فيه وان المعاني ليست في صدر الناقد كما يزعمون بل في قلب الكلام طبعتها قريحة الكاتب على ألواح الصحف ويشبه هذا فعل المصور يروم تصوير قارورةٍ على صحيفةٍ من البلُّور بنور الشمس فترتسم القارورة على الصحيفة مع ما فيها من المآء وما في المآء من سمكة أو غيرها . وبمثله يرى الناقد البصير في قلب الكلام

قتله بطرق خفيَّة لم يعلم بها مَن حولهُ من الاقران والخلان وتلك الطريق الخفيَّة للقتل هي السُمّ وقد وقع منه ميتاً في الكنيف . وانت تعلم انك لو قصدت قتله بالطريق الواضحة وهي الحرب لأعياك امرهُ ، وللاقاك بنفسٍ كبيرة ورماح طويلة يقصر عنها جبنك ، فاحتلت على قتلهِ بهذه الحيلة اتّقاءَ بطشه وقد ساعدك على ذلك سوء بختهِ فقد خانهُ الحظّ معك . ثم رأى الشاعر انهُ قد تمادى في مدح شجاعة المقتول والكشف عن خوافي اسباب قتله وخشى غدر كافور ، فاستدرك كلامه هذا بقولهِ بيدَ انك احسنتَ اليه فلم يُرضهِ احسانك وكفر نعمتك فأنت معذور في قتله بأيّ وسيلة كانت . ثم رأى كأَنهُ اذنب بهذا الكلام الزور وارتكب جريرة ، واراد ان يبوح بما في نفسه من ذلك ، الاّ انهُ خطر ببالهِ مقام كافور الرفيع ، وانبساط ملكه ، وعظمة سلطانه ، فضاق بالامر ذرعاً ونادى بلسان حاله كيف اطيق التصريح بما تأتيهِ يا كافور من الكبائر وقد قدَّر اللهُ ان تكون الحاكم المالك ، وكأَنهُ قضى ان لا يسطو

أو

عدوكَ مذموم بكل لسان
فليس يشينُ الفضلَ غيرُ مُشانِ

او ما شاكل ذلك مما المتنَبي اعرف بهِ من سواه في مقابلة صدر البيت . ثم انهُ لما لم يرَ في كافور من الصفات الكريمة ما يطلق لهُ عنان القول في المدح اكتفى بقولهِ ولله سرٌّ في علاك الخ كأنه يريد ان يقول قد ضاق بي مجال مدحك وليس بك مايؤهلك لهذا السؤدد والعلآء وكلُّ ما يقولهُ اعاديك من قبح صفاتك ومساويك و يظهرونه من مخبّآت قبائحك ومخزياتك يُحسَبُ ضرباً من الهذيان اذ ان دوام مجدك وعلاك بالرغم من تشنيعهم هذا ، يشعر بأن للهِ سرٌّ في علاك وغاية خفيت عن البصائر . والبرهان على ذلك ان كلَّ من نوى لك الحرب أو عاداك قتل بسيف غدرك،او سُلب ماله ، او سُجن بسلطان مكرك ، ومن جملتهم شبيبٌ هذا وقد كان شجاعاً لم يطق ان يذلَّ لعزَّتك وانت الجبان فوكَّلتَ به اضعف غادر خوّان

هذه والبسها من ثياب الحقيقة فليست من الواقع في شيء بعين الناقد البصير .

اذ مَن تأمّل بالنظر الصادق ودقّق النقد بالرأي الراجح تبيّن لهُ من ورآء هذا المدح لسانُ شاعر بل مؤرخ يروي الوقائع كما هي تحت براقع المجاملة والدهآء واليك حقيقةَ ما يروي.

ان هيبة كافور قد وقعت في قلوب الناس حتى امسى من يعاديه مذموماً من جميع الخلق لا لحبهم كافور بل خشيةً من ظلمه وبرهان ذلك انه يقول ولو ان الشمس والقمر من اعدآئك لذمهما الناس مع ما بهما من الرفعة والجلال، والنفع والجمال وانْ قيل انَّ هذا الكلام اطلقهَ على سبيل المجاز والمبالغة قلتُ لو كان هذا مراد المتنبي لكان يقول مثلاً

عدوُّكَ مذمومٌ بكل لسانِ فعدلُكَ ما قد سنّهُ العمرَان

أو

عدوكَ مذمومٌ بكل لسانِ فليس يعيبُ الليثَ غيرُ جبانِ

ان المتنبي شاعر قصد كافوراً ملك مصر طمعاً بنيل احسانه من مالٍ او توليته ولايةً كما اشار الى ذلك في مدائحهِ لهُ فلا بدع ان يكون قاعداً يتلمّس كلَّ وسيلة ويتحيّن كل فرصة ليداجيه ويمدحه توصلاً الى مرامه حتى زعم ان كافوراً غنيٌّ بحظهِ عن الرماح السمهرية والسيوف الهندية فالفلك خادم سعوده والزمان من بعض جنوده وأنَّ مَن عصاهُ مخذول مُهان ومَن ناوأهُ عتلٌّ خوّان وان المنايا تقصدهُ اينما كان ويقتلهُ اضعف انسان وكأن لم يكفِ المتنبي كل ما جاءَ بهِ من هذا الريآء والثنآء حتى زعم ان الله كتب لكافور بهذا السؤدد والعلآء ثم ختم ذلك بالرضى منه والاكتفآء بارادةِ حسنِ حاله او بفكرٍ جميل يمرُّ بباله ليجعل البخت من حجّابه والتوفيق من اصحابه فيوافيانهِ بما اراد ويؤاتيانهِ بما تمنّى من الاسعاد .

بَيدَ ان هذا الناقد مهما تخيّل المتنبي مصانعاً مخادعاً مداهناً ومهما صوّر لهُ الوهم من المدح البليغ في هذه القصيدة ومن شديد مذمتّهِ لشبيب ومهما عظّم لنا تخيلاته

ومنها

أتمسكُ ما اوليتهُ يدُ عاقلٍ
وتمسكُ في كفرانهِ بعنانِ
ويركبُ ما اركبتهُ من كرامةٍ
ويركب للعصيانِ ظهر حصانِ

....

قضى الله ياكافور انك اولٌ
وليس بقاضٍ ان يُرى لك ثانِ
فما لكَ تختارُ القسيَّ وانما
عن السعدِ يُرمى دونكَ الثقلانِ

الى ان يقول في ختامها

أرِدْ لي جميلاً جدتَ او لم تجُد بهِ
فانّكَ ما احببتَ فيَّ اتاني
لو الفلكُ الدوّارُ ابغضتَ سعيهُ
لعوّقهُ شيءٌ عن الدَوَرانِ

فقد يسبقُ الى فكر الناقد عند قرآءة هذه القصيدة

رأت كلَّ من ينوي لك الغدرَ يُبتلى
بغدر حياةٍ او بغدرِ زمانِ

برغم شبيبٍ فارقَ السيفُ كفَّه
وكانا على العلاّتِ يصطحبانِ

كأنّ رقاب الناسِ قالت لسيفهِ
رفيقكَ قيسيٌّ وانتَ يمانِ

الى ان قال

نفى وقعَ اطرافِ الرماحِ برمحهِ
ولم يخشَ وقعَ النجمِ والدَبرانِ

ومنها

وقد قتلَ الاقرانَ حتى قتلتَهُ
باضعفِ قرنٍ في اذلّ مكانِ

اتتهُ المنايا في طريقٍ خفيّةٍ
على كلّ سمعٍ حولَه وعِيانِ

ولو سلكتْ طرقَ السلاحِ لردَّها
بطولِ يمينٍ واتّساع جنَانِ

أغارُ عليها من ابيها وأُمِّها اذا كلّماها بالكلام المُغمغمِ

وقال شيخ العاشقين السيد عمر بن الفارض

اخفيتُ حبكمُ فأخفاني الاسى
حتى لَعمري كدتُ عني اختفي

وهذا مذهب الجمهور من اهل الحب الصادق والمروءة الكاملة فقول هذا الماجنِ مخالف لما عليهِ اكابر المحبين ولا يتحصل من شعره هذا غير المفهوم من عموم الادباء مهما عاند المعاند او حاول واستنبط الناقد .

وهاك مثالاً آخر . قال المتنبي يذكر قيام شبيب على كافور ملك مصر وقتله بدمشق .

عدوُّكَ مذمومٌ بكلِّ لسانِ
ولو كان من أعدآئِك القمرانِ
ولله سرٌّ في علاك وانما
كلامُ العِدى ضربٌ من الهذيانِ
اتلتمس الاعدآء بعدالذي رأت
قيامَ دليل أو وضوح بيانِ

خليع قد جهل الفضائل الانسانية ومزيّة العقل وسلامة الحواسّ وقيمة شرف النفس التي تقضي على الانسان بالاعتدال في جميع احواله ليتسنّى لهُ البلوغ الى الكمالات الانسانية فالخمر وادمان شربها مضيعةٌ للعقل وبالتالي لاحترام المجتمع الانساني بل سبب ازدرآء السكّير بالبشر عموماً ومواصلة السكر نوع من الموت اما الاعتقاد بان اللذة في المكشوف الظاهر من اللذات فاكثر البشر على عكس ذلك وقد قالوا كلّ ممنوعٍ حلوٌ وكلُّ مستورٍ محبوب، وعلى ذلك جرى المحبّون كلهم في كتم اسم مَن يهوون، بل ستر حبهم عن الناس ما استطاعوا قال ابو الطيب

كتمتُ حبكِ حتى منكِ تكرمةً
ثم استوى فيه إسراري وإعلاني
كأنهُ زادَ حتى فاضَ عن جسدي
فصارَ سقمي بهِ في جسمِ كتماني

وقال الآخر

فاياكَ واُسمَ العامريةِ انني اغارُ عليها من فمِ المتكلّمِ

الغبن والخسران لان هموم الدنيا تنغّص عليه فلا يرى الغبطة والسرور الاّ عند ما يتعتعهُ السكر ويشاهد نفسَهُ كامير قد دانت لهُ الدنيا وأعطته مقاليدها ومن ذاالذي يرضى من سعادته بالشقاوة بديلا ؟ ثم لم يكتف بما رآهُ من لذات السكر ونعيمهِ حتى أراد ان يطرد مِنْ حولهِ كل ما من شأنهِ ان ان ينغّصَ عليه سروره فطلب من مغنّيه أوساقيه الذي كنى باسم محبوبه حذراً من الرقباء والعذال او خوفاً من غيرَتهِ ، ان يبوح باسم من يُحبّ ويصرّح بهِ ، لانه يرى ان لاخيرَ باللذات المستورة وان سرور النفس وانبساطها لا يكملان ما دام الحذر والخوف مخيّمَين وهذا هو مذهبٌ لبعض الفلاسفة يرون كل ما على الارض زائلاً كما هو معلوم وان العاقل مَن لا يترك للهمّ موضعاً في فؤاده ، وخير ما تُطرَد به الهموم وتجتَلب به المسرات الخمرُ ، فان شاربها يجد نفسَهُ في نعيم مقيم .

أتُراك تعتقد طرفةَ عينٍ بصواب هذا النقد ؟ وألاَ تُنزلهُ محلَّهُ من التمويه والسفسطة ؟ فما هذا الشعر الا كلام سكير

فلو فُرض انك وقفتَ على نقد هـذه الابيات على الصورة الآتية :

ان هذا الشاعر الحكيم يطلب من الساقي ان يقول لهُ عند سقيه الخمر خُذْ فاشرب خمراً يريد بذلك ان يشرك حواسَّهُ الخمس بلذَّتها فسمعهُ بلذَّة كلمة الخمر ، وعينيهِ بلونها الياقوتيّ ، وانفهُ بريحها المعتّق ، ولسانهُ بطعمها ، ويدَه بلمس كأسها ، وقد طلب ان يسقيه جهراً ان امكن ذلك ، لانهُ يرى في السرّ شيئاً من الظلمةِ واللعثمة وهو يفضّل عليهما الوضوح والافصاح بالمرغوب . ثم يُفهَم من بيتهِ الثاني انه يرى ان نوائب الايام دائرة في الانام ، فهي لا تترك للمرء لذّةً الاّ عاجلتها بالحسرات ولا صفواً الاّ اعقبتهُ بالاكدار ، فالزمن يطول عليه وكلّهُ همومٌ وأحزان فالعاقل من حارب جيوش الدهر بسكرٍ موصولٍ بسكر فلا يدنو الحزن من ساحة عقله الاّ يرى سهام الافكار صاعدةً في الفضآء على ابخرة الخمر تدفع بتيّارها جنود المصائب . وأشار في البيت الثالث الى هذ المعنى باكثر وضوح اذ رأى ان صحوَهُ عين

نتيجة مذهب كانتْ المنطيقية هي هذه : اننا مهما بحثنا وفحصنا ودقّقنا في كتب الادب والفنون لا نستطيع ان نجد فيها الاَّ ما وضعناه نحن من عندنا : وبعبارة اخرى : اننا عند استخراجنا معنًى من عبارة الكتاب المنقود لا نكشف بالحقيقة معنًى كان في نفس الكاتب بل في نفسنا أي في نفس الناقد :

فهذا المذهب أو الزعم هو السِفسطةُ بعينها اذ لو حاول أحد الناقدين ان يرى الفلسفة أي الحكمة بالابيات الآتية هل يستطيع الى ذلك سبيلا ؟

ألاَ فاسقني خمراً وقلْ لي هي الخمرُ
ولا تسقني سرًّا اذا أمكن الجهرُ
فعيشُ الفتى في سكرةٍ بعد سكرةٍ
فان طال هذا عندهُ قصرَ الدهرُ
وما الغبنُ الاَّ ان تراني َ صاحياً
وما الغنمُ الاَّ ان يُتعتِعَنى السكرُ
فُبحْ باسم مَن اهوى ودَعني من الكُنى
فلاخيرَ في اللذاتِ من دونها سترُ

الواحدة واللائق في هذا المقام مخاطبة السلطان بالضمير الغائب دائماً ولا يُردّ على هذا بكون ابن الخطيب مربّي السلطان فحقوق التربية لا تبيح الاخلال بالاداب السلطانية وعلى الجملة فقد يمكن ان توجد بهذه الرسالة مآخذ أخرى كما قد يكون بعض هذا النقد غير سديد وليس القصد نقد هذه الرسالة وبيان ما يؤخذ بها على كاتبها بل هي شاهد على ان الحقائق الادبية مهما كانت منزلتها في عالم الكتابة ومهما كان موضوعها فانها محل نقد الناقدين لاختلاف اذواقهم في بابات استطعام واستحسان الالفاظ والتراكيب والمعاني اختلافها في درجات استطابة الالوان من الطعام.

وقد انكر بعضُهم حقيقةَ النقد ولزومه للعلوم والفنون زاعماً ان بعض مريدي كانتْ[1] الفيلسوف الالماني أرادوا المنافسة به فأعلنوا مذهبه هذا — أي النقد —. وقد فات هؤلآء المنكرين ان مذهب كانتْ في النقد مخالف لحقيقة النقد الذي نحن بصدده ولما عليه اليوم جمهور الناقدين، فان

١ KANT

وهـذه الرسالة كما تراها قلادة من قلائد الفصاحة العربيـة وعقد نفيس يليق أن يتحلّى به جيـد الحضارة العصرية ولا أطيلُ بوصفها فمن يذوق أطايب الكلام يعلم قدرها وانمـا المراد بهـا الاستشهاد فانها معما جمعت من محاسن اللفظ وفصاحة التعبير وبراعة السبك وأخذها بطرفي المنطق والبيان ودلالتها على وفور عقل منشئها وطول باعهِ في علمي الجدل والبحث وامتداد نَفَسه في علم الأَدب والاقناع فهي من الحقائق الأَدبية التي تحتمل النقد

فمن ذلك انها من وزيرٍ الى سلطان وكان يجب ان يكون عليها من سمات الخضوع والطاعة ما يشعر بذلك . ومنـه استخدامه لفظة **محار** في قوله : ولا غش في تدبير ولا تعلق بهِ محار : قال في لسان العرب « المحار المرجع : وقال قبـل ذلك حار الى الشيء وعنهُ حوْراً ومحاراً الخ رجع عنهُ واليهِ : فيتحصل من ذلك ومما بعده **ولا تعلق به رجوع** وهي اكثر وضوحاً واستعمالاً من كلمة **محار** وهي مهجورة . ومن ذلك أيضاً انتقاله من ضمير الغيبة الى ضمير المخاطبـة في العبارة

كيفَ يسلو يا جنّتي عنكَ صبٌّ
كانَ قبلَ الوجودِ جُنَّ بحبّكِ
ثمَّ قلْ كيفَ كانَ قبلَ انتشآءِ الـ
ـروحِ من أنسِكَ الشهيّ وقربِكْ
لم يَدعْ بيتَكَ المنيعُ حماهُ
لسواهُ الاَّ الي بيتِ ربّكْ
أولِ عذري الرضى فما جئتُ بدعاً
دمتَ والفضلُ والرضى من دأبِكْ
واذا ما ادّعيتَ كرباً بفقدي
أينَ كربي ووحشتي من كربِكْ
وَلدي في ذُراكَ وكَري في دو
حكَ لحدي وتربتي في تربِكْ
يا زماناً أغرى الفراقَ بشملي
ليتني اهبتَي اُتخذتُ لحربِكْ
أركبتني صروفُكَ الصعبَ حتى
جئتَ بالبينِ وهو أصعبُ صعبِكْ

أيضاً على جهة النصيحة ان ابن الخطيب مشهور في كل قطر وعند كل ملك واعتقادهُ وبرّه والسؤال عنهُ وذكرهُ بالجميل والاذن في زيارته حنانةٌ منكم وسعةُ ذرعٍ ودَهآء فانمّا كان ابن الخطيب بوطنكم سحابةُ رحمةٍ نزلت ثم أقشعت وترك الأزاهر تفوح والمحاسن تلوح ومثالهُ معكم مثال المرضعة أرضعت السياسة والتدبير الميمون ثم رَفَدتكم في مهد الصلح والأَمان وغطّتكم بقناع العافية وانصرفتْ الى الحمام تغسل اللبن والوضر وتعود فان وجدت الرضيع فحَسنٌ أو قد انتبه فلم تتركه الا في حد الانفطام . ونختم هذه الغزارة بالحلف الاكيد اني ماتركت لكم وجه نصيحة في دين ولا دنيا الاَّ وقد وفيت لكم ولا فارقتكم الاَّ عن عجز ومن ظنَّ خلاف هـذا فقد ظلمني وظلمكم والله يرشدكم ويتولى أَمركم ويعول خاطركم في ركوب البحر

صابَ مزنُ الدموع من جفنِ صبّك
عنـد ما استروحَ الصبا من مهبِّكْ

وتناصفهْ ينكر ذلك ويستحضر الحساب من التربية والتعليم وخدمة السلف وتخليد الآثار وتسمية الولد وتلقيب السلطان والارشاد الى الاعمال الصالحة والمداخلة والملابسة لم يتخلّل ذلك قط خيانةٌ في مال ولا سرّ، ولا غشٌّ في تدبير، ولا تعلق بهِ محار، ولا كدّره نقص، ولا حمل عليه خوف منكم، ولا طمع فيما بيدكم، وان لم تكن هذه دواعي الرعي والوصلة والابقآء ففيمَ تكون بين بني آدم؟ وأنا قد رحلتُ فلا أوصيتكم بمال، فهو عندي أهون متروك ولا بولد، فهم رجالكم وخدّامكم ومَن يحرص مثلكم على الاستكثار منهم ولا بعيال، فهي من مزيّات بيتكم وخواصّ داركم؛ انما أوصيكم بتقوى الله، والعمل لغد، وقبض عنان اللهو في موطن الجِدّ، والحيآء من الله الذي محص وأقال، وأعاد النعمة بعد زوالها، لينظر كيف تعملون؛ وأطاب منكم عوض ما وفّرتهُ عليكم من زاد طريق ومكافأةٍ واعانة زاداً سهلاً عليكم وهو ان تقولوا لي، غفر الله لك ما ضيّعتَ من حقّي خطأً أو عمداً واذا فعلتم ذلك فقد رضيت. واعلموا

الطويلة والاستغناء اذا كان الانصراف المفروض ضرورياً قبيحاً في غير هذه الحال ومنها وهو أقوى الاعذار اني مهما لم أطق تمام هـذا الامر أو ضاق ذرعي بهِ لعجز أو لمرض أو خوف طريق أو نفاد زاد أو شوق غالب رجعتُ رجوع الأَب الشفيق الى الولد البرّ الرضي اذ لم أُخلّف ورائي مانعاً من الرجوع من قول قبيح ولا فعل بل خلّفتُ الوسائل المرعية والآثار الخالدة والسيرَ الجميلة وانصرفتُ بقصد شريف فقتُ بهِ أشياخي وكبارَ وطني وأهلَ طوري وتركتكم على أتمّ ما أرضاهُ مثنياً عليكم داعياً لكم، وان فسح اللهُ في الأمد وقضى الحاجةَ فأملي العودة الى ولدي وتُربتي، وان قطع الأجل فأرجو ان أكون ممن وقع أجرُهُ على الله . فان كان تصرّفي صواباً وجارياً على السَداد فلا يُلام من أصاب وان كان عن حُمْق وفساد عقـل فلا يُلام من اختلّ عقله وفَسَد مزاجه بل يُعذَر ويُشفق عليهِ ويُرحم وان لم يعطِ مولاي أمري حقَّهُ من العدل وجُليت الذنوب ونُشِرتَ بعدي العيوب فحياؤهُ

المجاز واتصال الارض ببلاد المشرق لطرقتهُ الافكار وزعزعت صبرَهُ رياح الخواطر وتذكّر اشراف العمر على التمام وعواقب الاستغراق وسيرة الفضلآء عند شمول البياض فغلبته حالٌ شديدة هزمت التعشق بالشمل الجميع والوطن المليح والجاه الكبير والسلطان القليل النظير وعمل بمقتضى قوله موتوا قبل ان تموتوا فان صحّت الحال المرجوَّة من امداد الله تنقات الاقدام الى امام وقوى التعلق بعروة الله الوثقى وان وقع العجز أو افتضح العزم فالله يعاملنا بلطفه وهذا المرتكب مرام صعب لكن سهّلهُ عليَّ أمور منها ان الانصراف لما لم يكن منه بدٌّ لم يتعين على غير هذه الصورة اذ كان عندكم من باب المحال ومنها ان مولاي لو سمح لي بغرض الانصراف لم تكن لي قدرة على موقف وداعه لا والله ولكان الموت أسبق اليَّ وكفى بهذه الوسيلة الحسنة التي يعرفها وسيلة . ومنها حرصي على ان يظهر صدق دعواي فيما كنتُ أهتف بهِ وأظن اني لا أُصدَّق ومنها اغتنام المفارقة في زمن الأمان والهدنة

وأدعو الله في تيسير اللقآء والاجتماع من بعد التفرق والانصداع واقرر لديكم ان الانسان أسير الاقدار مسلوب الاختيار متقلب في حكم الخواطر والافكار وان لا بدّ لكلّ أوّل من آخر وان التفرق لمّا لزم كل اثنين بموت أو حياة ولم يكن منه بدٌّ كان خير أنواعه الواقعة بين الاحباب ما وقع على الوجوه الجميلة البريئة من الشرور ويعلم مولاي حال عبده منذ وصل اليكم من المغرب بولدكم ومقامه لديكم بحال قلقٍ لولا تعليلكم ووعدكم وارتقاب اللطائف في تقليب قلبكم وقطع نواحل الايام حريصاً على استكمال سنّكم ونهوض ولدكم واضطلاعكم بأمركم وتمكن هدنة وطنكم وما تحمّل في ذلك من ترك غرضهِ لغرضكم وما استقر بيدهِ من عهودكم وان العبد الآن تسبّب لكم في الهدنة من بعد الظهور والعز ونجح السعي وتأتي لسنين كثيرة الصلح (١) ومن بعد ان يبق لكم بالاندلس مشغب من القرابة وتحرّك لمطالعة الثغور الغربية وقرب من فرضة

(١) كذا

لكثرة صياحهِ وأما العباس فقال شكا الوشاحان ثم نقض قوله فقال لم يشكيا وانما ابكاهما الجوع وهو اكثر غموضاً وبعداً في التفسير أو التشبيه فاين الجوع من الوشاح بل لا تشبيه هنا ولا استعارة فأي مجاز يكون بعد ذلك ؟ وعلى الجملة فهذا البيت كلام منظوم بقريحة الوهم يذوقه اهل الهذيان

ومثال الحالة الرابعة وهي ان يكون الكلام والمعنى صحيحين جامعين شروط الفصاحة واركانها ما كتبه لسان الدين ابن الخطيب الى سلطانه ابن الاحمر صاحب الاندلس قال طيَّب الله ثراه

بانوا فمن كان باكياً يبكي ... هذي ركابُ السُّرى بلاشكِّ
فمن ظهورِ الركابِ معملةً ... الى بطونِ الرُّبى الى الفلُكِ
تصدَّعَ الشملُ مثلما انحدرتْ ... الى صبوبٍ جواهرُ السُّلكِ
من النوى قبلُ لم أزل حذِراً ... هذا النوى جعلُ مالكُ الملكِ

مولاي

كان الله لكم وتولى امركم ، أسلم عليكم سلام الوداع

ثم ان قوله والصدر بالارداف مدفوعٌ كلام حسن التركيب فاسد المعنى وقوله شكاوشاحاها هو كلمٌ يقصد بهِ ذكر الوشاح أو هو هَذَيانٌ فما الذي شكاه وشاحاها بل اي جوع ابكاهما وكيف يجوع الوشاح وما الذي يجيعه وكيف يشكو ويبكي؟ فان قيل ان هذا من باب المجاز قلتُ للمجاز والاستعارة حدود وتعريفات ذكرها علمآء البيان كقولنا زيدٌ ذئبٌ وعمرٌو أسدٌ فاننا نريد بذلك ان زيداً مكَّارٌ مختلس وان عمراً شجاع وكقولنا روَّتِ السمآء ظمأَ الارض نريد ان السحاب جاد بالمطر فبلَّ الارض اليابسة المحتاجة الى ذلك وكقوله

بدتْ قمراً ومالت خُوطَ بانٍ وفاحت عنبراً ورنت غزالا

وكله من ابواب المجاز والتشبيه والاستعارة كما هو ظاهر ولكن بيت العباس بن الاحنف ليس في شيء من ذلك وقد عابوا ابا نواس لقولهِ

بحَّ صوتُ المال ممَّا منكَ يشكو ويصيحُ

وتعييبهم في محله مع انه أبان سبب بحَّ الصوت وهو

منهُ أو لامكان عمل ذلك وفي كل حالة من هذه الحالات تجد أشياعاً ومريدين لـكلّ من الوجهين ولا أطيل عليك بأمثلة ذلك وشواهدهِ خوف مللك ولـكن لا أرى بدًّا من ذكر بعض ذلك لاتمام الفائدة .

فمن أمثلة احدى الحالات الثلاث الأُولى قول ابن هاني في تغزُّلهِ ونسيبهِ

فعلى الأَيام من بعـدكمو ماعلى الظلمآء من لبس الحداد

وهو بأن يكون رثآءً أولى من ان يكون تشوقاً وتغزلاً

أو كقول العباس بن الاحنف

أصادقٌ حبُّكِ أم كاذبٌ يا خُلَّتي حبُّكِ مصنـوعُ

الى ان يقول

قامت تثنى وهي مرعوبةٌ تَوَدُّ أن الشملَ مجموعُ

حتى اذا ما حاولتْ خطوةً والصدرُ بالاردافِ مدفوعُ

شكا وشاحاها ولم يشكيا وانما ابكاهما الجوعُ

فقدرأيت كيف انهُ جزم في أول هذه الابيات بتصنّع محبوبتهِ في الود ثم لم يتمالك ان حكى زيارتها وهذا من التناقض بمكان

ثم تكلم طويلاً بعد ذلك مما لا أرى ضرورة لنقله فليراجعهُ من أحبَّ ذلك في الجزء الأَول من كشف الظنون

وقال السيد في التعريفات **الموضوع هو محل العرض المختص به وقيل هو الامر الموجود في الذهن**

واعلم ان تحديد وتعريف الموضوع لم يصل الى اليوم عند الافرنج لرأيٍ مجمع عليه من جمهور علمآئهم والله أعلم

والذي يتحصَّل من تاريخ النقد ان موضوع أو مبدأ النقد كائنٌ لا ريب فيه وحقيقةٌ لا يُختَلف فيها كما سيتضح لك فيما يأتي وانت تعلم ان الجدال في الذوق أمرٌ شائع لاختلاف الاذواق بين جيدّها والفاسد ولا عبرة بقولهم المشهور **لا جدال في الذوق** وبمثل ذلك توجد حقائق في علوم الأَدب هي موضع جدال العلمآء والشعرآء والادبآء والمراد بالحقائق الادبية هو كل كلام من منثور ومنظوم اذا كان صحيح المعنى فاسد التعبير أو بالعكس أو اذا كان فاسدهما معاً أو صحيحهما فانه في الأَحوال الثلاثة يستدعي الجدال لبيان وجه نقصهِ وفسادهِ وفي الحالة الرابعة لبيان ما هو أحسن

يُسْئَلُ فيه عن احواله التي تعرض لذاته فموضوع الفقه هو افعال المكلّفين والفقيه يسأل عن احوالها التي تعرض لها من الفرض والنفل والحلال والحرام والندب والمباح وغير ذلك وموضوع الطب بدن الانسان والطبيب يسأل عن احوالهِ التي تعرض لهُ من صحته وسقمه وموضوع الحساب هو الاعداد والحاسب يسأل عن احوالها التي تعرض لها من الضرب والقسمة والنسبة وغير ذلك الخ وعلى هذا فموضوع علم البيان الفصاحة والبلاغة وصاحبه يسأل عن احوالهما اللفظية والمعنوية انتهى المقصود من كلامه في لفظ الموضوع

وقرأت لملاّ كاتب جلبي صاحب كشف الظنون فصلاً في بحث الموضوع اوردُ منه ما يأتي قال : لما كانت الحقائق واحوالها متكاثرة متنوعة تصدى الأَوائل لضبطها وتسهيل تعليمها فافردوا الاحوال الذاتية المتعلقة بشيء واحد أو بأشياء متناسبة ودونوها على حدة وعدّوها علماً واحداً وسموا ذلك الشيء أو الاشياء موضوعاً لذلك العلم لان موضوعات مسائله راجعة اليه فموضوع العلم ما ينحل اليه موضوعات مسائله :

علم النجوم هي النجوم نفسها والعلم هو البحث عن الوسائل التي تبلّغ المرء معرفة سير النجوم ومواقعها وافلاكها وبروجها وسياراتها وثوابتها الى غير ذلك مما يتعلق بالشمس والقمر والنجوم . وموضوع علم طبقات الارض هو طبقات الارض نفسها فلو سأل رجلٌ ما هو موضوع علم طبقات الارض واجاب المسئول انهُ البحث عن الصخور الارضية وكيفية تكوينها واعمارها والازمان التي قطعتها واسباب ارتفاع الجبال وهبوط الاودية الى غير ذلك فهل يكون الجواب مطابقاً للسؤآل ؟ أقول كلا فان السؤآل والجواب فاسدان لانهُ لا يُسأل عن الموضوع الا في حالة الجهل به أو التعمية مثال ذلك لو ان بيدك كتاب وسألك السائل ما هذا الكتاب فقلتَ كتابُ علمٍ فقال ماهو موضوعه فقلتَ الطبُّ لكان قوله ما هو موضوعه صحيحاً وجوابك سديداً

ثم وجدت بعد كتابة ما تقدم كلاماً في هذا المعنى لصاحب المثل السائر أوردهُ ليتبين للقارئ ما وافق بهِ كلامي كلامَهُ وما اختلف عنه قال موضوع كل علم هو الشيء الذي

على ان علمآء الالمان والانكليز قد اخذوا منذ مئة عام في محاكاة الفرنسويين ومجاراتهم في هذا الفن فبلغوا اليوم فيه شأواً لا ينحطّ عنهم . ومما تقدم بسطهُ تعلم ان تأريخ النقد الفرنسوي يُحسَب تاريخ النقد العام لسائر أُمم اوربا

الفصل السادس

في

موضوع النقد

لم اجد لاحد من العرب كلاماً شافياً في لفظة : **الموضوع** : بمعناها المصطلَح عليه اليوم فاحببت ان اذكر ما يعنّ لي بهذا المعنى وما وصل اليه علمي القاصر وارجو ان اكون قد اصبت الغرض والاَّ فما انا اوَّل من رمى فأخطأ

اعلم ان موضوع كلّ علم هو الشيء المبحوث عنه وبعبارة أخرى هو أساس ذلك العلم وأصله ومبداؤه وعماده. فموضوع

ويعلن فضله فيما كان سابقاً فيه ومبرّزاً

ولما كان الغرض من هذه الفصول تدوين تاريخ للنقد وبيان سيرهِ وترقّيه عصراً فعصراً وكل ذلك بوجه اجماليّ لم يكن بدّ من ذكر اسمآء العلمآء الذين اتيت على ذكرهم منسوقاً بحسب ازمانهم بَيدَ ان جلّ ما ذكرتهُ من ذلك في هذا الفصل وما قبله لم يتعدَّ تاريخ النقد عند الفرنسويين والاَّ فما مثل ليسنغ[١] وكارليل[٢] وماكولاي[٣] وسيدني[٤] سمِث وشارل لامب[٥] ومن في طبقتهم من الانكليز أو هيردير[٦] وكوتي[٧] وهيجيل[٨] من الالمان أو فرنشيسكو صانتي[٩٠] من الايطاليان أو جُوان فاليرا[١] من الاسبان ممن يُضرَب صفحاً عن اسمائهم في هذا الموضع غير انه لما كان تاريخ النقد الفرنسوي كما سبق القول اقدم تاريخ متتابع للنقد في بلاد المغرب كلها اقتصرت على ذكر اشهر علمآء النقد الفرنسويين

١ LESSING ٢ CARLYLE ٣ MACAULAY ٤ SYDNEY SMITH
٥ CHARLE LAMBE ٦ HERDER ٧ GOCTHE ٨ HEGEL ٩ FRANCESCO SANIT ١٠ JIVO VALERA

يحوّلاهُ الى علم ذي قواعد معيَّنة فقد وسمَّاهُ واوضحا حدوده واعلنا رئاسته وسلطانه على جميع العلوم والفنون وذلك فيما فعلاهُ بانتقاداتهما الكتب الكثيرة التي عمدا الى نقدها فحذا علماء النقد حذوهما وبلغ النقد هذه الدرجة العالية من الترقي دون ان تحدد قواعده في كتاب او يُفرَد لتعليمه وتلقينه قانون مخصوص كما ذكرت لك قبل هذا

وقبل ان اختم البحث في تاريخ النقد لا بد لي من كلمةٍ اقولها عما دعاني ان اضرب صفحاً عن ذكر كثيرين من الاعلام الذين كتبوا في فن النقد

ليس من يجهل ان تاريخ ايّ صنفٍ من العلوم لا يوجب على المؤرخ ذكر كل كتاب أُلّفَ فيه اوَ اسم كل من كتب شيئاً عن ذلك العلم فان من لم يخدم عصره برأيٍ جديد او اختراعٍ مفيد لا حق له بذكر اسمه في تاريخ علمٍ كان فيه مكرراً كتابة من تقدمه

بَيدَ انه قد يكون ممن نفع وافاد ونبغ واجاد في علم أو فنٍّ آخر فعلى مؤرخ ذلك العلم أو الفن ان يُعلي ذكره

والاحمق في الثاني والمتقلّب او الامِّعة في الثالث والمعاشر في الرابع والحازم في الخامس وذي التصور اوالسامي المدارك في السادس والنفور في السابع الى غيرذلك من القوى الكثيرة المختلفة بين من يكتفي بتأليف الكلام وبين من لا يرى قيمة التأليف الاَّ بالمعاني مما لا يسعني الآن حصره ولا هذا محله فان اردتَ تعيين مرتبة مؤلف او شاعر او حاكم انزلته في البيت او في البرج المعين عدده في ذلك الجدول وقلتَ انه من اهل البرج الخامس او السادس او الثاني وهلم جرًّا

بَيْدَ ان سانت بوُف بالرغم من مذهبه هذا قد حصر النقد بما ذكرتهُ لك قُبَيل هذا من صنيعه

ثم جاءَ بعده العالمان رينان[1] وتاين[2] فسدًّا الثُلمة التي تركها بل خدما النقد خدمةً لم يحلم بها عالمٌ قبلهما . فلم ينظرا عِوَجاً في فرع من فروع النقد الاَّ قوَّماه ولاغادرا باباً من ابوابه الاَّ ولجاه ولا عثرةً في سبيل من سُبُله الاَّ ازالاها ولا عقبةً من عقباته الاَّ مهَّداها وعلى الجملة فانهما وان لم

١ RENAN ٢ TAINE

فلم يكتفِ بالبحث عما في تضاعيف السطور من الالفاظ وعما وراء ذلك من المعاني بل قد بحث عن الانسان نفسه — أي الكاتب — وعن سرّ اخلاقه بل عن مكنونات افكاره وعندئذ تحوَّل فن النقد من فنّ مساعد للتاريخ الى آلة حقيقية للتحليل والتفتيش واكتشاف اسرار النفوس

وانت تعلم ان من الاسرار ما يضنُّ المرء بالاعتراف بها أو يغالط بها نفسه كبعض عيوب الاخلاق فقد علَّمنا سانت بوف قرآءَة هذه الاسرار وذلك في مواضع لا يدور في خَلَدِ الكاتب انه قد كشفها لنا

ولما وصل فنّ النقد الى هذا الحد البعيد من الاستنباط والاكتشاف واصابة الحدس وحلّ الغوامض ونبش السرائر اتَّسعت معارف الانسان باخلاق البشر حتى رأى بعضهم ان يصنع جدولاً لمراتب العقول كجدول مراتب النبات أو الحيوانات أو طبقات الارض فيعين لكل عقل او لكل قوة من قوى العقل الغالبة على سائرها برجاً او بيتاً في ذلك الجدول فتكون مرتبة العقل الضعيف في البيت الاول مثلاً

من مناظر الاماكن والمساكن واشكال الملابس وتقليد العادات والآداب ما يمثّل للعين الحادثة واهلها وزمنها وذلك بدلاً من سلخها عن عصرها كما كانوا يفعلون الى ذلك العهد. فجعلوا فن النقد باجتهادهم هذا مُعيناً لفنّ التاريخ وبعد ان كان معدن الجمود والسكون جعلوه عنصر الحركة أو الكهرباء وكان نكرةً فعرّفوه وميتاً فنشروه

فان العالم الفيلسوف كوُزان[1] من اهل القرن التاسع عشر خدم فن النقد الحديث بنقده كتب البلاغة والفصاحة منظومها والمنثور كشعر شاعرهم راسين وكاتبهم پاسكال نقداً دونه تدقيق علماء البحث عن أصل اللغات وكان هذا النوع من النقد أو التشريف مخصصاً لكتب القدماء فقط

ثم جاء بعد كوُزان الكاتب الشهير والنقّاد الكبير سانت بوُف فكان لهُ على النقد يدٌ بيضاء يذكرها لهُ التاريخ بالشكر والفخر مدى الدهر فانه قد أمعن في البحث ودقق في شرح ما انتقده من الكتب واصحابها بغاية الاستقصاء

١ COUSIN

ودمنه وما أشبه ذلك من النظم والنثر كلها تنطق بافصح بيان عن زمن تأليفها وفي كل واحدة منها ايضاح وكشف عن احوال تلك العصور وعوائد واخلاق اهلها ومعتقداتهم وأزيائهم يستشفه طرف الناقد بادنى لمح فهي في الحقيقة تلخيص تاريخ قوم بعينهم ومن محاسن هذا النوع من التأليف وأريد به النوع القصصيّ انه قبل ان يفيد الناقد والقارئ يفيد المؤلف به نفسه فانه قبل ان يأخذ القلم للكتابة يأخذ في التفكر والبحث والتنقيب عن أخلاق وعادات اهل عصره والعصر الذي يكتب عنه اذ لا ينكر احد ان القصة المؤلّفة بقصد القرآءة والتسلّي أو الرواية المنظومة بغية التمثيل والتلهّي لم يكن غرض مؤلفيها وواضعيها الاّ افهام القرآء أو السامعين مقاصدهم فهي من هذا القبيل يجب نقدها بنسبة موضوعها

وقد رأى النقادون ان يتعمّقوا في النقد والبحث عن الاسباب التي حملت المؤلف على تأليف روايته أو قصيدته وعن تاريخ وقوع حوادثها وان هم مثلوها للقوم مهّدوا لها

للكنائس الغوطيـة[1] حصةً من الحسن واضحةً ونصيباً وافراً من الجمال وان رافائيل[2] وان كان استاذاً كبيراً فان دوُرير[3] ورامبران[4] ليسا دونه

الفصل الخامس

في

ان علم الادب هو لسان حال المجتمع الانساني

ذيل تاريخ النقد عند سائر الامم

اعلم ان القصائد القصصية المشهورة والنوادر المدهشة والحكايات والروايات لا تنحصر فوائدها في فصاحة التعبير وبلاغة السبك فقط بل لها فوائد تاريخية فوق ذلك فان ايلياذة هوميروس الشاعر اليوناني ورواية همليت[5] للشاعر شكسبير[6] الانكليزي ومعلّقة امرؤ القيس وحكايات كليلة

١ GOTIQUES ٢ RAPHAEL ٣ DURER ٤ REMBRAND ٥ HAMLET
٦ SHAKSPEARE

وعلى الخصوص في تاريخ العلوم وشرح ازمنة تقدمها أو تقهقرها . على انني واثق ان العلمآء وأهل الفضل يقدرون خدمتي هذه العلمية حق قدرها

وقبل ان آتي على ختام هذا الفصل أرى ان أنبّه المطالع على أمر هو من الاهمية بمكان ذلك ان العلوم الادبية عند سائر شعوب أوربا كانت مجهولة في اوائل القرن التاسع عشر أو غير معروفة معرفتها عند الفرنسويين بل ان هؤلآء أنفسهم كانوا يجهلون علومهم الادبية لعصر سابق القرن السادس عشر ولهذا السبب اضطر علمآء القرن الاخير عندهم ان يعيدوا البحث عن قواعد فن النقد ويتحققوا قيمتها لانهم كانوا الى اوائل القرن الاخير الماضي لا يحتجّون ولا يستشهدون الاَّ بما كان من مصنوعات اليونان أو الرومان أو الايطاليان أو الاسبان أو الفرنسويين أي مصنوعاتهم وكان لها في نظرهم اعتبار يفوق مصنوعات باقي الامم . ولكنهم منذ سنة ١٨١٠ طفقوا يقولون بقول اهل شمال أوربا وعرفوا ان الهياكل اليونانية وان كانت شيئاً بديعاً فان

ديفونتين وپريفوسْت [1] وفريرون [2] وڤولتير معما كان عليه من صدق النظر ولطافة الذوق ومارمونتيل [3] ولاهرپ وفي أثرهم اصحاب هوْفمَن [4] وجوفروا [5] وفيليتز [6] وهؤلاء لم يزل لهم مريدون الى عصرنا هذا وكلهم يقولون قول لابرويار ان الكلام قد ختم من بعد ان مرّ على عالمنا ستة آلاف عام او قول ڤولتير ان موضوعات القول ومحسّناته اللفظية اللائقة به لها وجوهٌ من التعبير اضيق مما يظنون. وفئةٌ هي فئة اهل الاجتهاد وفي رأسهم القس دُوبوز [7] ثم ماريفوْ [8] ومونتيسكيو [9] وديديروْ وميرثيار [10] واخيراً روُسوّ [11]

وقد يزعم زاعم انني أكرر اسماءً كثيرة واجمع عصوراً عديدة على غير فائدة لاستثقالهِ لفظ كل هذه الاسماء الاعجمية أولجهلهِ مقام أصحابها في عالم العلم وخصوصاً عند أئمة النقد أولنقص تقديرهِ ما يُفرَض على المؤرخ من التدقيق

١ PRÉVOST ٢ FRÉRON ٣ MARMONTEL ٤ HOFFMAN ٥ GEOFFORY ٦ FELETZ ٧ DUBOS ٨ MARIVAUX ٩ MONTESQUIEU
١٠ MERCIÉRE ١١ ROUSSEAU

اسماء بعض الاعلام الذين شرف وجودهم ذلك القرن ومهد سبل نجاح وتقدم هذا الفن حتي وصل الى ما نراهُ لهُ اليوم من الفوائد التي تفوق الاحصاء

فان ذكرت بيرّوْل[١] وبُوالوْ ولابرويار[٢] وفينيلون فلن اتغاضى عن ذكر فونتينيل[٣] الملقّب بالكتوم فانه معما كان على ظاهره من الكتمان وما كان ينطق به لسان حاله من التحذر قد حل آخر رمز من رموز النقد وقد أعانه في ذلك بأي[٤] وهو أحد الاعلام الذين قضوا عمرهم وراء نزع الفكر التقليدي من عقول الناس باعتقادهم ان الأقدمين كانوا أسعد منهم حالاً واسمى ذكاء وهو الذي نشر مذهب الحؤول وتعريفهُ : ان لا شيء ثابت على وجه الغبراء فالعلوم الادبية وغيرها ومثلها الفنون كلها عُرْضَةَ التغيير والتحويل بصورة نسبية أي خاضعة لحالات الزمان والمكان

وعقَبَ هؤلاء نقّادو القرن الثامن عشر وهؤلاء انقسموا الى فئتين فئة كان ذووها اهل التقليد وفي رأسهم

١ PERRAULT ٢ LA BRUYÉRE ٣ FONTENELLE ٤ BAYLE

لنتعلم ان نوازن بين الاشيآء ونقابلها بشَبَهِها الطبيعي"

وذكر المصور تيستيلان(١) لفظة الطبيعي" بمعناها المفهوم منا اليوم فقال ان المذهب الذي يدعونهُ مذهب الطبيعيين يفرض وجوب محاكاة صنيع الطبيعة في كل شيء أتمّ المحاكاة

ومنذ يومئذ ابتدأ عندهم النقد الحقيقي للصناعات الجميلة واهتم اربابها ببسط البراهين الساطعة على صحة المبادئ القويمة التي يتبعونها وزكنوا ان استحسان الجمهور لمصنوعاتهم ليس غاية المطلوب بل هنالك أمرٌ أهمّ واعظم ذاك ان يدري العامل بأي وسيلة حاز ذلك الاستحسان. وعندئذٍ بلغ النقَّاشون والمصورون مقاماً من البراعة والاتقان ورسوخاً في معرفة هذين الفنّين لم يبلغهما مَن جآء بعدهم من دُعاة ديدروِ واشياعه

ولو شئت الاتيان على كل ما بذله نقادو القرن السابع عشر من الاجتهاد وما وصلوا اليه من الترقي لطال بي مجال القول الا اني قضآءً لحقوق التاريخ لا أرى بدّاً من ذكر

١ TESTELIN

وقد بنوا أحكامهم في نقد التصوير والنقش على نفس القواعد العامة في نقدهم الفنون الأدبية ويُنسب ذلك الى ديديرو[١] قالوا انه أول من عرض الصور والتماثيل لنقد الناقدين في بهوٍ من منزله ثم كتب كتابهُ المترجم بالابهآء[٢] قالوا وحيث ان هذا الكتاب لم يطبع قبل سنة ١٨٤٠ فلهذا لم يطّلع عليه أهل القرن الثامن عشر والنصف الأول من القرن التاسع عشر وقد فات هؤلآء القائلين ان دار الندوة الملكية عندهم كانت أصدرت حكماً وقراراً منذ السابع من ايار سنة ١٦٦٧ — أي قبل ان يخلق ديدورو بست وأربعين سنة — مفاده البحث والمفاوضة في التصوير والنقش وما يتعلق بهما

ومما يحسن ايراده هنا ما قاله المصور أودري[٣] عن أستاذه لارجيليار[٤] وهو غاية الغايات في تحديد الجمال وهذا مفاده اذا نظر العاقل الى مكوّنات الطبيعة بالنظر الصادق اباحتهُ أسرارها ومنحتهُ انوارها وبها يمتاز الافراد العقلآء من عامة البشر وقال أيضاً ولم يضع القواعد واضعوها الا

١ DIDEROT ٢ SALONS ٣ OUDRY ٤ LARGILIÈRE .

بأول كتابه قلتُ بل مامَهَّدَه أشدُّ من الذنب لان فيه تضليل فأيُّ عقل سليم يتصوَّر ان الماء أو الارض تتكلم او تفهم الكلام ؟

ومثل ذلك قول الارجاني والحليّ فهو خروج عن المشهود والمعقول وحقٌّ هذه الحكايات وامثالها من نثر ونظم ان ان تُجمع في كتاب يُسمَّى خرافات واكاذيب أدبآء العرب لاعجائب المخلوقات وغرائب أهل الأَدب

فقد رأيت كيف ان الصدق هو قاعدة النقد فمن صدق في كلامه وتشبيهِ في كل فنّ وصناعة فقد بلغ غاية التمام في ذلك الفن وتلك الصناعة بشرط استيفآئه كل وجوه الصدق وحقوقه في محاكاة الطبيعة وبراعة اللفظ والبلاغة وحسن النسج والتركيب ودقة الصناعة الى غير ذلك من وجوه المحسَّنات كما سبق القول لبلوغ غاية التمام اما الاغراب والاغراق توسلاً الى بلوغ ذلك فهو على حد قولهِ

تسألني أمُّ الوليد جملا … يمشي رويداً ويكون أوَّلا

وذلك رَابع المستحيلات

أما نقد الفنون في فرنسا فقد كان في القرن السابع عشر

وما الدهرُ لولا انهُ لكَ خادمٌ   وما الارضُ لولا انها لكَ دارُ

وكقول الحلّي

لو قابلَ الاعمى غدا بصيرا   ولو رأى ميتاً غدا منشورا
ولو يشا كانَ الظلامُ نورا   ولو أتاهُ الليـلُ مستجيرا

آمنهُ من سطوات الفجرِ

قال الشيخ العلامة اليازجي عند ذكر هذه الابيات وامثالها من الهذيان*: وكل هذا مما لا يقبله العقل ولا يحسن في الذوق ومن العجب ان يخترع المرء مثل هذه الخرافات:

قلت واعجب من هذا ان يقبل الممدوح مثل هذا الكلام ويجيز المادح عليه والعجب كل العجب ان يوجد من يقرأ عجائب المخلوقات ويصدق كلَّ مافيه. لان قاعدة الرواية أو الوصف أو المدح هي الصدق كما تقدم وعدم الخروج عن المعقول فأيُّ صدق في رواية القزويني وأمّا من العجب ان ينقل هذا الرجل الحكاية بل الاكذوبة المذكورة وامثالها في كتابه عجائب المخلوقات؟ وان قلت انهُ مهَّدَ لنفسه العذر

(*) مجلة الضيا السنة الثانية مقالة الشعر

اشكال أزهاره وغير ذلك فان صوَّر شيئاً ليس له غصون ولا أوراق ولا أزهار ولا اثمار وسمّاهُ شجرةً عابهُ المنتقد وفنَّد عمله لانه شذّ عن القاعدة الطبيعية وهي هذه الاشجار المعروفة على الارض . ومثل ذلك اذا اخذ المؤرخ أو الكاتب أو الشاعر في الرواية أو الوصف تعيَّن عليه ان يجتنب الكذب ويبعد عن الايغال في آفاق الخيال بقصد الاغراب كقول القزويني عن صاحب تحفة الغرائب : بارض الجبال بقرب نهاوند عينٌ في شعب جبل من احتاج الى المآء لسقي الارض يمشي اليها ويدخل الشعب وعنده يقول بصوت رفيع اني محتاج الى المآء ثم يمشي نحو زرعه فالمآء يجري نحوه فاذا انقضت حاجته يرجع الى الشعب عند العين ويقول قد كفاني المآء ويضرب برجله على الارض فان المآء ينقطع :

أو كقول الارجّاني مادحاً

وماكانَ يغشى البدرَ لو كنت جارَهُ ... خسوفٌ يغطّي رسمَهُ وسرارُ
ولكنَّهُ من نور عزّك قابسٌ ... فلا غروَ ان لوَّى خطاهُ عثارُ

. . . .

هما هما في كل العصور : الكلمة لراصّين من مقدمة روايته « ايفيّجيني »

ومما تقدم بسطه تعلم ان القواعد لم ترسل على عواهنها أو دون برهان كما يُظَن لاول وهلةٍ بل ان سلطان هذه القواعد وأحكامها قد أُسّسا على أساس لا يتزعزع ولا يتبدَّل ولا يقبل التغيير في كل زمان وهو عامّ في كل مكان وبهذا امتاز فن النقد على ما سواه من الفنون وتصدّر علماؤهُ للسيطرة على سائر العلوم

وزيادةً في ايضاح هذا الرأي أقول لو رام مصوّرٌ تصوير شجرةٍ لتحتم عليه ان يتخذ قاعدة تصويره احدى الاشجار المعروفة على الارض (*) وله بعد ذلك ان يتفنن في شكلها من الطول أو القصر الاستقامة أو الاعوجاج كثرة الغصون والفروع أوقلتها زيادة الاوراق أو نقصها كبر الثمر أو صغره الى غير ذلك من تعدد ألوانه واختلاف

(*) ويكفي لذلك ان يتصور شكلها في ذهنه لا ان يذهب الى شجرة يضعها نصب عينيه ويتبع رأي لونجان وجماعته من اهل القرون الاولى القائلين بايجاد الوسائل والموضوعات فقد سبق دحض هذا الرأي

مشاهير شعرآئهم عن طرحها على علمآء عصره مع تسهيل سبل حلّها فقال ان كانت القواعد التي جرينا عليها الى اليوم قد اعتُبرت قواعد فذاك لانها مطابقة لما استعمله بيندروس وهوميروس في أشعارهم الآ انها ولا ريب اكثر مطابقةً للطبيعة وأوفر قرباً من الصواب الذي هو موضوع تبصرة لكل عاقل

وهذا كان مذهب شاعرهم موليار[١] في روايته: انتقاد مدرسة النساء: كما انه مذهب الشاعر راصين[٢] في اكثر مقدمات كتبه ومثلهما لافونتين[٣] من اكابر شعرآئهم وبوالو وكلهم كانوا يرون ان اجلّ كتب الادب والفنون وأعظمها قدراً ما كانت بها الموصوفات أوفر موافقة للحقيقة واكثر مقاربة للطبيعة وهي أعلق في نفس القارئ تزيده ولوعاً بقرآءتها وتبعدهُ عن الملل كأَن صفحاتها المراد بهذا القول

يزيدكَ وجههُ حسناً اذا ما زدتَهُ نظرا

وقد عرف القدماء ذلك لان: الصواب والادراك

١ MOLIÈRE ٢ RACINE ٣ LA FONTAINE

لم يكن مهتمًّا اول أمره بشيءٍ اهتمامه بهذه الغاية ولعلها كانت وحدها غرض مؤسسه

وكانت تلك القواعد — أي تقليد عظماء الكتّاب باخذ ما استُحسن منهم مع تبديل الموضوعات — كل علم النقد عندهم وكان لِقِدمها اعتبار ما بعدهُ غاية لمتطلع ونصيب مَن يشذّ عنها الخذلان ولو جاءَ بفصاحة سحبان وكانوا يعدُّون من لم يخضع لاحكامها خارجيًّا قد أتى شيئًا فريًّا يضع من كرامة القديم وكل ّما بهِ من جلالٍ وسرّ عظيم

بيدَ انهُ لم ينتهِ ذلك القرن حتى قام ديكارت[١] وبسكال[٢] فخرَقا حجاب ذلك الاحترام للكتب القديمة ومهّدا بذلك السبيل للاستفهام عن أساس تلك القواعد ومنزلتها من الصواب، وهل ان مزيتها الوحيدة كونها قد محّصها القدماء ولاجل هذه المزية يجب الاعتماد عليها والمغالاة بها؟ أوَ ليس في الامكان وضع هذه القواعد على أساس أشد ثباتًا أم دعمها بما هو أمتن مما دعموه؟ تلك المسائل لم يتأخر بوالو أحد

١ DESCARTES ٢ PASCAL

حتى جعل جواب حبيبه اكذب بادعائه عليهِ بسرقة التورّد من خدهِ واين هذا من صدق الخطاب في الابيات الاولى · عودٌ على ما تقدّم ومن أحسن ما أُلِّفَ عندهم لذلك العهد كتاب الفنون الشعرية لمؤلفهِ سكاليجه[١] وهو من أهل القرن السادس عشر

وكان علمآء الفرنسويين يومئذٍ قد جروا شوطاً بعيداً في طريق النقد وعرفوا الصفات المحدودة التي يبلغ بها غاية التمام من نال منها حظاً فاخذوا في تقليد كتابات المشاهير ممن كانت كتبهم موضع اعجاب المتقدمين وفخرهم وكان نيل هذه الغاية منتهى اطماع بلزاك[٢] وشابلان[٣] ولم يكن كورنيل أقل طمعاً منهما في ذلك . وقد نتج من اجتهاد هؤلاء الافراد وثقة معاصريهم برسوخ علمهم طريقةٌ علمية هي الثقة الكاملة بقواعد النقد التي اتخذوها وموضوعهِ الذي استخلصوه معها من الكتب القديمة ثم اقتصروا من ذلك كله على مراقبة القواعد. حتى ان المجمع الفرنسوي[٤] نفسه

١ SCALIGER ٢ BALZAC ٣ CHAPELAIN ٤ L'ACADÉMIE

قلوب السامعين . اذاً سرُّ التأثير اعطاء المعاني حقها من الالفاظ وحسن التركيب والوزن والقافية والجمال الطبيعي بحيث انه لو أبدل لفظ بلفظ آخر فَقَدَ تأثير الكلام أو بعضهُ ومثل ذلك لو أبدل تركيب بغيره . وهذا لا يبصر به الا أكابر الناقدين ولا يتهيأَّ الا للمبدعين الذين أوتوا من العلم حظاً كبيراً وبلغوا من النظم والانشاء غاية التمام وقد يعرض لبعضهم شيء منه في بعض الاحايين كرميةٍ من غير رام

والمراد بالجمال الطبيعي الذي ذكرته لك آنفاً البعد عن التكلّف والتصنّع والتعمّل والتقليد ثم مطاوعة القريحة والجري مع الطبع كقول أبي الطيب

ابلغ مايطلب النجاحُ به الـ ـطبعُ وعنـد التعمّق الزللُ

ألا ترى كيف ان مسحة البساطة قد زادت في جمال الابيات الاولى اذ حكى العاشق حكايةً لا يشوبها تصنّع أو تكلّف ورونق الصدق ظاهر في كل معنًى من معانيها واين منها الابيات الثانية فان التعمل بادٍ على ديباجتها اذ بدأ الشاعر يكذب على الحبيب بدعوى احمرار العين ولم يكفهِ كذبه

أمري الى من أهوى فقالت هذا كلام من ضجر من العشق فانا اسأل الله لك العافية منهُ فكتمت الجوى فقالت وما كان عهدنا بالمحبين كل هذا الصبر والكتمان وقد توسلتُ بالقرب فابعدتني ونائيتُ التماس رضاها فعدّت ذلك عليَّ من السيئات فان شكوتُ غضبَتْ وان كتمتُ أو صبرتُ استآءت وان هربتُ أو اختفيتُ قلقتْ وان دنوتُ أو اقتربتُ صدّتْ وتباعدتْ فهل من يرشدني الى حيلة أنالُ بها قربها وأفوز برضاها ولهُ مني مزيد الشكر ومن الله وافر الاجر

فان المعنى في المنظوم والمنثور واحد وانت ترى ان تأثير الابيات الأُولى في قلب السامع هو غير التأثير الذي لحلّها المنثور وغير التأثير الذي للابيات الثانية فما هو السرُّ في ذلك ؟ فان قلتَ انه الوزن والقافية قلتُ قد اجتمع ذلك في الابيات الثانية وان قلتَ انه في استيفاآء المعنى بجملتهِ قلتُ قد تمَّ ذلك في المنثور المحلول وان قلتَ في كل ذلك معاً أي المعنى والوزن والقافية واللفظ قلتُ قد يحصل ذلك بجملته في غير هذا التركيب ولا ينال هذا الحظ من

شكوتُ فقالتْ كلُّ هـذا تبرّمًا
بحبّي أراحَ الله قلبك من حبي
فلما كتمتُ الحبَّ قالت لَشَدَّ ما
صبرتَ وماهذا بفعلِ شجي القلبِ
وادنو فتقْصيني فأبعدُ طالبًا
رِضاها فتعتد التباعدَ من ذنبي
فشكوايَ تؤذيها وصبري يسوؤها
وتجزعُ من بُعدي وتنفرُ من قربي
فيا قومِ هل من حيلةٍ تعلمونَها
أشيروا بها واستوجبوا الشكرَ من ربي
أو تسمع قول الآخر
شكوتُ سهادي للحبيبِ ولوعتي
وقلتُ احمرارُ العينِ ينبئكَ عن وجدي
فقال مُحالاً ما ادَّعيتَ وانما
سرقتَ بعينيكَ التوردَ من خدّي
او كأن تسمع حلّ الابيات الأُولى وهو هذا شكوت

(لابليَّاد)[١] وفي ذلك العصر ظهرت آثار للناقدين وكتب عديدة عليها سيمياء تهليل أصحابها لعثورهم على كنوز الكتب القديمة وقد أثارت قراءتها فيهم شدة الحماسة ورغبة التشبه بأعاظم علماء الطليان كدانتي وبوكاجه وپيترارك واريوسته[٢] وبمبوْ[٣] فطرسوا على آثارهم بل طمعوا في محاكاتهم وقد تركوا في هذه النهضة الاولى من تاريخ النقد في بلادهم كتباً هي بدائع الغرر ونواصع الدرر رتَّبوا فيها كل ما وقفوا عليهِ من مخبآت تلك الكنوز الثمينة بين شرح وتلخيص وتاريخ وتحديد بل لم يقفوا عند هذا الحدّ فاقتدوا بالوْنجان في نقده وهاموا ببدائع أسرار الانتقاد واستفرغوا مجهودهم في كشف النقاب عن سرّ التأثير الذي يجده القارئ أو السامع من الكتب أو الخطب أو الاشعار المنقودة نفسها(*) كأن تقرأ أو تسمع هذه الابيات

---

١ LA PLÉIADE ٢ ARIOSTE ٣ BEMBO

(*) والمراد بالمنقود من الاشعار والكتابات هي تلك التي ينتقدها مؤلفوها أكثر من مرة ويمحصون معانيها وألفاظها ونسجها وتأثيرها في آذان السامعين ثم يعرضونها على اصحابهم ممن يثقون بعلمهم أو بصدق نقدهم حتى تخرج من بين أيديهم كما يخرج الخاتم المجلو من يد الصائغ الماهر بعد ان يكون قد أعاد حكه وصقله المرة بعد المرة حتى لا يبقى فيه عيب لناظر

من أهل القرن السادس عشر الى فيكتوْر هوُغوْ(١) حتى يومنا هذا لم يظهر عندهم أثر آثار من النشاط في علوم الأدب أو مظهرٌ من مظاهر الحسن والترقيّ في الانشآء والشعر والتركيب ودقة الوصف وحسن التعبير وعلى الجملة في جمال الذوق الادبي وكمالهِ الا وكان النقد رائدَهُ وقائدَه

وانت اذا انعمت النظر في تآليف أكابر كُتَّابهم كرونسار ودوبيلاّي(٢) وماليرب(٣) وبوالوّ(٤) وفولتير وشاتوْبريان(٥) وهوغو علمت انهم لم يصلوا الى المنزلة التي وصلوا اليها ولم تَرُجْ مؤلفاتهم ذلك الرواج الا لعدولهم عن التقليد القديم واطلاقهم العنان لقرائحهم وذوقهم في مذاهب الكتابة . فلم يكن لهم من ثمَّة غير النقد كافل يكفل تخليد مؤلفاتهم وشهرتهم وقدكان صواب النقد لهم سنداً وعضداً

وأول تاريخ للنقد في فرنسا يرتقي الى سنة ١٥٥٠ وذلك منذ نشر دوبيُلاّى كتابه « الدفاع عن آداب اللغة الفرنسوية » لعهد ظهور عِصبة الشعرآء وهي الملقبة بالكواكب السبعة

---

١ VICTOR HUGO ٢ DU BELLAY ٣ MALHERBE
٤ BOILEAU ٥ CHATEAUBRIAUD

فدوّن التاريخ الانساني الاسباني وفعل مثله الكاتب الفرنسوي أميل جُروشير [١] فدوّن في كتابه « تاريخ المذاهب الالمانية في علمي الأَدب والبديع » طبقات النقد الالماني منذ عهد اوپيتز من [٢] أهل القرن السابع عشر الى ليسّينغ [٣] من ذوي القرن الثامن عشر . اما الانكليز وان لم يكن عندهم للنقد تاريخ متتابع فلهم فيه أثر جليل ومن يطالع مؤلف هَلاَّم [٤] « تاريخ الاداب في أوروبا الحديثة من سنة ١٤٥٠ الى سنة ١٧٠٠ وما بعدها » يستدرُّ منه غزير الفوائد ومثل ذلك من كتاب هِتنِر [٥] « تاريخ علوم الأدب الانكليزية » المجلد الأول

واما الفرنسويون فهم أشدُّ الامم اعجاباً بتاريخ النقد الفرنسوي لأَنهُ ان كان الايطاليان والانكليز لم يهملوا اسماءَ نقَّاديهم فانهم لم يذكروهم في بعض الكتب التاريخية الا عرَضاً وعلى سبيل الاستطراد وأين من ذلك تاريخ النقد الفرنسوي فانه تاريخٌ مُطَّرد متتابع منذ ثلاث مئة سنة . وقد كان روح حياة العلوم الأَدبية في فرنسا : فمنذ رونسار [٦]

١ EMIL GRUCHER ٢ OPTIZ ٣ LESSING ٤ HALLAM
٥ HETTNER ٦ RONSARD

الانسانى » غير ان مواد هذا التاريخ مفرّقة مبعثرة في كل مصرٍ لا يهتدى اليها الا بعد نَصَبٍ طويل

ولولم يكن من فوائد هذا التاريخ سوى الوقوف على آراء علماء الانبعاث العلمي في النقد وغيره من علوم الأَدب لكفى بذلك نفعاً موفوراً وحسبك ان علماء اروْپا منذ أربع أو خمس مئة عام مازالوا يحذون حذو أولئك العلماء في تفهّم العلوم الأَدبية وتقرير ما قروه والخضوع لما قضى به أولئك الباحثون في أصل اللغات دون ان يعلموا بالتفصيل كُنْهَ ما بنوا عليه تلك الاحكام وما الذي يجدر التمسك به منها وما الذي يجب اهماله اذ كلُّ ما وصل اليهم من ذلك اجماليٌّ بلا برهان يعوّل عليه

على ان ايطاليا اليق مَن يُطَالَب بتحقيق هذه الامنية في هذا العصر عصر جِدَّة العلوم وانبعاث النقد . ولقد تقدم الايطاليان بذلك أحد علماء الاسبانيول الاستاذ ما ناندوْز إي پيلاَّيو [1] بكتابه « تاريخ اراء الاسبان في تحديد الحسن »

[1] MENENDORZ YPELAYO

وتحرر من تقليد علمآء الانبعاث وعصى ما رسمهُ علمآء القرن القرن السادس عشر من تقاليدهم واعتبارهم نقد أصل اللغات كمال النقد ومنتهى غايته

ومما كان يجب ان يتنبّه لهُ علماء القرون الحديثة وأولها السادس عشر التطريس على آثار علمآء البطالسة(١) ونبش كنوز القرون القديمة التي بعثرها أهل القرون المتوسطة وألقوا على ما وصل اليهم منها — أي من تلك الكتب والعلوم — حجاباً كثيفاً من الاهمال الا ان ذلك كان عقبة العقبات

بيد ان قطعها لم يُرع بعض ابطال المحققين مثل بايّه الذي تقدم ذكره صاحب كتاب محاكمة العلماء وهو الذي سرد لنا أسمآء تكاد لا تنتهي من أسمآء النقَّادين الذين اشتغلوا بنقد النحويين أو بأصل اللغات الا ان ذلك كان بعض المطلوب

ولقد ثبت ان أنجح موصل الى هذه الامنية هو تدوين تاريخ العلوم الأَدبية وفن الانتقاد لعهد الانبعاث العلمي في ايطاليا وهذا التاريخ يُسمَّى في عرف علماء الفرنجة « بالتاريخ

١ PTOLÉMÉES

الحالي من الترقي والكمال — وهو كما علمت من أثمار اجتهاد علمآء الانبعاث — قد أعان فن الانتقاد كل العون وساعده على النمو وبلوغهِ سن الرشاد

على ان القرون المتوسطة وان كانت قد خلت فقد خلّفت اسمين يدوّن احرفهما تاريخ النقد بمآء الذهب وحسبك بكتاب الفصاحة العامَّة لدانتي وبكتابات پترارك[1] في اللغات ما يخلّد لهما أجلّ ذكر بين نقَّادي العصر

الفصل الرابع

في

النقد في القرون الحديثة*

اعلم ان النقد لم ينتشر لعصرنا هذا الانتشار ولم يبلغ هذا المبلغ من الكمال الآ بعد ان انحلَّ من قيود التقليد القديم

١ PÉTRARQUE

(*) القرون الحديثة هي في عرف علمآء الفرنجة ما ابتدأ من أول القرن السادس عشر وانتهى سنة ١٨١٥

تنعت تلك القرون بهذا النعت لنقص العلماء والفلاسفة فقد كانوا كما علمت كثيري العدد ولكن لأَن العلوم كانت مقيّدة محدودة والافكار محصورة بمنطق الاستبداد ولم يزل هذا حالها الى ان جاء زمن الانبعاث العلميّ في ايطاليا فحرر العقول من الاسترقاق لبعض العلوم واطلق الانسان من ظُلَم العبودية وفك قيودهُ من الأُسر لها والخضوع لمناقضات يأباها المنطق وينفر منها الصواب

بيد ان علماء تلك القرون المظلمة بعد ان كتبوا ما ما كتبوه وارتأوا ما ارتأوهُ وحشوا كتبهم من آراء نعدّها اليوم صبيانية ومناظرات وجدالاتٍ لا طائل تحتها قطعوا بها الاوقات جُزَافاً . جآء علماء الانبعاث فغيّرُوا مبادئ تلك العلوم وأغاروا على حصون تلك الأَوهام والمناقضات فدكّوها دكاًّ ومهدوا السبيل لعلوم جديدة جليلة موضوعها ترجمة الافكار والتعبير عن الاخلاق والعواطف وأداب النفس بأوضح اشارة وأفصح بيان

وعلى الجملة فان ظهور العلوم الادبيّة لهذا العهد في مظهرها

اصحاب الاقلام بل قد سرى في عروق الخطباء قبل ان يسري في عروق هؤلاء ثم انهُ خالط دماء المصورين المشهورين واكابر النقّاشين ونوابغ المغنّين والبارعين في سائر الفنون العقلية والصناعات الجميلة

بيد ان هذا الطموح الى الشرف والمعالي وذاك الظما الى المفاخرة بفوت الاقران وذيّاك الشغف بالابداع أو الطمع بالخلود أوما يُعبَّر عن ذلك كله « بالتعرض والتصدي لحسد المستحسنين » لم ينبض للنزوع اليهِ عرق من عروق تبّاع هوْميروْس وظلَّ هذا الروح ساكناً أو مجهولاً خمسة قرون الى أن نُشِرَ قبل مولد عيسى عم بخمس مئة عام ودبّ في أجسام اليونان من تبّاع پندروس[1] الشاعر وتوثيديدوس[2] المؤرخ اليونانيين وهذا الروح تمشى في مفاصل الرومان من تبّاع شيشيرون[3] وفيرجيل[4] قبل المسيح بمئة عام

فقد علمت مما تقدم طرفاً من أحوال العلوم والفنون في القرون المتوسطة وهي التي يدعونها عندهم بالمظلمة ولم

١ PINDARES ٢ THUCIDIDES ٣ CICÉRON ٤ VIRGILE

استحسانهم مصنوعه . وهو تعريف بالغ اقصى غايات الاقناع والصواب وقد شعر بذلك شاعرنا البحتري وألمَّ بهذا المعنى فقال :

وكم لكَ من يدٍ بيضاءَ عندي لها فضلٌ لفضلكَ في الايادي
ومن نعماءَ يحسدني عليها اداني أُسرتي وذووا ودادي

وقال في محل آخر

وألبستني النعمى التي غيّرتْ أَخي عليَّ فأمسى نازحَ الدارِ اجنبا

على ان المشهور ان أُسرة المرء وذوي وداده يفرحون لسعادته ولكن كأَنما هذا الفرح محدود ولهُ شروط لا يجب أن يتجاوزها أَو يتعداها فاذا بلغت نعمة المرء غاية التمام — بنسبة منزلته — اصبح محسوداً من اخوته وما بعدهم من الاقارب كأَنه جاء شيئاً فريًّا اذ تجاوز حد النعمة الذي رسموهُ لهُ وتمنَّوهُ عند ما كان غرض شفقتهم ورحمتهم واذا تبصّرتَ في ذلك وجدتهُ شائعاً بين الخلق في كل مكان وزمان سنَّة الله في خلقه

وهذا الروح غير مقصور على الشعرآء والكتاب وسائر

انفاس طبقته فلا تستطيع ان تميّز أو تحدّد درجة الكاتب او طبقته في عالم الانشآء والكتابة فانشآء الامير الفلاني كانشآء الامير الآخر وتراكيب بل تعبير القس الباريسي ومنزلته من النظم هي بوجه التقريب نفس تراكيب وتعبير القس البرليني أَو الروماوي ولقد صدق من قال انّهم كذّبوا بوفّون[١] بقوله مرآة المرءِ انشاؤهُ

واعلم انه قد ذهب اكثر النقّادين الى ان النقد لا يصح أو لا يمكن الا على **المؤلفات الشخصية** وهذا النعت أي **المؤلفات الشخصية** اطلقه العالم يعقوب بورخار[٢] في كتابه: «حضارة ايطاليا في زمن الانبعاث[٣] العلمي» والمراد **بالمؤلفات الشخصية** كلّ كتابة يسري في عروق مؤلفها روح يطمح نحو المجد او الجمال وقد اختلف العلماء والشعرآء في وصف هذا الروح وتعريفه فقال بوكاجّه[٤] هو طَمَعُ الخُلودِ وقال دانتي [٥] هو الشغَفُ بالابداع ومحصّل كلام اكثر الفلاسفة انه روحٌ يدفع صاحبه الى ان يعرض نفسه لحسد من يلتمس

١ BUFFON ٢ JACOB BURCHKARDT ٣ LA RENAISSNCE ٤ BOCCACE
٥ DANTE

اعظم اركانه . وبالتالي لا يتأتّى لنا ان ننقد كتاباتهم للتمييز بين فكر وآخر او كشف مزية مخفيّةٍ طيّ المعاني او ذوق حسن أَو رأيٍ مصيبٍ او قلبٍ مخلص أَو غير ذلك من الاغراض والخواطر لما انّهم كانوا يلتزمون طريقةً ثابتة في التأليف ليس فيها شيء يدلّ على كاتبها او سنّهِ أَو جنسهِ بل لم يَدُرْ في خَلَدهم ان يصوّروا في كتاباتهم أَوان يتركوا على قراطيسهم أثراً من عواطفهم أو شيئاً من أحوالهم الشخصية ومكنونات ضمائرهم . وحدّ ما كان يُفهم من كتابتهم انها جنوبية أو شمالية — كما كان يمضي اكثرهم — يريد بذلك ان رأيهُ أو مذهبه مذهب أهـل جنوب تلك المملكة أو شمالها . هذا حالهم في العموم والنادر لا حكم له

وقد كانوا يسترون اسماءهم ويلبسون مؤلفاتهم ثوباً واحداً من التعريف والتمييز ذاك ثوب مقامهم في المجتمع المدنيّ فان كان الكاتب أميراً رأيتَ على وجه كتابته مسحة التأمير وان كان من القسيسين عبق من انشائه ريح الدين وان كان من السُوقة بدت على ديباجة لفظه

ولكن اذا سبرت احوال الأمم في تلك العصور ظهر لك شيء من الاسباب التي قضت بانحطاط فنّ النقد عندهم وما شاكله من الفنون . ذلك ان الرجل منهم كان قبل ان يملك شيئاً من امره يرتبط وهو فتىً او يربطهُ اهله بعهد خطيّ أو تقليديّ مع شيعةٍ او عصبةٍ من قومه فان نشأَ في أُسرة نبيلة لم يكن له بد من التطريس على آثار قومه الامرآء يحذو حذوهم ويأخذ اخذهم . وان ترعرع في شيعة دينية لم يجد مندوحةً لاعتقاد لم يعتقدوه وزعم لم يزعموه . وان كان صانعاً او اجيراً فليس لهُ ان يقول الاَّ ما قالهُ استاذه ولا ان يطرّح غير ما نبذه نبّاذه فهو على الجملة نسخةٌ عن والده وصدى مسترقّهِ او مستعبده وقد أَلفوا هذه الحالة حتى صارت لهم ملكة وطبيعة وهذا كلّهُ ثمرة فقدان الآداب الصحيحة وحريَّة التعليم بل نتيجة استبداد الحكام في سائر اقطار المغرب لذلك العهد فلم يكن للكاتب رأْيٌ يرتئيه أَو خاطر يبديه غير ما يراهُ اصحابهُ وعترته وأَولياؤهُ وشيعته ولم يكن لهم ثمّةَ سبيل للنقد لفقدانهم حرية النطق والكتابة وهما من

الفصل الثالث

في

النقد في القرون المتوسطة (*)

اعلم انني لو ضربت صفحاً عن احوال النقد في القرون المتوسطة لما خسر طالب هذا العلم كبير أمر . بيدَ انهُ لا يستغني المستفيد عن معرفة الاسباب التي بعثت تلك الاجيال على اطّراح النقد وسجّلت امحالَهُ حقبةً من الدهر لا تنقص عن سبعة او ثمانية قرون

فاعلم ان الشعرآء والنحويين لم يكونوا قليلي العدد في تلك القرون ولا الفلاسفة ولا ارباب الفنون وانَّ قوماً نبغ فيهم مثل توما الاكويني قدّيسهم الملقّب بشرف الكنائس وشمس المدارس لم تكن سوق العلم عندهم كاسدة ولا هم عنها مبعدون

(*) القرون المتوسطة عند الفرنجة هي المبتدئة من أوائل القرن السابع للمسيح الى أوائل القرن الخامس عشر

من شأنها مطابقة الصورة الذهنية كأَن يريد الشاعر وصف سمآء صافية ببدرها ونجومها فعليه ان يقصد بلاد المشرق ويصعد الى جبل من الجبال العالية في ليلة لا يشوبها مطر أو غيم أو زوابع أو اعصار أو كأَن يروم وصف حادثة من الحوادث التاريخية كغرق فرعون في البحر الأَحمر أو عرساً من أعراس عرب البادية فيتحتم عليه ان يذهب الى ساحل من سواحل البحر الاحمر وان يقصد قبيلة من قبائل العرب فينظرَ عاداتهم وخيامهم وهوادجهم ونسآءهم وشبَّانهم وغناءهم ورقصهم وسائر أحوالهم . فهذا مايعبّرون عنهُ **بايجاد الوسائل أو الموضوعات** المطابقة للصور الذهنية أو الخيالية

وسوف ترى نتائج هذه الاوهام السقيمة فتعلم انّ فنَّ النقد قد عانى في عصرنا هذا جهداً عظيماً للتحرير من رقّ هذا الخطإ الفاحش

اليونانية وفضَّلهُ فينيلوْن[1] على كتاب الفصاحة لاريسطو وحسبنا القول انه اذا عُدَّ كتاب الفنون الشعرية لاريسطو فاتحة فن النقد في التاريخ القديم فكتاب لونجان قواعد غاية التمام هو الخاتمة

ومما انفرد به الكتاب المذكور هو تمسُّك علماء البلاغة بقواعده دهراً طويلاً . وأهم تلك القواعد معرفة الوسائل التي توسَّل بها هوميروس وايخيلّوس[2] وافلاطون وديموستين وامثالهم من الفحول المغلقين للبلوغ الى غاية التمام كأَنهم يَرَوْن انه لايحول دون بلوغ غاية التمام من الاجادة في الشعر والكتابة والخطابة والصناعات الجميلة الا جهل هذه الوسائل وانه متى عرفها المرء تمكَّن من بلوغ غاية التمام في فن أو أكثر من هذه الفنون

ويتبع اعتقادهم هذا زعمهم ان موضوع النقد غير قائم في تحديد قانون انواعه أو في درس طرق سيره وذلك بالبحث عنها في صفحات التاريخ ولكن في تحصيل وايجاد وسائل

١ FÉNÉLON ٢ ESCHIL

ذلك بالفصاحة . ومن ذلك يُظن ان الرومان كانوا يرون فن النقد من الفنون البعيدة عن الحسيَّات والحاجيَّات وضرورات العيش الحيوانيَّة وانه من كماليَّات الأَدب التي تعلو بخفتها عن ثِقَلهم ولذلك أعرضوا عنه أو خفضوهُ عن مقام علمي النحو والفصاحة وتركوا الاشتغال بترقّيه لبقية اليونان التي كانت باقيةً لعهدهم

وكان باقياً من هؤلاء بلوتارك[١] صاحب كتاب الوسيلة لتفهّم الشعراء وكتاب الامالّي على هوميروس وغير ذلك من الكتب ثم ديوْن[٢] الملقَّب بفم الذهب وهو أول من كتب في نقد الصناعة يروي به على لسان فيدياس المراد من نقشه تمثال جُوبيتير الاوْليمبي[٣] ثم أريستيد[٤] البليغ وهيرموجين[٥] ولوسيان[٦] النقَّاد الشهير الساموْسي من معاصري مارك أوْريل[٧]

ثم جاء بعد لوسيان لوْنجان[٨] مؤلف قواعد غاية التمام[٩] هو الكتاب الذي اختاره بوالو[١٠] للترجمة من بين جميع الكتب

١ PLUTARQUE ٢ DION ٣ JUPITER L'OLYMPIEN ٤ ARISTIDE ٥ HÉRMOGÈNE ٦ LUCIEN ٧ MARC-AURÈLE ٨ LONGIN ٩ TRAITÉ DU SUBLIME ١٠ BOILEAU

اليوس ستيلّو الروماني (١) وكان ممن أخذ عن علماء الاسكندرية فاستلفت انظار مواطنيه الى قِدَم لغتهم ومحاسن أدبيّاتها . ثم جاء بعده ڤارون (٢) بمؤلفه الكبير عن اللغة اللاتينية ولم يصل الينا منه الا الكتب الخمسة الاولى . ثم جاء قيصر (٣) بكتابه في التماثل والمتشابه وهذا أيضاً من الكتب المفقودة قال موْمسِن (٤) وكان قيصر عازماً على ان يقيّد بسلطان الشريعة لغةً كانت الى ذلك العهد دون لجام أي اللغة اللاتينية ولو تمَّ لهُ ما أراد لبلغ النقد عند الرومان مبلغاً مفيداً جداً

وعلى الجملة فان الرومان قصروا فوائد النقد على تهذيب لغتهم واعداد خطباء فصحاء للمشاحنات في دار ندوتهم المعروفة بالفوْروم (٥) وقد شذَّ من علماء رومه هوْراس (٦) بما كتبهُ في أهاجيه ورسائله وفي كتابه « فن الشعر » وما عدا هوراس هذا فانك لو تتبعت كل ما كتبه شيشرون (٧) وتاسيت (٨) وكنتيليان (٩) لا ترى ذكراً أو اشارة للشعر أو الفلسفة أو الأدب أو لفنٍ من الفنون الا اذا تعلق شيء من

---

١ LUCIUS AELIUS STILO ٢ VARON ٣ CÉSAR ٤ MOMMSEN
٥ FORUM ٦ HORACE ٧ CICÉRON ٨ TACITE ٩ QUINTILIEN

غاية تهذيبية أو أدبية لهوميروس في كل ماذكره من الخرافات المتناهية في القدم . بيد ان هذه المؤاخذات نفسها تشهد لمكان أريستاك من النقد

ومنذ زمن أريستاك كان قد تقرر كثير من القواعد الكلية لشروح المتون عند اليونان الا ان تلاميذ اريستاك وتبّاعه زادوها كشفاً وتفصيلاً وحددوا قانون العلوم الادبية بعض التحديد

ولبثت تقاليد علماء الاسكندرية الى زمن القيصر اغسطوس[١] وكان دينيس داليكارناس[٢] آخر علمائها وكان له مقام جليل عنه علماء الفرنجة حتى القرن السابع عشر وحسبك ما قاله عنهُ العالم بايّه[٣] « ان دينيس داليكارناس قاعدة لكل من كتب في هذا الباب »

وغير مستنكر ما كان لعلوم الأدب اليونانية وخصوصا الاسكندرية منها من التأثير الشديد في العلوم اللاتينية فقد بدأت بالنقد تقريباً . وقام قبل المسيح بنحو مئة وخمسين سنة لوسيوس

١ AUGUSTE ٢ DENYS D' HALICARNASSE ٣ BAILLET

اسماً ملعوناً فوق اسم زوئيل

أما نقد اريستارك فهو يختلف عن هـذا النقـد أشد الاختلاف وقيل انهُ اول من زكن ان قصيدة هوميروس الحماسية وكلَّ كتاب أدب يجب ان ينتقَد دون التغافل عن عقائد وآداب وعوائد زمن تأليفه . بيد ان اريستارك نفسه لم يتمسّك دائمـاً بهذه القاعدة بل قد خالفها في بعض انتقاداته كما فعل عند نقدهِ الاغنية الخامسة من قصيدة هوميروس المسَّماة « اوْديسّى »[١] أي « المصادفات » فانه اخـذ عـلى هوميروس قلة النزاهة البادية على وجـه خطاب أوليس[٢] ونوسيكا[٣] وحذف البيت الذي قالته الغانية وهو

هل يُريني الله بَعْلاً مثلَهُ   فيُقيمُ الدهرَ عندي برضاه[٤]

واريستاك خدم هوميروس خدمة أمينة بسائر نقـدهِ المفيد الدقيق واستخرج بساطة أقواله البـديعة من بحار الشروح الرمزية التي طرحهُ بها جمهور الشارحين لذلك العهد . ولـكن يؤخذعليه تجاوزه حد الحقيقة بالدفاع عنه فهو لا يرى

١ L' ODYSSÉE ٢ ULYSSE ٣ NAUSICAA
٤ PLUT A DIEU QU'UN TEL MARI ME VIENT
ET VOLONTIERS AVEC MOI QU'IL SE TIENT

فقال زوئيل في انتقاد هذا الشطر « لم يبالِ هوميروس بوضع النار فوق اكتاف ديوميد وقد يحترق بها البَطَل»

وورد بعد ذلك في الاغنيـة المذكورة « ان فيجه[١] البطل التروادي سقط ميتاً تحت ضربات ديوميد وان أخاهُ ايدِي[٢] غلبه الخوف والهلع فنزل عن مركبه لينجو بأوفر سرعة » فقال زوئيل هـذا ابتكار بل مزاح مبتكر من هوميروس أترى خيل ايدي لم تكن أضمن لسرعة هربه من رجليه

على ان هذا النوع من النقد لم يعدم منذ زوئيـل وله أمثلة كثيرة فقدفعل فولتير[٣] مثل ذلك عندشرحه كورنيل[٤] وفعل مثله العالم لاهرپ[٥] غير ان ذلك لم يغضب الفرنسويين قال أحد كتّابهم ان اليونان يفوقوننا باللطف والتعصب لعلمائهم وشعرائهـم اذ انهم لم يغتفروا لزوئيـل نقدهُ شعر هومـيروس شاعرهم عـلى هـذه الصـورة من الاستهزاء والاستخفاف ولذلك فانك لا تجد في جميع كتب ادبهم

١ PHÉGÉE ٢ IDÉE ٣ VOLTAIRE ٤ CORNEILLE ٥ LA HARPE

ببساطة ودقة ، فقد اعرضوا عن النظر الى الصغير من الاشياء وبحثوا فيما سميناه بعدهم بغاية التمام[١]

وكانت مدارس الاسكندرية حسب رواية العالم المحقق اجّار[٢] مشهورة بالتحقيق والتدقيق اكثر منها بالابتكار بيد انها في تاريخ النقد لها المقام العالي وذلك لسببين **اما الاول** فهو ان علماءها هم اول من انتقد أصل اللغات **واما الثاني** فلأنّهم أول من اتخذا اسميّ زوئيل[٣] وأريستارك[٤] رمزاً واشارةً في اللغة اليونانية لنوعين من النقد فالاول يشير الى النقد المهين أو العدائي ويقال عنهُ نقدٌ زوئيلي والثاني الى النقد المهذَّب الحرّ أو النقد اللطيف ويُقال عنه نقد اريستاركي

واليك شاهداً أو شاهدين تعلم منهما حد النقد الزوئيلي:

ورد في الاغنية الخامسة من ايلياذة هوميروس[٥] ان ديوميد[٦] الجندي معشوق بالاَّس[٧] قد لبس درعه وسار الى القتال وقال الشاعر عند ذلك « انه ليُخيّل ان الشرر يقدح من خوذته »

١ LE SUBLIME ٢ EGGER ٣ ZOILE ٤ ARISTARQUE ٥ HOMÈRE
٦ DIOMÈDE ٧ PALLAS

الفن قد اختلفت

على ان تبّاع ارسطو وخلفاءهم لم يجروا على سَننهِ فهذا كتاب الاخلاق لتلميذه تاوفراست[١] قد حدّد به الاخلاق البشرية ضارباً صفحاً عن كثرة تعدادها ولخّصها تلخيص شاعر فضيّق بذلك موضوع النقد وأقام لنفسه حواجز دون ترقي هذا الفن

وممن حذا حذوَ تاوفراست الفيلسوفان اريستوكثين[٢] وهيرميب[٣] وكلاهما من تبّاع ارسطو . ومن مؤلفات اريستوكثين كتابه عن الرقص المحزن ومن كتب هيرميب الكلام عمن برع في فن الانشاء من الارقّاء وهما من الكتب المفقودة . ولا شبهة ان سرد الحوادث التاريخية وغرائبها قد أخذ من هذين الكتابين مكاناً يفوق مكان النقد كشأنهم لذلك العهد وأنت تعلم ان اليونان رجلان رجلٌ عظيمٌ كارِسطو أو ديموستين[٤] ورجلٌ كولدٍ ذي ذهنٍ ثاقب يتلهّى بالموسيقى والاغاني والسِفسطة ويجهل او انه لم يعتد أن ينقد

١ THÉOPHRASTE ٢ ARISTOXÉNE ٣ HERMIPPE DE SMYRNE
٤ DÉMOSTHÈNE .

شيء من مؤلفاتهم أشبه منه بحديث المعلقات للعرب ولا أدري من أخذ عن الآخر اليونان عن العرب أم هؤلاء عن اليونان وهو بحث قد يستحيل تحقيقه

ومما يؤسف له ان اكثر كتب هذا الفيلسوف لم تصل الينا وانما الذي بلغ الينا من التعريفات وقواعد الاختراعات — وهو كتاب آخر له — ومن كتبهِ الثلاثة عن الشعراء (الفصاحة ، والشعر ، والالغاز) بعض جمل وألغاز متفرقة في كتب من جاء بعده من علماء اليونان وكفى بها دليلاً على علوّ مقامه في فن الانتقاد وبرهاناً على شدة ميله الى البحث عن كل ما كان يقع تحت حواسّهِ وولوعه بالتنقيب عن دقائق الأشياء وقد أوتيَ عقلاً سامياً سهّل له حلّ العويص والمُغلَق منها وقريحةً انفرد بها بين الفلاسفة اجمعين

وأنت اذا أنعمت النظر فيما سيمر بك بعد هذا تجد ان مسائل النقد كانت لعهد ارسطو ومن جاء بعده من فلاسفة اليونان وعلمائهم في المنزلة العالية التي هي لهذا العهد عند علماء ونقادين الفرنجة الا ان وجوه التعبير في هذا

شاعر ولكن كلاهما كانا مقصّرَين في التدقيق سابقَين في الفصاحة ورشاقة العبارة

وارسطو أول من قال يجب ان تكون أعمال العقل خاضعة لشرائع مقررة كاعمال الطبيعة وهو اول من اكتشف هذه الشرائع وأول من وضع أساسها في كتابه الديداسكاليس[1] ومعناهُ التعريفات وقد تكلم به عن التمثيل والاغاني التي كان يقيمها اليونان في اعياد باخوس[2] وذكر في كتابه هذا انهم كانوا يعلقون اسماء البارعين الحائزين الفوز عندهم مع شيءٍ من مؤلفاتهم او اشعارهم وحصَّةً من تراجمهم والاشارة الى الكتب او الحكايات التي اخذوا عنها ونسجوا على منوالها وهو كما ترى شبيه بسوق عكاظ قال الازهري عُكاظ سوق من اسواق العرب وموسم من مواسم الجاهلية وكانت قبائل العرب تجتمع بها كل سنة يتبايعون ويتفاخرون بها ويحضرها الشعراءُ فيتناشدون ما احدثوا من الشعر ثم يتفرقون انتهى كلامه وتعليقهم أسماء الفائزين منهم مع

(١) DIASCALIES (٢) BAKHUS

هذا كل ما وصلَ الينا من فن النقد عند العرب وهو كما رأيت خلا ما كتبه شيخنا العلامة اليازجي ليس من النقد في شيء والله يهدي من يشاء وهو ذو الفضل العظيم

الفصل الثاني

في

تاريخ النقد عند سائر الامم

لا يُعلم اسم الناقد الاول في القِدَم ولا واضع اسم النقد قال بعضهم انه ابولّودور [١] النحويّ اليوناني وظن غيرهم انه ايراتوستين [٢] الجغرافي وكيفما كان الامر فان النقد كان يُعمل به قبل ان يُطلق عليه اسم نقد لاننا اذا ارتقينا بالبحث الى ما قبل زمن هذين العالمين نجد ارسطو [٣] في رأس النقادين وقد اشتغل سقراط [٤] وأفلاطون [٥] قبل عصره بالبحث عن الجمال وبفحصه وتحديدهِ وكان قول سقراط في ذلك قول حكيم وكلام افلاطون كلام

١ APOLLODORE ٢ ERATHOSTHÉNE ٣ ARISTOTE ٤ SOCRATE
٥ PLATON

ثم ان الامام المشار اليهِ كتب خمسة شروط من شرائط الانتقاد نشرها في مجلتـه الضياء صفحة ٢٤٤ — ٢٤٥ من سنتها الثانية هي غاية في البلاغة وتقرير صناعة هذا الفن قال حفظهُ الله :

لم نجد في العرب من تكلم على هذا الفن ولا من أفرده في كتاب انما جلّ وظيفـة الناقد عـلى ما رأينا من صنيع اكثرهم ان يسوّئ على من ينتقد كلامه ما استطاع ويزيّف كل حسنة له حتى تنقلب سيئّة وذلك كما فعـل الخفاجي فيما سماهُ شرحاً لدرّة الغوّاص أو ان يكون عـلى عكس ذلك فيحتـال في تخريج كل وهم يسقط عليـه في كلامه وتسديد كل هفوة تبدر منه كما فعله اكثر شرّاح الكتب العلمية من اقامة انفسهـم مقـام الخدَّام للمتن فيأخذون في التوجيه والتأويل وتمحّل الاصابة فيما هو ظاهر الغلط ولا يخفى ان كلاًّ من هذين الطرفين من دواعي التضليل وستر وجوه الحقائق تحت براقع التمويه وفيه من الاضرار بالمستفيد وافساد قواعد العلم والذوق ما لا يخفى على اللبيب

من تزاورهم وآداب أُسرهم وعيالهم ليس بالمنال السهل ولا بالمطلب الهين ولا يمكن ان تُستوفى به جميع قواعد النقد وشروطه لقصور الشعر في اكثر الاحيان عن الاغراض التي يرمي اليها علم النقد

ثم ان الاستاذ المشار اليه انتقد اغلاط النسخة التي طبعت من الدرة اليتيمة لمؤلفها ابن المقفّع الكاتب المشهور ونشر النقد المذكور باختصار في مجلتهِ التي أصدرها بعنوان البيان ثم تابع نقد اغلاط اكثر الكتب القديمة التي طبعت حديثاً وقد تحامى بقدر الامكان نقد المؤلفات الجديدة لما يجرُّ ذلك من المشاحنات التي تذهب بفضل الاغراض العلمية اذ لم يعتد علماؤنا وكتّابنا ذلك وظنّاً من الكثيرين منهم ان النقد مما يحطّ من اقدارهم كأَنهم يزعمون العصمة لانفسهم من الخطأ في افعالهم واقوالهم أو على الاقل في مؤلّفاتهم أو كأَنهم يحسبون ان غلطةً او بعض غلطات في كتاب مفيد تذهب بفضل سائر الكتاب ويضيع بها قدر مؤلفه بين اهل العلم

واذا تفقدت ما أتى به في هذا الذيل برَّأت المتنبي من معايب كثيرة نسبها له الشرَّاحُ السالفون ثم وقفت على لمعة من احواله في مقامه وظعنه وما كان له مع كثيرين من ممدوحيه وحاسديه وعلى طرف من اخلاقه وامياله وهذا هو الغرض الأهمُّ الذي يرمي اليه علمُ النقد وقد استفاد ذلك جميعه من شعر المتنبي نفسه

على ان الاستاذ لم يتوخَّ نقد ديوان المتنبي برمَّته بل انتقد بعضاً من الابيات التي عابها شرَّاح ديوانه كالواحدي وابن جني وغيرهما ولو رام نقد المتنبي وايقافنا على احواله واخلاقه كلها بحسب قواعد فن النقد لاحتاج الى تأليف ذلك في كتاب كبير ولاقتضى مزيد البحث ووافر العناء فان معرفة اخلاق واميال واحوال شاعر كالمتنبي بعد ان مرت على اندراجه عشرة قرون وطمست اكثر آثار اهليها وغابت عنا عوائدهم واخلاقهم وحضارتهم وسائر احوالهم الاجتماعية في معاملاتهم ووقوفهم في حضرة ملوكهم وقعودهم في مجالس عظمائهم وملبوسهم ومفروشهم وتهانيهم وتعازيهم وغير ذلك

التصنّع وابراز المعاني في غير قوالبها التي تصوغها القريحة وتسوق اليها البديهة . وكالمرثية التي أوّلها « اني لأعلم واللبيب خبيرُ » فانها اشبه بالقصيدة المتقدم ذكرها لان مقام الرثاء ابعد عن مواطن التصنع والتأنق لما انه مقامٌ تخشع فيه حركات النفس ولا يبقى في الخاطر فضلة عن الاصغاء لمناجاة القلب فيأتي الكلام سلساً منقاداً لصدوره عن وحي القريحة وتلقين الطبع بعيداً عن الارتباك والتعقيد الناشئين عن شدة التبحر واعنات الذهن كما قال

أبلغ ما يُطلب النجاحُ به الـ ـطبعُ وعند التعمّق الزَّلَلُ

الى آخر ماذكر في هذا الباب حفظه الله مما دل على بصيرة نقّادة تستشفُّ المعاني من وراء سجف الالفاظ مهما كان السجف كثيفاً وعلمٍ واسع وقريحة تتدفق باللؤلؤ المنثور والجوهر المكنون كأَنها تغرف من بحر وقلب بمواقع اللفظ عليم . وتوقد ذكاءٍ يحل اعوص المسائل المشكلة فتبدو بعد تحليله صافيةً من اكدار التخليط والتشويش خاليةً من ضعف التركيب وقد فك تعقيد رموزها وحلَّ طلاسم كنوزها .

المشهور بالعرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب وهو أبلغ وأوضح وأفصح شرح لهذا الديوان كما شهد بذلك المنصفون اما الذيل المذكور فهو ذيل يقصر عنه كل ثوب من ثياب التقريظ قال في عرض ذلك حفظه الله

على ان كل واحدة من هذه القصائد لا تخلو عن أبيات قد نكَّب بها عن هذا المذهب (أي مذهب أبي تمَّام) فجآءَ غاية في السهولة والانسجام وهي من مطبوع شعره الذي لا يلمّ بهِ تعمّل ولا تقيّل وبها يُستدَلُّ على سجيَّة المتنبي اذ ذاك وفصاحة لهجته وما رُكّب في طبعهِ من السلاسة وقوة البادرة والنزاهة من التكلف بل ربما رأيت لهُ في خلال هذا الموضع قصائد قد خلت برمّتها عن مثل تلك الشوائب كالقصيدة التي أوَّلها « ضيفٌ ألمَّ برأسي غيرُ مُحتشم » فانها من جودة السبك وحسن اختيار الالفاظ والتراكيب بموضع لاينحطّ عن طبقة الجيّد من شعره وما أحسبها جاءَت كذلك الاّ لأَنه قصرها على اغراض نفسه ولم يخاطب بها أحداً من الممدوحين فلم يدخل ثمّة بين قلبه ولسانه ما يدعو الى

وعوادي الشيخوخة . وكلما كانت المخلوقات حديثة السنّ كانت بنقصها أكثر جهلاً وبحال من حولها أقل علماً وبضعفها أشدّ غروراً وباغلاطها أوفر اعتصاماً كما هو معلوم

وأول مَن أعطى النقد حقه من العرب وكتب فيه ما هو حقيق ان يكتب بماء الذهب علاَّمة العصر غير مدافَع وامام الكتَّاب غير منازَع الشيخ ابرهيم ابن الشيخ نصيف اليازجي اللبناني ولو كان الكلام في ترجمةٍ ووصف لاستعرت كلام الثعالبي فقلت فيه ما قاله في الصاحب ابن عبَّاد وهو : ليست تحضرني عبارة ارضاها للافصاح عن علو محله في العلم والأَدب وتفرّده بغايات المحاسن والمعارف : ولكن الكلام في علم النقد فانا لا أخشى فيما قلتهُ كلام حاسد أو جهول وأردد مع الشاعر وأقول

أَنفوا المؤذّنَ من بلادكمُ ان كان يُنفى كل من صدقا

فالعلاّمة المشار اليهِ كان أَول من كتب في هذا الفن ما يُسمى بحقٍ نقداً وذلك أوّلاً في الذيل الذي ذيَّلَ بهِ شرح ديوان المتنبي لعلامة عصره والده الشيخ نصيف اليازجي

اعراضها فاستنسر البغثان وكانوا على حد قول الشاعر

واذا ما خلا الجبان بارضٍ طلب الطعنَ وحده والنزالا

ولذلك سبب بل أسباب فمنها ان الحكومة المصرية لهذا العهد قد منحت حرّية الكتابة في بلادها كما هو الشأن في المملكة الانكليزية فانطلقت الاقلام تجري في ميادين القراطيس سِكّيتها يباري المجلّي ولطيمها يسابق المسلّي ولا حاكم يعطي فضل السبق ويقضي على المحقوق للمحق

ومنها ان أغلب أهل فوضى الاقلام هذه هم غرباء في وادي النيل وقد قيل في امثالنا الغربة مضيّعةُ الاصول فهم يطلقون العنان لقرائحهم الجامحة واهوائهم الطامحة غير هيّابين ولا باللوم مبالين كأَن ليس عليهم مسيطر أو رقيب ولا وجه جار يخجلون منه أو قريب

ومنها وهو أهمّها فُتوَّة المعارف بعد انقطاع العهد بها عندنا ثم نموّها على حداثة سنّها شأن الطفولية في النبات والحيوان والفنون والصنائع لا تزال تتدرج في مراتب النمو الى ان تبلغ درجات الكمال ثم يسطو عليها بعد ذلك الهرم

العلمآء السالفين فلم يكن الاَّ مقلداً من تقدمه غير مبتكر ولا مبتدع ثم كثر طلاَّب الآداب العربية والعلوم العصرية وتعدَّدت المدارس في بيروت ولبنان فكثر متخرجوها من من كتَّاب وأدباء وشعراء وعلماء يفتخر بهم أهل اللسان العربي وانتشرت صحف الاخبار والمجلات العلمية كالجنان والمقتطف وللمقتطف الفضل والتقدم في هذا الباب فان منشئيهِ العاملين الفاضلين الدكتور يعقوب صروف والدكتور فارس نمر هما أول من فتح باباً للانتقاد في مجلة عربية وهوّن على الكاتب تحمل انتقاد كلامهِ ولحضرتهما الخدم العلمية النافعة الخالدة الآثار الحميدة التذكار في هذه الديار وكثرت كتب العلوم وتعدَّدت المطابع والسابق بالمدح أولى فلمطبعة بولاق القدح المعلَّى. وكثر المؤلفون بيْدَ ان المجيدين قليلون ولا بدع ان اقتحم ثغور الكتابة والتأليف بعض المغرورين من الضعفآء فاهل التمييز في كل بلد قليلون ولا ناقد يردع بتفنيده ويوضح صواب القول من خطائه وصالح التعبير من فاسده ومعتل الكلام من صحيحه وجواهر المعاني من

يعدُّ وجودهم للزمان من جلائل النعم وبدائع الاحسان ولا تجود بهم الأيام الا جودها بتحقيق خيور الاحلام كعلاَّمة عصره ونابغة دهره نسيجُ وحدِه وابن جدّه الشيخ نصيف اليازجي ربُّ التصانيف العديدة والتآليف المفيدة وكالفاضل العالم المجتهد ذي الهمة العلية والنفس الابيَّة المعلم بطرس البستاني صاحب محيط المحيط ودائرة المعارف ومجلة الجنان وكالطبيب النطاسي والاستاذ العالم الدكتور كرنيليوس ڤانديك صاحب الكرة الأرضية والنقش في الحجر وغير ذلك من الكتب المفيدة في الديار الشامية وكالفاضل المجتهد الاديب الالمعي الهمام رفاعه بك ابن السيد بدوي رافع الحسيني في الديار المصرية وكالاديب اللوذعي والفاضل الالمعي أحمد فارس الشدياق اللبناني صاحب الجوائب والجاسوس وسرّ الليال فهؤلاء الاعلام على تفاوت رتبهم في العلوم هم الذين رفعوا مصابيح العلم وحملوا لوآء المعارف منذ النصف الاخير من القرن التاسع عشر بيد انهم لم يكتبوا في هذا الفن شيئاً أو ان بعضهم كتب فنحا نحو

الوزير وهؤلآء كلهم كان بين شفاههم موت أقوام وحياة أقوام لايُحاسبون ولا يُسألون عما يفعلون . وكانت الوشايات والسعايات رأس مال كثيرين من نفايات أهل تلك العصور

واين هذه الاحوال وغيرها من الشؤون التي تقبض عنان القلم وتعقد اللسان عن الجري بكلمة واحدة في هـذا الفن من احوال النقّادين من أُمم الفرنجة لهـذا العهد وما أُبيح لهم من حرية الكتابة والنقد وما أُتيح لهم به من وسائل العلم والتحصيل دون اضاعة طويل العمر ومزيد الجهد فلا عجب بعد هذا ان كان علم النقد لم يكن معلوماً عند العرب بحسب المفهوم منه عند علماء الفرنجة لعهدنا هذا بل لا بدع ان لم يدر في خَلَدهم شبهُهُ وحالهم تلك

ووقف عندنا النقد عند الحد الذي ذكرته لم يتعدَّ ما كتبه علمآء البديع ومَن ذكرتُ من علمآء السلف حقبةً طويلة من الدهر وظل كسائر العلوم والفنون العربية في هجعةٍ هي بالموت اشبه منه بالرقاد الى النصف الاخير من القرن الماضي اذ قيض الله لهذه اللغة الشريفة بعض رجال الفضل والاجتهاد الذين

من أعظم رجال بني العباس حزماً وعلماً وعزماً وحلماً ورأياً ودهاءً وشجاعةً وسؤدداً وسماحةً . وقال ملاّ كاتب جلبي صاحب كشف الظنون : لما أفضت الخلافة الى السابع من بني العباس عبد الله المأمون بن الرشيد تمّم ما بدأ به جدّه أبو جعفر المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بقوة نفسه الشريفة وعلو همّته المنيفة فداخل ملوك الروم وسألهم وصلة ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم من كتب أفلاطون وأرسطو وبقراط وجالينوس وأقليدس وبطليموس وغيرهم وأحضر لها مهرة المترجمين فترجموا له على غاية ما أمكن : فان كانت هذه معاملة المأمون مع وفور نبله وكثرة فضله فماذا تكون معاملة من هو دونه علماً ومحبة للفضل ؟ وكيف يتأتّى لمن كانت هذه أحوال وآداب عصره ان ينتقد التواريخ وقصائد المديح ورسائل الهجاء وكتب الآداب والعلوم والاخلاق والخطب والعادات واكثرها مفتتح بالثناء الطويل والحمد الجزيل والتدليس والتمليق لامير البلدة أو والي المدينة أو الحاكم أو

في ترجمة ابي الحسن العَكَوَّك الشاعر عن ابن المعتز من كتابه طبقات الشعراء قال ما محصله . لما بلغ المأمون خبر هذه القصيدة — وهي التي مدح العكوك بها أبا دُلَف العَجلي وبها يقول

فاذا ولّى أبو دُلَفٍ ولّتِ الدنيا على أثرِهْ
كلُّ مَن في الارض من عربٍ بين باديهِ الى حَضَرِهْ
مستعيرٌ منك مكرمةً يكتسيها يوم مفتخَرِهْ

غضب غضباً شديداً وقال ائتوني به فلما ظفروا به وكان في الشامات هارباً من وجهه حملوهُ مقيداً الى المأمون فلما صار بين يديه قال لهُ يا ابن اللخناء أنت القائل في قصيدتك للقاسم بن عيسى : كلُّ من في الارض من عرب : (وأنشد البيتين) جعلتنا ممن يستعير المكارم منهُ والافتخار به ؟ قال يا أمير المؤمنين أنتم أهل بيت لا يُقاس بكم اذ أنتم فوق الناس وانما ذهبت في قولي الى اقران وأشكال القاسم بن عيسى من هذا الناس فلم يُغنِ عنهُ اعتذارهُ والتماسهُ وتوسّله واستحلَّ المأمون دمه . والمأمون مَن تعلم . قال الصلاح الكتبي وكان

الرئيس ابن سينا اعتقل ومات في السجن فقيل فيهِ

رأيت ابنَ سينا يعادي الرجالَ وفي السجن مات أخسّ المماتِ
فلم يشفِ ما نابهُ بالشفا ولم ينجُ من موتهِ بالنجاةِ

ومثل ابن المعتز مات مخنوقاً ومثل أبي الطيب المتنبي اغتالهُ ليلاً عدوٌّ أحمق غادر لكلمة شطَّ بها قلمه فهدر دمهُ في الصحرآء ومثل ابن هاني وجد قتيلاً في العرآء ومثل شهاب الدين السهروردي الفيلسوف أبيح دمهُ وقتل ادّعآء بضعف عقيدته وهو صاحب القصيدة البديعة المشهورة

أبداً تحنُّ اليكمُ الارواحُ ووصالكم ريحانها والراحُ
وقلوبُ أهلِ ودادكم تشتاقكم والى لذيذِ لقائكم ترتاحُ
وارحمتا للعاشقين تكلّفوا سترَ المحبةِ والهوى فضّاحُ

الى أن يقول منها

فتشبهوا ان لم تكونوا مثلهم ان التشبّهَ بالكرام فلاحُ

وألوف غير هؤلاء هلكوا شهدآء الفاقة أو الغدر وضحايا الاستبداد والجهل والشرّ لم يشفع فيهم فضل ولا علم ولا شعر ومما يناسب ذكره في هذا الباب ما رواه ابن خلكان

ابراهيم النديم حبْس في المطبق مع الحظوة التي نالها عند الرشيد ومثل ابي اسحق ابراهيم الصابئ أُمِرَ بالقائه تحت أيدي الفِيَلَة بعد اعتقال وتعذيب لرُشاشة طارت من قلمه فنُقِمت عليهِ واستُصفي مالهُ ودعاهُ الحال الى هذا المقال

يا أيها الرؤوساآءُ دعوة خادم أوفتْ رسائلهُ على التعديدِ
أيجوزُ في حكم المروءة عندكم حبسي وطول تهددي ووعيدي
أنسيتمُ كُتباً شحنتُ فصولها بفصول درٍّ عندكم منضودِ
ورسائلاً نفذت الى أطرافكم عبدُ الحميدِ بهنَّ غيرُ حميدِ
يهتزُّ سامعهنَّ من طربٍ كما هزَّ النديمَ سماعُ ضربِ العودِ
أنا بينَ اخوانٍ لنا قد أوثقوا بسلاسلٍ وجوامعٍ وقيودِ
وموكَّلينَ بنا نذلُّ لعزّهم فكأَننا لهمُ عبيدُ عبيدِ
واللهِ ما سمعَ الانامُ ولا رأوا نَقَداً توكَّلَ قبلهم بأسودِ
من كلّ حرٍّ ماجدٍ صنديدِ في كلّ وغدٍ عاجزٍ رعديدِ
قصرتْ خُطاهُ خلاخلٌ من قيده فتراهُ فيها كالفتاةِ الرودِ

ومثل أبي الفتح بن العيمد سُملت احدى عينيهِ وقُطع أنفه وجُزَّت لحيته وعُذّبَ ومُثّلَ به طمعاً في مالهِ ومثل

الطالب بابخس ثمن دون عناء بل يطالعها ويستفيد منها بلا قيمة اذا شاء وهذه خزائن الكتب العامة والمكاتب الخاصة ودكاكين باعة الكتب كلها — في اوربا واميريكا — مفتوحة الابواب للعلماء والمستفيدين لا يكلفون دفع فلس ولا يُحْجَبُون بل اين هم من هذه الصحف والمجلات العلمية التي تنشر كل يوم وفي كل ساعة من ساعات النهار مئآت ألوف من النسخ وهي أيضاً مبسوطة معروضة في جميع المكاتب ودكاكين الكتبيين

وأين هم من هذه الملاعب التي تُردَّدُ في اكثرها اشعار المجيدين والفحول من شعرآئهم واقوال حكمائهم وفصحآئهم المبدعين ملحونة وغير ملحونة يجوّدها الممثلون من رجال ونسآء بأحسن القاء وايماء فتنطبع في صدور السامعين

واين هم من هـذه الردهات المشيَّدة لالقاء الخطب والدروس والمناظرات العلمية . بل أين هم من ثروة هؤلاء العلمآء والشعرآء والادبآء وما لهم من المنزلة الرفيعة في تلك البلاد عنـد الملوك والامرآء بل عند الناس عامة ومثل

العسكري والآمدي والماوردي وشهاب الدين الحلبي[1] وابن حجه الحموي وكثيرون غيرهم من علماء البديع وكلهم قد حاموا حول رياضه ورامو الارتشاف من سلسبيل حياضه ولكنهم لم يحلوا رموزه ولا أصابوا كنوزه وأنّى لهم ذلك ولم تجتمع لديهم العدة اللازمة ولا أسعدتهم الأحوال الملائمة فاين هم من حال هذا العصر وبسطة عمرانه وامتداد حضارته وتوفر أسباب العلوم وترقيها والتفنن فيها وتولدها وما أحدث ذلك من الاختراعات والاكتشافات وتقريب البلاد الشاسعة وتسهيل تناول العلوم والمعارف دون اضاعة قسم كبير من العمر في طلبها وتحصيلها من افواه العلماء المتفرقين في اقاصي البلاد واستنساخ الكتب الضخمة او شرائها باغلى الاثمان مع رقة حال اكثر العلماء في تلك العصور واين هم من هذه المطابع التي تتحرك بقوة البخار او الكهربائية في اكثر جهات المعمور وهي تبرز لعالم العلم في كل ساعة الوفاً من الكتب تتناول البحث عن جميع العلوم والفنون في اكثر لغات الارض يحصل عليها

(١) صاحب كتاب حسن التوسل

الغائب منها بالشاهد والحاضر بالذاهب فربما لم يؤمن فيها من العثور ومزلة القدم والحيد عن جادة الصدق . وكثيراً ما وقع للمؤرخين والمفسرين وأئمة النقل المغالط في الحكايات والوقائع لاعتمادهم فيها على مجرد النقل غثاً أو سميناً لم يعرضوها على أصولها ولا قاسوها بأشباهها ولا سبروها بمعيار الحكمة والوقوف على طبائع الكائنات وتحكيم النظر والبصيرة في الاخبار فضلوا عن الحق وتاهوا في بيداء الوهم والغلط . .

وقال بعد ذلك مما يوافق غرض هذا الكتاب :

ولما كان الكذب متطرقاً للخبر بطبيعته وله أسباب تقتضيه فمنها التشيعات للآراء والمذاهب فان النفس اذا كانت على حال الاعتدال في قبول الخبر أعطته حقه من التمحيص والنظر حتى يتبين صدقه من كذبه واذا خامرها تشيع لرأي أو نحلة قبلت ما يوافقه من الاخبار لأول وهلة وكان ذلك الميل والتشيع غطاء على عين بصيرتها عن الانتقاد والتمحيص فتقع في قبول الكذب ونقله :

فانظر كيف كان يحوم حول علم النقد ومثله أيضاً

ذلك فلم يكن الاّ ملماًّ بهِ بعض الالمام وفي قسم واحد منهُ فقط ولا بدَّ من ايراد شيء مما ذكرهُ بهذا المعنى في أول مقدمتهِ المشهورة قال

واقتفى تلك الآثار الكثير ممن بعدهم واتّبعوها وادّوها الينا كما سمعوها ولم يلاحظوا أسباب الوقائع والأَحوال ولم يراعوها ولا رفضوا ترّهات الاحاديث ولا دفعوها فالتحقيق قليل وطرف التنقيح في الغالب كليل والغلط والوهم نسيب للاخبار وخليل والتقليد عريق في الآدميين وسليل والتطفل على الفنون عريض وطويل . . . الى ان يقول والناقل انما هو يملي وينقل والبصيرة تنقد الصحيح اذا تمقل والعلم يجلو لها صفحات الصواب ويصقل . .

والناقد البصير قسطاس نفسه في تزييفهم أو اعتبارهم فللعمران طبائع في أحواله ترجع اليها الاخبار وتُحمَل عليها الروايات والآثار . . ثم قال بعد ذلك لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرَّد النقل ولم تحكم أصول العادة وقواعد السياسة وطبيعة العمران والأَحوال في الاجتماع الانساني ولا قيس

من فوائده التي هي جل الغرض وان وازناها بما قالوه كانت هي الجوهر وماقيل العَرَض فلم يقل اكثر مما قال سواه وان اطال دعواه ولا بأس من ذكر شيء من كلامه في الفصل الرابع في الترجيح بين المعاني قال:

هذا الفصل هو ميزان الخواطر الذى يوزن بهِ نقد درهمها ودينارها بل المحكّ الذي يعلم منهُ مقدار عيارها ولا يزن به الا ذو فكرة متقدة ولمحة منتقدة فليس كل من حمل ميزاناً سمّيَ صرافاً ولا كل من وزن به سمّيَ عرّافاً والفرق بين هذا الترجيح والترجيح الفقهيّ ان هناك يرجح بين دليلي الخصمين في حكم شرعي وهنا يرجح بين جانبي فصاحة وبلاغة في الفاظ ومعانٍ خطابية .. الى آخر ما ذكر مما يتعلق بالفصاحة والبلاغة العربية لاغير أي نقد ما يليق من الالفاظ للمعاني وهل هي فصيحة أم بليغة أم انها جمعت الوجهين أم خلت منهما وهو ما خاض فيه الخائضون وتكلم فيه قبله وبعده كثيرون وهو أقل فوائد علم النقد كما ستعلم

وجآء بعدهم ابن خلدون فتقدم الجميع في هذا الباب ومع

فاذا ما مدحت بالشعر حرًّا رمت فيه مذاهب المشتهينا
فجعلت النسيب سهلاً قريباً وجعلت المديح صدقاً مبينا
وتعلَّيت ما يهجّن في السم ع وان كان لفظه موزونا
واذا ما عرَّضتهُ بهجاء عبت فيه مذاهب المرقبينا
فجعلتَ التصريح منهُ دواءً وجعلت التعريض داءً دفينا
واذا ما بكيتَ فيهِ على العا دين يوماً للبين والظاعنينا
حلت دون الاسى وذلّلت ماكا ن من الدمع في العيون مصونا
ثم ان كنت عاتباً جئت بالوء دِ وعيداً وبالصعوبة لينا
فتركتَ الذي عتبتَ عليهِ حَذِراً آمناً عزيزاً مهينا
وأصحُّ القريض ما قارب النظ مَ وان كان واضحاً مستبينا
فاذا قيل اطمع الناس طرًّا واذا ريمَ اعجز المعجزينا

وهذه القصيدة كما ترى من احسن ما قيل في هذا الباب وجل نقده في كتابه هذا من قبيل ماذكرته لك عن الآمدي وغيره من الشراح والعائبين لا يكاد يتعداه

وحام حول هذا الفن ايضاً ابن الاثير صاحب كتاب المثل السائر لكنه ذهب ذهاب الطائر ولم يسقط على شيء

من هذا الفن وكتابهُ درّة الغواص في اوهام الخواص ادل دليل على ذلك ومن اشتغل بالنقد اي بنقد الشعر ابو علي الحسن بن رشيق القيرواني قال ابن خلكان هو احد الافاضل البلغاء لهُ التصانيف المليحة منها كتاب العمدة في معرفة صناعة الشعر ونقد عيوبه كقوله منهُ

لعن الله صنعة الشعر ماذا　　من صنوف الجهّال منه لقينا
يؤثرون الغريب منه على ما　　كان سهلاً للسامعين مبينا
ويرونَ المحال معنى صحيحاً　　وخسيس الكلام شيئاً ثمينا
يجهلون الصواب منه ولا يد　　رون للجهل انهم يجهلونا
فهُم عند مَن سوانا يلامو　　ن وفي الحق عندنا يُعذرونا
انما الشعر ما تناسب في النظ　　م وان كان في الصفات فنونا
فأتى بعضهُ يُشاكل بعضاً　　واقامت له الصدور المتونا
كلُّ معنىً أتاك منهُ على ما　　تتمنى ولم يكن او يكونا
فتناهى من البيان الى ان　　كاد حسناً يبين للناظرينا
فكأن الالفاظ منهُ وجوهٌ　　والمعاني ركّبنَ فيها عيونا
ان ما في المرام حسب الأَماني　　يتحلى بحسنهِ المنشدونا

بين التعريض والتصريح وما قربت معانيهِ وسهل حفظهُ وسرع علوقه بالقلب ولصوقهُ بالنفس فاما القذف والافحاش فسبَابٌ محض . انتهى كلامه

وحكاية المطرز الشاعر مع الشريف المرتضى هى من هذا القسم ولا بأس من ذكرها . قيل ان المطرّز مرَّ يوماً وفي رجليهِ نعل بالية تثير الغبار فرآهُ الشريف فأمر باحضاره وقال لهُ انشدني ابياتك التي تقول فيها

اذا لم تبلّغني اليكم ركائبي   فلاوردت ماۤءً ولا رعت العشبا

فأنشدهُ اياها فلما انتهى الى هذا البيت اشار الشريف الى نعلهِ البالية وقال أهذه كانت من ركائبك فأطرق المطرز ثم قال لما عادت هبات سيدنا الشريف أيدهُ الله تعالى الى مثل قولهِ

وخذِ النومَ من جفوني فاني   قدخلعت الكرى على العشاقِ

عادت ركائبي الى مثل ما ترى لانك خلعت ما لا تملك على من لا يقبل فاستحيا الشريف منه . فانظر لطف هذا الانتقاد . والحريري صاحب المقامات المشهورة ممن ألمَّ بقسم

الوحشي وما جاوز سفسفة نصر ونظرآئه ولم يبلغ تعجرف هميان بن قحافة واضرابه نعم ولا آمرك باجرآء انواع الشعر كله مجرى واحداً ولا ان تذهب بجميعه مذهب بعضه بل أرى لك ان تقسم الالفاظ على رتب المعاني فلا يكون غزلك كافتخارك ولا مديحك كوعيدك ولا هجاؤك كاستبطائك ولا هزلك بمنزلة جدّك ولا تعريضك مثل تصريحك بل ترتّب كلاًّ مرتبته وتوفيه حقه فتتلطف اذا تغزّلت وتتفخم اذا افتخرت وتتصرف للمديح تصرف مواقعه فان المدح بالشجاعة والبأس يتميز عن المدح باللباقة والظرف ووصف الحرب والسلاح ليس كوصف المجلس والمدام ولكل واحد من الامرين نهجٌ هو به املك وطريق لا يشاركه الآخر فيه وليس ما رسمته لك في هذا الباب بمقصور على الشعر دون الكتابة ولا بمختص بالنظم دون النثر بل يجب ان يكون كتابك في الشوق أو التهنئة أو اقتضآء المواصلة وخطابك اذا حذّرت وزجرت افخم منهُ اذا وعدت ومنّيت فاما الهجو فأبلغهُ ماجرى مجرى التهكم والتهافت وما اعترض

انتهى المقصود من كلامهِ

وهذا ما يسمّيهِ شعراؤنا توارد الخواطر وما أصدق ما قيل قد يقع الخاطر على الخاطر كما يقع الحافر على الحافر ومما تقدم شرحهُ تعلم ان ما سمّوهُ نقداً في هذا الباب لم تصح فيه التسمية ولا حصلت منهُ احدى فوائد النقد التي ستمر بك بعد هذا ان شآء الله

ومن اكابر العلمآء الذين ألمّوا بقسم من هذا العلم وظهر ميلهم اليه القاضي ابو الحسن علي بن عبد العزيز وهو صاحب كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومهِ في الشعر وانا ذاكرٌ لهُ فصلاً من هذا الكتاب ليقف المطالع على مكانهِ من النقد وان كان قولهُ هنا في وصف الكتابة قال:

ومتى سمعتني اختار للمحدث هذا الاختار — أي الكلام السهل اللطيف الرشيق — وابعثهُ على التطبّع واحسّن لهُ في التسهل فلا تظنّن انيِ أريد بالسهل السمج الضعيف الركيك ولا باللطيف الرشيق الخنث المؤنث بل أريد النمط الاوسط وما ارتفع عن الساقط السوقي وانحط عن البدوي

توارد الخواطر لان مسلم بن الوليد أقدم منهُ عصراً وأبو تمّام اطلع على جميع أشعارهِ فلا سبيل لخروج أبي تمّام من هذه السرقة وما شاكلها مما يعدونهُ لهُ سرقات الاّ أن يُقال انه لكثرة ما كان يحفظ من شعر الجاهلية ومَن بعدهم فقد كانت تجري معانيهم وألفاظهم بعينها في أشعارهِ دون ان يراجع ذاكرتهُ أو يتنبّهُ لذلك فعُدَّتْ عليهِ سرقات وهو القول الحق

وما كان أجدر هؤلآء العايبين والشرّاح بقرآءة ما قاله رسطاليس في كتابه في الشعر تلخيص الفيلسوف أبي الوليد ابن رشد ولا بأس من ايراد شيء منه يناسب كلامي هذا قال : والصنف الثالث من الاقاويل الشعرية هو المركب من التخييل والتشبيه وكما ان الناس بالطبع قد يخيّلون ويحاكون بعضهم بعضاً بالافعال مثل محاكاة بعضهم بعضاً بالالوان والاشكال والاصوات وذلك اما بصناعة أو ملكة توجد للمحاكين واما من قِبَل عادة تقدمت لهم في ذلك كذلك توجد لهم المحاكاة بالاقاويل بالطبع والتخييل .

ويناسب بين البيت والذي قبله باللفظ والمعنى الى غير ذلك .
ولهذا فان ادّعآء اكثر الشراح والعايبين وتسميتها بالسرقات
يُعد تعنتًا وتبجّحًا بالباطل واضاعة وقت لهم ولمن يتلمّس
من ورآء اقوالهم نفعاً ولا يُنكر انه وقع لبعض اكابر الشعرآء
من توارد الخواطر شيء كثير ومن ذلك ما لا يُعَدُّ الاّ
سرقة كقول ابي تمّام

يقول في قومسٍ صحبي وقد اخذتْ
منا السُرَى وخُطا المهريّةِ القودِ
أمطلع الشمس تبغي ان تؤمَّ بنا
فقلتُ كلاّ ولكن مطلعَ الجودِ

فقد سبقهُ مسلم بن الوليد فقال :

يقول صحبي وقد جدّوا على عجلٍ
والخيل تجترُّ بالركبانِ في اللُجُمِ
أمغرب الشمس تبغي ان تؤمَّ بنا
فقلتُ كلاَّ ولكن مطلع الكرمِ

فهذا لو سُئل عنهُ ابو تمّام لما استطاع ان يحلف انهُ من

السرقات على نوعين لفظية ومعنوية فاللفظية لا يجسر عليها الاَّ سافل الشعرآء أو المتشاعرين وهذا ما يجدر بالناقد أن يعرض عن ذكر اسمه بعد ان ينبّه الغافلين على مكانه من الشعر بأخصر لفظ . وقولي لفظية أي ان السارق يأخذ البيت أو المصراع منهُ فيدسّه في شعرهِ أو يبدّل منهُ كلمة ليوهم القارئ انهُ من كلامهِ ويكرّر ذلك في اكثر شعرهِ . وأما المعنوية فهذه لم يسلم منها شاعر وهي ليست بسرقة لان شعرآءنا نظموا في أبواب معلومة محدودة من غزل ونسيب وحماسة وهجاء ومدح ورثآء لم تكد تجد لهم في غير هذه الابواب الاّ قصائد نادرة أو أبيات متفرقة والشعر كان لهم صناعة بها يتفاخرون ومنها يرتزقون فلو أراد الشاعر منهم ان يقدح زناد فكرتهِ اعواماً ليبتكر معنىً لم يسبق اليـهِ في جود الممدوح لما وجد الى ذلك سبيلاً وقد قال أحدهم منذ ألف واربعمائة سنة : هل غادر الشعرآء من متردَّم : فمنتهى شاعرية السابق منهم أن يحسن سبك المعنى المقصود منهُ ويجيد التركيب وينتقي الالفاظ الفصيحة في نظر الممدوح أو عشيرته

المملّه الضعيفة والشروح الطويلة العريضة والبراهين الباردة الواهنة فيزعم ان الشاعر سرق المعنى ممن تقدمه وان لا فضل لهُ ولا طلاوة لكلامه ولا برهان لديه على ذلك غير هواه وميله لاثبات مزاعمه وبعد ذلك يحسب انه قد اعطى النقد حقه من البحث الدقيق وانه قد خدم العلم الخدمة التي لا ينتهي فخرها ولا ينقضي شكرها .

وقلتُ ان نقدهم على هذا الوجه او ما يشبهه لم يكن يجري الاّ على اشعار الموتى والمعدمين من الشعراء الذين لم يرزقوا السعادة لانك اذا تفقّدت ما كتبوه عن اهل الحظوة من الكتّاب والشعرآء وغيرهم فضلاً عن الوزرآء والامرآء تجدهُ لا يتعدى التقريظ والتمليق حتى انهم ليتمحلون لاغلاط هؤلآء وجوهاً يمجّها الذوق السليم واعذاراً وتخاريج لا يسلّم بها العلم الصحيح وهي تخالف كل المخالفة البليغ من الكلام والفصيح . ولعلّ لهم في كل ذلك عذراً من آداب تلك العصور وأحوالها وأمّا تبجّحهم بتحصيل السرقات الشعرية فمما لا يُسامحون فيهِ ولا يُعذرون . اذ

الحقيقة وقول ابي تمّام الذي نخفي قول صحيح وقوله وتخفي الذي نبدي اللفظ فاسد لأَن تخفي معناه تكتم وتستر والذي قد أبطلته وازلتهُ لا يجوز ان يعبّر عنه بأنك اخفيته ولا كتمته فان قيل ولمَ لا يكون هذا توسعاً ومجازاً قيل المجاز في مثل هذا لا يكون لان الشيء الذي تكتمه وتطويه انما انت خازن لهُ وحافظ فهو ضد للشيء الذي تزيله وتبطله والاضداد لا يستعمل احدهما في موضع الآخر الا على سبيل المجاز. انتهى المراد منه وهو كلام جدير بالاستبصار.

واكثر ما ترى هؤلاء الشراح تصويباً لسهام النقد نحو بيت اوقصيدة لشاعر غير بخيت معدَم اولميت ومن للميت ان يتكلم وقد حسب بعضهم ان غاية النقد هي تحصيل سرقة للشاعر فيجدّ به الحرص على التفتيش والتنقيب عن ذلك المعنى او التركيب في اقوال الشعراء الجاهليين والمخضرمين والمولدين الى ان يظفر ببيت اوشطر او ببعض المعنى المنقود أو بما يمكن احالته الى ذلك المعنى ولو بالقسر والعنف فيتمحل لهُ الوجوه البعيدة ويتكلف لتأييده الحجج

ونكتمه من ضد ذلك كله لانه في الطبيعة والغريزة والذي كنا نظهره انما هو تصنّع وتكلّف ويدخل في هذا ما يبوح به المحب من الحب الذي كان يكتمه في صحوه ويظهر ضده أو يبوح به من بغض زيد وكان يظهر في صحوه مودته ومنافعه. وكذلك ما يظهر السكر من بخل البخيل ومنع ما كان يتحمله ببذله في الصحو أو ما يظهر من السماحة التي كان لا يسمح بمثلها في صحوه خوف العاقبة ونحو هذا وما سقط من قول الحكماء ان الشراب يثير كل ما وجد أي يظهر كل ما في النفس من خير وشر وحَسَن وقبيح فكل شيء يظهره الانسان وليس في اعتقاده ولا نيّته فان الذي يضمره ويكتمه في نفسه فهو ضده فاذا أظهر السكر اعتقاد المعتقد الذي هو الصحيح فان ضدّه مما كان يتجمل باظهاره يبطل ويتلاشى لان الشراب يخفيه ويطويه في الضمير حتى يكون مكتوماً كما كانت الحقيقة مكتومة هذا محال لان القلب هو محل المعتقدات فلا يجوز ان يجتمع فيه الشيء وضده والاعتقادات لا تكون باللسان لان اللسان يكذب والقلب لا يتضمن الا

ترمي[١] باشباحنا الى ملكٍ   نأخذ من مالهِ ومن ادبهْ

فهذا الحكم من الآمدي غير سديد اذ قول ابي تمام (نأخذ من ماله ومن أدبه) في مخاطبة ملك أو مدحه لا يليق بمقامه الرفيع بل هو بمخاطبة أحد السوقة أشبه واما قول مسلم (يصيب منك مع الآمال طالبها) فهو من شريف الكلام اللائق بمخاطبة الملوك والعظماء كما يتضح لكل ذي ذوق سليم فاين التبريز وأين كلمة اخذ المال منه من اصابة طالب الامال حلمه ومعروفه عدا آماله

وللامدي في خلال موازنته هذه انتقادات دقيقة كقوله عند تخطئة أبي تمام في قوله

بقاعيـة تجري علينا كؤوسها

فتبدي الذي نخفي وتخفي الذي نبدي

ذهب (الضمير عائد الى ابي تمام) في هذا الى ان الخمر تخفي الذي نبديه في حال الصحو من الحلم والوقار والكف عن الهزل واللعب وتبـدي الذي نخفي أي الذي نعتقده

(١) الضمير من ترمي عائد الى الابل

الى أن يقول :

ماتعوَّدتُ ان أرى كأَبي الفضـ ـل وهذا الذي أتاهُ اعتيادُهْ

قال الواحدي وهذا يدلّ على تحرُّز ابي الطيب منه وتواضعهُ لهُ ولم يتواضع لاحد في شعرهِ تواضعهُ لابن العميد

والصاحب ابن عبَّاد كان ممن المواً بفن النقد وكان من المولعين بنقد شعر المتنبي على الخصوص

وأبو القاسم الآمدي كتب شيئاً من النقد في كتابه الموازنة بين ابي تمَّام والبحتري لكن نقده لم يخلص من شائبة التشيّع ولم يخرج عن حدود نقد اكثر الشرَّاح كالواحدي والعكبري وغيرهما اذ يسوقهم الهوى واحياناً الاثَرَة الى ترجيح رأيهم على رأي سواهم حتى لقد يقدمون على ترجيح الباطل على الحق تايداً لذلك كقول الآمدي ان ابا تمام برَّز على مسلم بن الوليد في معنى اخذه منه وهو قول مسلم

يصيب منك مع الآمال طالبها

حلماً وعلماً ومعروفاً واسلاماً

فقال ابو تمام

في كل موضع ولا مختار في كل كتاب بل لكل مقام مقال

وعبد الله بن المقفع صاحب الدرة اليتيمة هو من النقّاد السابقين ومن أنعم النظر في كتابهِ المذكور علم منزلته من النقد وحسبك جوابه لمن قال لهُ من أدَّبَك قال نفسي اذا رأيتُ من غيري حسناً أتيته وان رأيت قبيحاً ابيته

ومعارضة أبي فِراس الحمداني للمتنبي عند انشادهِ قصيدته التي مطلعها واحرَّ قلباهُ ممن قلبهُ شَبِمُ هي من هذا القبيل ومن شآء الوقوف عليها فليراجعها في العرف الطيب في شرح ديوان ابي الطيب

والخوارزمي صاحب كتاب مفاتيح العلوم كتب في الباب الخامس الفصل الخامس في نقد الشعر وهو على حد ما كتب سائر علمآء البديع في عيوب الشعر لم يخرج عن ذلك في شيء

وابن العميد كان يحسن نقد الشعر وحسبك اعتذار المتنبي اليه وكان قد عاب القصيدة الرآئية عليه فقال يخاطبه:

أنا من شدة الحيآء عليلٌ مكرماتُ المُعلهِ عوّادُهْ
ما كفاني تقصير ماقلت فيه عن عُلاَهُ حتى ثَنَاهُ انتقادُهْ

من يكتب اليه — فاني رأيتُ كذا — ورأيكَ انما يكتب بها الى الاكفآء والمساوين ولا يجوز ان يكتب بها الى الرؤساء والاساتذة لان فيها معنى الامر ولذلك نُصِبَتْ . ولا يفرقون بين من يكتب اليه — وأنا فعلت ذلك — وبين من يكتب اليه — ونحن فعلنا ذلك — ونحن لا يكتب بها عن نفسه الاَّ امراؤنا لانها من كلام الملوك والعظمآء[1] الى ان قال وقال ابرويز لكاتبه في تنزيل الكلام انما الكلام أربعة سؤالك الشيء وسؤالك عن الشيء وأمرك بالشيء وخبرك عن الشيء فهذه دعائم المقالات ان التمس اليها خامس لم يوجد وان نقص منها رابع لم تتم فاذا طلبت فاسجح واذا سألت فأوضح واذا أمرتَ فاحكم واذا اخبرت فحقق واجمع الكثير مما تريد في القليل مما تقول قال ابن قتيبة وليس هذا بمحمود

(١) مما يحسن نقده هنا ان ابن قتيبة قد افتتح هذا الكلام بقوله ونحن نستحب الخ فكيف ذهل عن ذلك فاما ان يكون قوله ونحن لا يكتب بها عن نفسه الخ خطأ وصحتها ونحن فعلنا لا يكتب بها الخ واما انه اتى مثل ما نهى عنه وهذا من العجب بمكان

فمن هذا القبيل معارضات دعبل ومسلم بن الوليد لابي نواس ومعارضاته لهما ولغيرهما .وان ارتقينا بالبحث عن طفولية هذا الفن عند العرب فابو محمد عبد الله بن قتيبة صاحب أدب الكاتب هو من أقدم النُقَّاد ومقدمة كتابه المذكور شاهدة بعلو كعبه في قسم من هذا الفن ولا بأس من ايراد شيء من المقدمة المذكورة قال :

ونحن نستحبُّ لمن قَبلَ عنا وائتمَّ بكتبنا ان يؤدب لسانه ويهذب أخلاقه قبل ان يهذب الفاظه ويصون مروءته عن دنآءة الغِيبة وصناعته عن شَين الكذب ويجانب الوقيعة قبل مجانبته اللحن وخطل القول وشنيع الكلام ورفث المزاح « ما أشرف هذه المبادئ واسمى هذه القواعد » الى ان قال ونستحب لهُ أيضاً ان يترك (كذا) الفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب اليه وان لا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس وضيع الكلام فاني رأيت الكتَّاب قد تركوا تفقد هذا من أنفسهم وخلطوا فيهِ فليس يفرقون بين مَن يكتب اليه — فرأيتُ في هكذا — وبين

مغزى هذه اللفظة بمعناها المفهوم منا اليوم الى ما بعد الاسلام بمدةٍ طويلة

بَيْدَ ان ذلك لم يمنعهم من محاولة الاشتغال بهذا الفن جرياً مع ميلهم الطبيعي اليهِ فكان حالهم حال الطفل تدفعه الغريزة الى الوقوف اولاً ثم المشي فلا يقف حتى يقعد ولا يمشي الاَّ ليقع ثم ينهض ليعود الى عمله من السير على غير هدىً فيسقط في حفرة قد تكون سبب هلاكه لانه طلب الشيء قبل أوانه ولا ذنب له بذلك فهو كما تقدم القول مدفوع بميل طبيعي الى غايته وهي المشي على قدميه

فهذه معارضاتهم واستدراكاتهم وتعقيباتهم واعتراضاتهم وجدالاتهم ومشاحناتهم وغير ذلك مما فنَّدوه وذيَّلوه وعلَّقوه وحشُّوه وزيَّفوه وغلَّطوه كلها شاهدة بما طُبعوا عليه من الميل الى الانتقاد الاَّ انه لما لم يكن عندهم علماً مقيداً بقواعد وشروط ولا فنّاً ذا أصول وفروع قد ضلّوا في سبله وتاهوا في بواديه ومالوا مع الاهوآء فزاغوا عن سوآء القصد وابعدوا عنه كل البعد

القسم الاول

الفصل الاول

في

تاريخ النقد عند العرب

لم يكن النقد من العلوم المعروفة عند العرب في عصر من العصور ومع ان الانتقاد من الغرائز التي عُرفوا بها في كل زمن فلم يحددوا له رسماً ولا عرفوا له اسماً ولا اشتقوا من اسمه فنّاً غير ما هو معلوم عندهم من نقد الدراهم أي تمييز جيّدها من زَيفها قال في لسان العرب : النقدُ والتنقاد تمييز الدراهم واخراج الزيف منها. ونَقَد الشيء ينقده نقداً اذا نَقَره باصبعه كما تنقر الجوزة . . وناقدت فلاناً اذا ناقشته في الامر: ومع ان المعنيين الاخيرين يفيدان جل المفهوم من كلمة الانتقاد لهذا العهد فلم يصل الينا شيء يدل على استعمالهم

انسان كتاباً في يومه الاَّ قال في غده لو غير هذا لكان أحسن ولو زيد (كذا) لكان يستحسن ولو قدّم هذا لكان أفضل ولو ترك هذا لكان أجمل وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر

وقال الامام ملاَّ كاتب جلبي لا يخفى عليك ان التعقب على الكتب سيما (كذا) الطويلة سهل بالنسبة الى تأليفها ووضعها وترصيفها كما يشاهد في الابنية العظيمة والهياكل القديمة حيث يعترض على بانيها من عرى في فنه عن القوى والقُدَر بحيث لا يقدر على وضع حجر قال هذا جوابي عما يرد على كتابي

هذا ما قاله ذلك الامام الجليل وما انا منه الاَّ بمنزلة البعوضة من الفيل فاسأل المنصفين من ذوي الفضل الباذخ والمعارف الواسعة والعلم الراسخ أن يقابلوا ما يجدونه في كتابي هذا من الزلات بالصفح وان يسدُّوا خلله بالترقيع لا بالقدح فان العصمة والكمال لمن تفرد بالجلال وهو حسبي وعليه الاتكال قسطاكى الحمصى

مصر في ١ (يوليو) تموز سنة ١٩٠٦

بالغا فان كان فيه شيء من الفائدة أو الصواب فحسبي بها صحيفة أبيّضُ بها وجهي يوم الحساب

فانظرْ الى صنعي بحلمِكَ ثمَّ قلْ   انَّ القليلَ من المقلّ كثيرُ

وان كان فيه مغامز ولا بدَّ ان يكون فايّ كتاب راح سليماً من سهام الظنون وقد تقرر عند الحكمآء والعلمآء انه ليس على واضع العلم الاحاطة والاستقصآء بل حسبه أن يؤسس القواعد أو بعضها ويمهّد الاركان وعلى الاجيال التالية ان تكمّل البنيان فتحذف من القواعد ما تراهُ زائدا أو تزيد ناقصاً يكون لصلتها عائدا أو تبدل ترتيبها أو تحكم وضعها وبالجملة فهذا كل ما في طاقتي ولا يكلف الله نفساً الاَّ وسعها

ولعلي اذا راجعت عملي هذا بعد عام أو بعض عام ارى فيه ما هو حريٌّ بالحذف أو بزيادة الكلام وقد قرأت شيئاً جديراً بهذا المقام للعماد الاصفهاني كتبه الى القاضي عبد الرحيم البيساني معتذراً عن كلام استدركه عليه بكتاب وجَّههُ اليه قال انه وقع لي شيء وما ادري أوقع لك أم لا وها أنا اخبرك به وذلك اني رأيت انه لا يكتب

الفصلين الثاني والثالث وبعض الرابع استفدته من كتاب موسوعات العلوم الكبيرة الفرنسوية فهي حجة بلا منازع وما سوى ذلك فهو بضاعة القريحة العديمة ونتيجة الفكرة العقيمة وثمرة البحث والتنقيب كما يتضح ذلك منه للمحقق الاديب فاني لم أظفر بفريدة تليق بموضوعه الا ضممتها بسلكه ولا التبس عليَّ دينار فضل الاَّ اسرعت في نقده وسبكه وقد بذلت ما في الوسع ليكون سهل الفائدة على الطلاّب واكثرت من امثلة النقد لتمرين التلامذة والكتَّاب بغية أن يلج الحلقات العالية في المدارس ويكون سمير الشبان في الخلوات والمجالس وما منهم الاَّ من يقرأ أو يسمع فلا يخطر على بالهِ الانتقاد أو من ينتقد بلا آلة فلا يهتدي سبيل الرشاد ومعلوم ما لدرس هذا الفن من الفوائد في شحذ القرائح والاذهان وتوسيع مدارك طلاّب العلم على الخصوص من الشبان وقد تخيرت في نقدي أشهر الشعراء والكتبة الاعلام ليحتذي الطالب اسلوبهم في صوغ الكلام واستفرغت جهدي لجعله مورداً سائغا ومشرعاً

له احد من علمائهم مغنى وانهم يعتبرونه من الفنون الذوقية التي لا تخضع لقواعد علمية فما زادني العجب من هذا الزعم الا استمساكاً بما عقدت عليه العزم لا عناداً قبيحا بل لاني لم اجد زعمهم صحيحا ولا رأيهم هذا قرين الصواب كما سترى ذلك في محله من هذا الكتاب

ومما زادنى تشجيعاً على مواصلة التصنيف بعد ان تقوضت حصون آمالي من الفوز بسفر من هذا التأليف تترى الرسائل التي كانت تردني من أفاضل الاخوان واشهر كتّاب العصر وائمة علمآء الزمان في وجوب متابعة العمل خدمة للعلم وطلاّبه واجابةً لحاجة العصر وقد راجت سوق آدابه

على انني لو نظرت الى جرأتي بعين المنصف الحصيف لما ركبت هذا المركب الخشن وانا العاجز الضعيف ولكن طمعي بحلم أهل العلم والفضل قد أوطأني الوعر وجاز بي السهل

وقد قسمت الكتاب الى قسمين كسرت القسم الاول منه على تاريخ النقد وموضوعه والقسم الثاني على قواعده وفروعه وجلّ ما كتبته من تاريخ النقد عند سائر الامم في

وتين[١] وفردينان برونتير[٢] واميل فاجه[٣] وجول لوميتر[٤] وادولف بريسّون[٥] وغيرهم من المعاصرين لا يتعدى نقد مؤلفات ومصنوعات ومؤلفين ومتفنين فيما ان الغرض الذي كنت أرمي اليه والمنهل الذي كنت أحوم عليه هو وضع كتاب في قواعد هذا الفن الجليل يبيح للطالبين استيعابها في وقت قليل ولم اكن اشك لحظة في وجود مثل هذا الكتاب عند أمم الفرنجة الذين كشفوا عن أسرار العلوم كل حجاب فباشرت كتابة الفصل الاول من كتابي هذا على ان يكون منهلاً للورَّاد بل جنة بها من كل فاكهة زوجان في علم الانتقاد وكتبت الى بعض الاصحاب الافاضل في عاصمة الفرنسيس ان يتحفوني باجل مؤلف في قواعد هذا العلم النفيس رغبة في ترجمة القواعد التي هي الغرض الخطير واتخاذه لي هادياً في هذا المطلب العسير فما كان اعظم دهشتي عند أخذي أجوبة الاصحاب على اختلاف في اللفظ واتفاق في المعنى تفيد ان ذلك شيء لم يؤلف فيه كتاب ولا شيَّد

١ TAINE ٢ F. BRUNETIÈRE ٣ E. FAGUET ٤ JULES LEMAITRE
٥ A. BRISSON

فكانت أجوبتهم مكذبةً رائد الآمال هنالك بيد انهم أحسنوا بي الظن وهم معدِن الكرَم وتقدموا اليَّ في كتابة شيءٍ في هذا الفن وقداستسمنوا ذا ورَم فاجفلتُ اجفال النعام وقلتُ أين انا من هذا المقام واعتذرت اليهم بالعجز عن ذلك فلم يقبلوا لي عذرا وراسلوني ملُحّين مشجعين حتى رأيتُ مخالفتهم فظاظةً أو نكرا فأجبت طلبهم اجابة من رأى كمال الادب في الطاعة وشمرت عن عزيمة لم يعبها غير نقص البضاعة مع ما تزاحم على كاهلي الضعيف في تلك المدة من عوامل الاشغال وما هاجم الخاطر الفاتر من جيوش البلبال

وهنا لا بد لي من ان أقص على القارئ ما دهاني من الحيرة والاضطراب عند اخذي القلم لتأليف هذا الكتاب اذ كل ما كنت اطلعت عليهِ من كتب هذا الفن في اللغة الفرنسوية لا ينطبق على ما عقدت على تأليفه النية الاَّ من وجه خفي اجمالي وطرف ذهنيّ خيالي فان جميع ما قرأته لجهابذة هذا الفن المشهورين مثل سنت بوف[١] ورينان[٢]

١ ST. BŒUVE ٢ RENAN

تتعاقب كتب النقد حتى تجاوزت الحصر والعد وانقطع كل واحد من هؤلآء العلمآء لنقد احد العلوم أو فن بالحسن والبراعة موسوم فهذا لكتب التاريخ وذاك لكتب الروايات وغيره لكتب الادب وسواه للشعر وآخر للتصاوير الى ما تضيق عن تفصيله هذه المقدمة لما هو معلوم من تشعّب العلوم والمعارف وتفرع الفنون والطرائف

واني لم أزل منذ ستة عشر عاماً أتتبع سير هذا الفن الجليل مكبّاً على مطالعة كتب ائمته من الفرنسيس اصحاب الباع الطويل حتى صار ذلك هوى النفس لا تنزع الاّ اليه وشاغل الطرف لا يُحب ان يقع الاّ عليه وفي خلال ذلك كنت أقلّب القديم والحديث من كتب العرب لعلي أظفر بشيءٍ مترجم عن اليونان أو بكنز فكر في بعض الزوايا احتجب فلم أفز بالضالة المنشودة ولا يجد المرءُ معدوماً وان بذل مجهوده فكاتبت في ذلك بعض الاخوان الادباء وجهابذة العصر وائمة العلمآء في بر الشام والاقطار المصرية وغيرها من البلاد العربية لعلهم يكونون قد عثروا على شيءٍ من ذلك

النقد في مقدمة الفلاسفة واهل العلم وأُلقيت اليهم مقاليد الرئاسة بين ذوي النظر والفهم فاخذوا في نقد مؤلفات العلمآء والشعرآء النابغين من الماضين والمتأخرين بل ومصنوعات المتفننين من نقاشين ومصورين ونحّاتي تماثيل وموسيقيين ومهندسين وممثلين فوفوا كلاًّ منهم حقه وذكروه بما استحقه فما كان له من سيئة مستورة أشاعوها وفضحوها ومن حسنة مكتومة أذاعوها ومدحوها ومن غلطة مدفونة أبانوها ونبثوها ومن نكتة مجهولة أعلنوها وبثوها فاقبل الناس على مؤلفاتهم اقبال الجياع على القصاع وأنزلوها منزلة الاعلاق النفيسة التي لا تُعار ولا تباع بل رغبوا فيما قرظوه ومدحوه وانصرفوا عما قدحوا فيه وطرحوه فاحيوا بعملهم أسماءً طواها العفآء ونشروا أشياءَ كاد يدركها الفنآء ورفعوا قدر بعض العاديات الى ما يحاكي مقام المعبودات فتزاحم الطباعون على طبع ما ألفوه وتسابق الشارون الى احتكار ما طبعوه حتى لم يعد يظهر عندهم كتاب لعالم مذكور أو كاتب مشهور الا تلته مقالات الانتقاد تنشر في صحف البلاد بل ما زالت

المقَدمة

الحمد لله الذي ترتوي من منهل حكمته ألسنة الوُرَّاد وتعجز عن استجلآء كنه ذاته أبصار النقاد وبعدُ فلا يجهل احد من العلمآء والكتَّاب والمتفننين الذين لهم في الصناعات الجميلة فصل الخطاب ما للانتقاد من جزيل الفوائد اذا جاءَ من اهله وما ينجم عنه من المفاسد اذا جعله الغبي غرض جهله وما برحت تحوم حوله خواطر الفلاسفة والعلمآء في كل عصر وتشرئب اليه اعناق المتفننين والادبآء في كل مصر وتنشر به الامالي منظومة كاللآلي في عقود الدر وتنكشف به خوافي المعاني حتى ليُخيَّل انه من علوم السحر الى ان أصبح في أواخر القرن الاخير شغلاً شاغلاً لكل عالم كبير وفيلسوف نحرير وأيقن جميعهم انه قسطاس العلوم والفنون وعروضها الذي يظهر به المختل من الموزون واضحى علماء

يقعوا عليها ، في تضاعيف سطورٍ ، صرفت على تدوينها ، قسماً من العمر ، وحصةً وافرةً من الزمن في التفتيش والتنقيب ، وساعاتٍ بل أياماً ، بل أشهراً وأعواماً ، في كدّ الفكرة ، واجهاد القريحة ، قصدَ شحذ اذهانهم ، وتوسيع مداركهم ، فأنا بذلك أهدي لهم أعزَّ ما يهديهِ مخلوقٌ الى مخلوق ، فان وقعتْ هديتي هذه لديهم موقعَ القبول ، عددت ذلك من حسنات الأيام ، وشجَّعني اقبالهم ، على تأليف كتابٍ آخر ، مما أَحسَبُ اننا في حاجةٍ قُصوى اليه ، وإن خاب الأمل ، ولم يُقدَرْ قدر العمل إنتسيتُ بما قُضي على تآليف أفاضل القرنِ الأَخير ، وقلتُ لطلاَّبِ العلم بل لجمهور الأَدب الكبير ، بلسان الشاعر الأَمير

نقصُ حظي أنالَني منكَ هذا فعلى الحظِّ لا عليكَ العتابُ

وقانا اللهُ معرّةَ الخجل ، وخيبةَ الأَمل ، بمنهِ وجودهِ .

مصر في ١١ كـ ٢ (يناير) سنة ١٩٠٧

بينهم أمثالُ روكُفلِرّ الغني الاميريكاني الشهير ، يهبُ المائة وخمسين ألف دولارٍ ، لتوسيع مدرسةٍ في بلاد مصر كي يتهذَّب فيها قومٌ ليسوا من أمَّتهِ في شيء ! ! فلا حولَ ولا قوَّةَ الاّ بالله .

وجملةُ القول انني لم أجسر على اهدآء كتابي هذا لاحد من الامرآء ، ولا استحسنتُ اهدآءهُ لاحد من افاضل العلمآء ، لا لنقص عدد هؤلآء ، فانهم والحمدُ للهِ كثيرون ، ولا لبعدي عنهم ، فانَّ لي منهم جمهوراً أعتزُّ بولائه ، بل لحَيْرَتي في اختيار مَن أختارهُ ، خشيةَ أن يُنسَبَ اليَّ تفضيل أحدهم على سواه ، وهم عندي كأسنان المشط ، لا زالوا مصابيحَ هذه الامَّة .

وحيثُ انَّ الاقتدآء بأهلِ الفضلِ رباح ، والتشبُّهَ بالكرام فلاح ، رأيت ان لا أطلق كتابي هذا دون اهدآء ، فجعلتهُ هديَّةً لطلاّب العلم وتلامذةِ المدارس ، لا أقصدُ بالهديَّة اهدآء الثمن ، فانه شيءٌ زهيد ، لا يليق بي اهدآؤه الى أصغر الصعاليك ، وانما أريد بهديتي هذه لهم ، فائدةً أرجو ان

فليتَ شعري أكان ذلك لنقص استحقاق المعاصرين ، عن أن يُعَدُّوا في صفوف مَن سبقهم من العلمآء ، أم لبعد أهل هذا الزمن ، عن مجاراة مَن تقدمهم عصراً في محبة العلم والفضلآء .

أُجيبُ وحسنُ الظنّ بالحرّ أجدر ، لعلّ لنقص حظ هؤلآء الافاضل حصةً وافرة من هذا الحرمان ، فان بين أيدينا من تصانيفهم الجليلة ، ما يُعلي قدر هذا العصر الجديد ، وما يبلغنا كلّ يومٍ عن كرم بعض الامرآء والاغنيآء ، — في غير هذا الباب — ما يُنسي كرم البرامكة والرشيد .

على ان بعض العلمآء والكتّاب عندنا اقتدى بالافرنج ، في اهدآء كتابهِ ، الى أحد من اصحابه ، بيدَ أن الفرق بين صنعهم وصنع الفرنجة ، هو ان جماعتنا أهدوا برًّا بالصداقة لم يكسبهم صنيعهم غيرَ الثنآء ، وأولئك لاعاجم ، انصبّ عليهم المال صبًّا ، فوق وافر الثنآء ، حتى عُدُّوا بين الاغنياء ، فراجت عندهم سوق العلوم ، ونفقتْ فيها بضاعتهم ، حتى بلغوا ما نراهُ لهم اليوم من الترقي والنجاح ، وحتى وُجد

منها يُطبعُ ألف بل ألوف ، استغنى كبار الكتّاب عن اهدآء كتبهم الى الملوك والامرآء ، واصبحت مؤلفاتهم ، موردَ ثروةٍ يتدفّق معينها عليهم ، وعلى الطبّاعين ، والكتبيين ، والممثلين ، واصحاب الملاعب ، والصحف والمجلات ، وحسبك أن تعلم ، ان كتاب قصةٍ أو روايةٍ متْقَنَةٍ ، يعود على بعضهم ، بخمسين ألف دينار ، كما لا يجهلُ ذلك من وقف على اخبارهم لهذا العهد ، فاعتاضوا عن اهدآء مؤلَّفاتهم الى الامرآء ، باهدآئها الى الاقربآء والاصدقآء ، تذكاراً للودّ والولآء ، أو تنويهاً بأهل الفضل من هؤلآء .

ومنذ انبعاث العلوم عندنا في نصف القرن الاخير ، الى يومنا هذا ، لم يتقدم الاّ نفرٌ قليلٌ من العلمآء والادبآء ، على اهدآء كتاب الى احد الامرآء أو الاغنيآء ، ولم نسمع عن أحد من ذوي اليسار ، في سائر اطراف المعمور ، أجاز عالماً من علمائنا على تأليفٍ ، جائزةً يذكرها التاريخ ، كما ذكر أمثال ذلك في القرون الخالية ، الاّ أفراد وقليلٌ ما هم ، مما ظهر عندنا من التآليف الجليلة .

قصرَهُ ، ودارَ العلمآء في برلين عاصمة ملكهِ ، فتمَّ له ما اراد ، وجعلهُ نديمهُ وجليسهُ ، وعيَّنَ لهُ راتباً سنويًّا قدرهُ عشرون ألف ليرة (من دراهم مملكة بروسيا لذلك العهد) ثمَّ انهُ شرَّفهُ بمنحهِ لقبَ حاجب الملك ، وأنعم عليه بوسامٍ سامٍ . وكان ڤولتير يأكل على مائدة هذا الملك العظيم ، وألَّف كثيراً من كتبهِ في قصره ، وكان الملك ينافس فيه ملكهُ لويس الخامس عشر ملك فرنسا . فانظر عناية هؤلآء السلاطين والملوك برجل العلم .

ولو شئتُ تعداد المؤلفين الذين أهدوا كتبهم ، الى الملوك والامرآء الاعاجم خصوصاً آل ميديسي حُماة المعارف والفنون ، لملأت سفراً ضخماً ، لكني رأيتُ ان أشير الى ذلك ، حسبما استدعاهُ مقام الكلام .

ولما توفَّرت اسباب الحضارة عند الفرنجة ، واتَّسعت مذاهبهم فيها ، كما نراهُ ليومنا هذا ، وبلغت العلوم والفنون عندهم مكاناً عليًّا ، حتى صار يكرَّر طبع الكتاب من كتب الادب ، والشعر ، والقصص ، وغيرها الى المئة مرةٍ في كلّ

مما هو مذكور في تواريخهم ، وتبعهم في ذلك آخرون .

ثمَّ لما امتدّت أشعة أنوار الانبعاث العلميّ ، الى سائر أروپّا ، وقام لويس الرابع عشر ملك فرنسا الملقَّب بالكبير ، وبالشمس ، فاق جميع مَن تقدَّمهُ عندهم ، في تعظيم أقدار العلمآء والمتفنّنين ، وتكريم العلم ومساعدة العبقريّين ، وتلا علمآءُ عصرهِ والشعرآء ، يِتلوَ علمآئنا في اهدآء مؤلَّفاتهم تارةً لبعض أمرآء ذلك العصر ، كما فعل كورنيل ، وموليار ، وراسّين ، وطوراً الى الملك الكبير نفسه ، وكان يستمع مع سائر حاشيته وكبار مملكته ، انشادهم وتمثيلَهم ، ويشجّعهم على تحسين الشعر والكتابة وباقي الفنون ، لبصرهِ فيها وحسن نقده ، وكان يجالسهم ، ويجد في محادثتهم بتلك الفنون لذةً وانبساطاً ، ولم تكن مواهبهُ لهم ، دون عنايتهِ بهم .

وكان فريديريك الكبير ملك بروسيا من أكابر الكتَّاب ، وكانت بينهُ وبين ڤولتير المشهور ، صحبةٌ ومراسلة منذ كان وليَّ عهدٍ ، فلما ارتقى عرش الملك ، أرادهُ وعمل على افساد ما كان بينهُ وبين بلاط ملك فرنسا من الصداقة ، ليجمّل به

للعلمآء ، مشجعاً للشعرآء ، وكان يجالس سليمان شلبي وأحمد الطآئي الشاعرين والطبيب حاجي باشا الآيديني ويجزل لهم الصلات .

وللسلطان سليمان القانوني العظيم الملقَّب بالعادل، شهرةٌ تخرُّ لها الرؤس ، وتسجد الاقلامُ فوق الطروس ، وكان نصير المتفنّنين ، وعضد العلمآء والمتأدبين ، فمواهبهُ السلطانية الجزيلة ، وشغفهُ بالصناعات الجميلة ، وما أسَّسهُ من العمران ، وأقامهُ من فخيم البُنيان ، وأشعاره الكثيرة التي كان ينشرها تحت اسم المحّبي وهو اسم مستعار ، ترفع له فوق الارض أعلى منار ، من المجد والفخار ، وتحيي له أشرف تذكار ، ما تعاقب الليل والنهار .

ولما اشرقت انوار الانبعاث العلمي في ايطاليا ، سلك مشاهير البابوات طريقة ملوكنا وأمرآئنا ، في تنشيط العلوم والفنون ، وتكريم العلمآء واسعافهم وتعظيم مقاماتهم ، كما فعل البابا اسكندر السادس ، وضرب على قالبِهِ البابا لاون العاشر من آل ميديسي ، وأُئتمَّ بهَدْيهما البابا بولس الثالث

وافر من العلمآء والافاضل . فمنهم مَن كان يؤلّف بأمر الملوك والامرآء ، ومنهم من كان يُهدي الى مجالسهم العالية ما تجود به قريحتهُ ، لا يبالون بما يصرفونهُ من الوقت الطويل ، في هذا السبيل ، فساعات العلمآء قصيرة ، ولا بما يتحملونهُ من المشاق ، ويعانون من الانصاب في المراجعة والتحقيق ، فهم يشعرون معها بلذّاتٍ كثيرة ، ولا بما يحتاجون اليه من النفقة لراحة البال والدَعة ، فان المنح الملوكية ، والعطايا السنية ، كانت تتوالى عليهم من أولئك الملوك والامرآء ، وكان لكتبهم المهداة أرفع منزلةٍ عند أمرآء عصورهم والعظمآء ، لمعرفتهم قدر العلم ، وتقديرهم مقامات الكتّاب والعلمآء ، وما يعانيه هؤلآء من الانقطاع عن اكثر الملاذّ البشرية في سبيل تلك المؤلفات ، وغرضهم منها تخليد ذكر من أهديت اليه من افاضل بني الانسان ، وتمهيد سبل المعارف البشرية لترقّي العمران .

وكان السلطان سليمان الاول من آل عثمان أعزّهم الله وخلّد ملكهم ، مشهوراً بالفضل ، مذكوراً بالنبل ، محباً

PJ
7507
Q84
1907b

اهدآء الكتاب

جرت عادةٌ لمتقدمي العلمآء والكتَّاب في هذا اللسان العربي المبين ، أن يهدوا تآليفهم لبعض أمرآء عصرهم وحكام زمانهم ، كما فعل أبو منصور الثعالبي باهدآء كتابهِ نثر النظم وحل العقد الى الملك المؤيد أبي العباس خوارزم شاه ، وكتابيهِ المشهورين فقه اللغة ويتيمة الدهر ، الى الامير عبيد الله أبي الفضل الميكالي . وحذا حذْوَهُ الفتح ابن خاقان باهدآء كتابهِ قلائد العقيان الى أمير المؤمنين أبي اسحق بن يوسف بن تاشفين ، وقفا إثرَهما الفيروزابادي باهدآء القاموس لمجلس الملك الاشرف اسمعيل صاحب اليمن ، وجرى على منهاجهم الفيلسوف ابن خلدون باهدآء تاريخهِ المشهور ، الى أمير المؤمنين أبي عبد الله المريّني ، ونحا هذا النحو عددٌ

منهل الورّاد

في

علم الانتقاد

الجزء الاوّل

تأليف

قسطاكي بك الحمصي

الحلبي

عفي عنهُ

مطبعة الأخبار

حقوق الطبع والترجمة محفوظة للمؤلف

يُباع في مكتبة هندية في الموسكي

يُباع في مكتبة المعارف في شارع الفجالة

ثمن هذا الجزء نصف ريال مصري